رائعــةالروائي السوري

عبد الباقي يوسـف

هولير

سدرة العشق

رواية

هولير

سدرة العشق

عبد الباقي يوسف

اســـم الكتـــــاب: هولير سدرة العشق
المـــــؤلـــــف:عبد الباقي يوسف
الطبعة الأولى : 2015
رقم الإيداع في المديرية
العامة للمكتبات العامة: 271 لسنة 2015
أربيل – إقليم كردستان العراق – دار مكتب التفسير للنشر

الفهرس

الفصل الأول

مقام الهوى

كلما ينتهي شهرٌ مبارك من شهورعسل هوليرالحافلة، تهلُّ منارةُ شمسِ شهرِعسلٍ جديدة لم يسبق لها أن نثرتْ بركات أنوارها على صعيد الدنيا من قبل،

تزدادُ هولير في ربوعه ألقاً،

تتفتح براعم قرنفل صباها كما لم تتفتح في قمر شهر.

لا لمسة في عبق بهاء هولير تستنيخ لوهلة تكرار

لاهنيهة في مكرمات مقامها تخضع لرفة جفن ضجر

كل لبِنة من لبنات مسكِ صرحِها تستخرِج ومضَ تجدّدها من ثنايا إطلالةِ هلالِ هنيهةٍ وليدة.

حتى الوجوه التي اعتادت عيناه على رؤيتها في مدار كل يوم، تبدو وجوهاً متجددة في زهرة صبيحة كل يوم جديد، تفصح عن معالم سمات جديدة لم تفصح عنها في يوم مضى.

هكذا يبدو الخبّازُ في مستهلِ إشراقة صبحٍ هوليري جديد،

هكذا يحذو حذوه السمّان،

هكذا بائعُ الحليبٍ الذي يجلب بضاعته صباحاً من عمق قريته إلى ردهات الأحياء المستيقظة للتو، فتجتمع عليه النسوة الهوليريات حاملات بأكفهن الأواني ليملأنها حليباً طازجاً، تم حلبه عقب ركعتي صلاة الفجر.

هكذا بائع الجرائد اليومية الذي يفرشها على مسطبة أمام كشكه وهي ما تزال تحمل رائحة المطابع.

هكذا بائع الدجاج الذي يتجوّل في الطرقات وهو يصيح بأعلى صوته: يالله مريشّك. . يالله مريشّك.

هكذا بائع اسطوانات الغاز الذي ينشر موسيقا بضاعته بين البيوت،

هكذا إمام المسجد الذي تغمره هالة من حياء.

هكذا النسوة الهوليريات وهن يخرجن باكراً من أبواب بيوتهن، يحملن بأيديهن حقائب صغيرة محشوة بنقود ورقية، يبتعن حاجات يومهن من حوانيت مجاورة.

هكذا يدبّ إيقاع الحياة، لحظة تشرق شمس صبيحة جديدة على بهاء قوامها، لحظة يخرج الهوليريون من بيوتهم ليصنعوا دعائم حياة يوم جديد.

هكذا يستفتحُ مصباحُ وجه هولير صبحه الندي برهفات بسمة وليدة لم يتلألأ بهمستها بهاءُ ثغرها في كرنفال يوم أفل.

تمتلك أميرة أبناء الجن الأولى مقدرة نافذة تهيمن بها على شغاف فؤاد كل ساكن في مساكنها، تدبغ أثر لمساتها على سماتهم، على نبرات أصواتهم،

على بناهم ليتحدوا مجتمعين في مزايا هوليريتهم، تجلو على هيآتهم نفحات هوليرية رقراقة، تفوح من أسماهم شذى عبير الأم الجليلة.

لا يزهو ابنُ هولير بخصلةٍ قدر زهوه بأنه هوليري ولد من رحم هوليرية، رضع حليباً هوليرياً من حلمتَي ثديَين هوليريين رشفة رشفة.

ترعرع الهوليريُ منذ أزله على رضاعة حليب هولير يوماً إثر يوم، حتى إذا عمّر قرناً من الدهر، لبث طفلاً رضيعاً دون الفطام على صدرهولير، عندما يفتح عينيه صباحاً، يلوذ بحلمة ثدي الأم الرحيمة ليرتشف رشفة من طيب حليبها تبثُ في بدنه طاقة كافية لبذل جهد

عمل يوم جديد، وعندما يخيّم سكون الليل... يضع رأسه على وسادته مسترخياً، وقد رشف من ثديها رشفة أخرى هيأت له الاستغراق في لفائف نوم عميق بعد عناء مشقة يوم طويل.

استطاعت هولير أن تبسط نفحات حفرياتها على خلايا سكنتها ليمسوا هوليريين بها، حيثما وطأت قدما الهوليري في أي بقعة من سعة أرض الرب، ستجلو عليه آثار حفرياتها، يفوح من حواسه عبيرُ هولير، كل لمسة فيه تبوح بشواهد هوليريته، حتى طريقته المميزة في احتساء كأس من شاي.

هكذا تمتلك ربةُ مدن الكرد مفاعل فتنة مدهشة يتهولر بظلال سحريتها كل بشر يتنسم ذرات نسيمها ما يزيد عن أربعين يوماً، حتى يلفاه يترنح هولرة بثملِ بديعِ خمرها.

تقوم الربةُ الجليلةُ بتعميده شعرة شعرة، ذرة ذرة بيديها الكريمتين، ثم تنشفه بنفخة هوليرية مباركة في طشت ربيعها، بعدئذ تسقيه شربة من خمرة حبها، فلا يملك المقيم المعمّد بنقاء مياهها، المنشف بختم نفخها إلا أن يلفاه مستنجداً تحت وطأة عتق روحانية خمرها الذي يجوب كل ذرة من ذرات بدنه الآفل.

يلقى نفسه غداة عشية وضحاها وقد أمسى هوليرياً، تترطب

مدركاته بشذى صِلات رحمية: مع كل حمامة من رفائف حمامها،

مع كل نافورة من نوافير مروجها،

مع كل مقعدٍ من مقاعد حدائقها،

مع كل مدخل من مداخل أسواقها،

مع كل مئذنة من قباب مساجدها،

مع كل حبة من عسجد ترابها،

مع كل لفظة من إيقاع لهجتها.

حينئذ، لن يكون بمقدوره أن يسلاها رفة جفن، لو نزحت بينها وبينه هضاب العالم، وفي ذروة إدراكه بهول تلك المساحة الشاسعة التي تنزحه عن أثيرة عشق حواسه، لايملك ذاك الشقي في أوج شقائه، أن يكبح جماح حنينه الهائج إلى كل ساعة من ساعات عمره الذهبية في فردوسها، ويلبث كيتيم الدهر الأعزل في غمرة توق أبدية، لعل الله يجود عليه بمنحة نفيسة كرة أخرى.

هولير جُنينة طمأنينة الروح السرمدية، تخبر بأي زيزفونة تُنقّي أرواح سكنتها، مثلما يُنقّى ثوب أبيض من دنس،

بأي أرجوانة تبسط ظلال هوليريتها على ندى حواسهم.

علّمته هولير دروس الحب درساً درساً

درّبته ألفاظ العشق لفظاً لفظاً

أذاقته رحيق قطرات الغرام قطرة قطرة

مشّته على دروب الهيام خطوة خطوة

أسمعته لحن الوجد نغمة نغمة

حفّظته نشيد الهوى ثيمة ثيمة

علّمته أن الإنسان يرتقي في خصال إنسانيته، قدر ما يسلك نهج الحب، ويتهاوى من مجد إنسانيته قدر ما يسلك درب الضغينة

علّمته أن كل نتاجات الإنسان العظيمة، أوقدت شرارة إبداعها حالاتُ حب عظمى، وكل نتاجاته المشينة، أوقدتْ شرارة إنتاجها حالات بغض عظمى.

حينما دنا أوانُ بزوغ الضوء، نهضت مِلكةُ الروح إلى جناح إيابٍ تاركةً وصيتها في مسمعه:

طهّر نفسك بمسك طهرانية حسن ظن

رطّب لسانك بترنيمة حسن ظن

انعش شمّك بلوتس حسن ظن

استمدّ توازنك بفضيلة حسن ظن

رجّح فكرك بحكمة حسن ظن

جدّد مخيلتك برحابة حسن ظن

متّع ناظرَيك بأيقونة حسن ظن

نقّ خلاياك بسكينة حسن ظن.

غمرتهما نسائم ليلك صمت وداعي استغرق زهاء عشر دقائق، ثم ما توانت أن انبعثت نبرات خزامى صوتها في معمعة مسمعه:

ليس لقلبك رشيد سوى رشيد مشكاة حسن الظن

ساعة تبدر بادرة حسن ظن بكائن ضمر لك غلاً، ثم يلقاك تجدّد مليحة حسن ظنك بصنيعه كلّما عاود غلّه، فإنك تضع قدمه ليمدّ خطوة أولى في درب تعديل صنيعه مهتدياً بما نفح عليه تكرار حسن ظنك من هدى.

شبك أنامل كفيه بأنامل كفيها، ثم رفع بصره صاباً جام ارتباكه في حدقتي مقلتيها، وقد أشهر الفراق مديته للفصل بينهما، فغدت نظراته تبتهل لنظراتها بكل ما ملكت من أسرار لغة النظر، وارتجاف حمّى الابتهال أن تتأنى ما أمكنها، وهو يتجرّع على مضض مرارة علقم الفراق الرهيبة.

عندذاك انبجست دموع رقراقة من رهفات فؤادها، وغدت تغالب نوب بلع ريقها المثقل بغصة خطوات المغادرة قائمة على خلجات تأهب استعدادات الفراق الأخيرة.

تمتمت بغصة حارقة على مقربة من مسمعه والدموع تنبجس من حدقتيها: إن لم يعدل من صنيعه، إياك أن تركن إلى ومضة ضجر، فإن استمرار حسن ظنك به إذذاك يمسي وبالاً عليه حتى يبات في مدرج يتلقى فيه ناتج سوءه من ثنايا ديمومة حسن ظنك التي ما تتوانى أن تستمدّ خلايا تجددها.

كلّما أحسنت الظن بأولئك الذين يكيدون لك كيدا، حصّنت ذاتك من وقوع أذاهم عليك.

مسدت على شعره برفق وأردفت: إذ تدرّب نفسك على سلوك حسن الظن، فإنك تلبث قائماً على مسار حسن ظنك حتى بالنسبة لأولئك الذين يقذعونك بأشواك الأذى وأنت تراهم رأي العين.

وإذ تدرّب نفسك على سلوك سوء الظن، فإنك تلبث قائماً على مسار سوء ظنك حتى بالنسبة لأولئك الذين يقدّمون إليك الزهور وأنت تنظر إليهم نظر العين.

ثم استرسلت بُعيد وهَنات سكون:

مؤاخذة تنالها عن ناتج حسن ظن، هي خير من مؤاخذة تصيبك عن ناتج سوء ظن.

دوامك على قبسات بادرة حسن الظن، يروي ظمأ زهرة الظن الحسن في تربة روحك،

دوامك على ظلمات بادرة سوء الظن، يروي ظمأ شوكة سوء الظن السيئ في تربة روحك.

هكذا كل يوم.. كل يوم، تُدرّسه هولير صفحة جديدة من درس أبجدية الوصب، وهي تمتلك قوامة مقدرة صبوة متجذرة في عمق منارة جبل من شغف تتوجت أميرة على قمته.

تخبر كيف تكظم غيظها، ولا تأذن لقلبها أن يجنح عن طوعها شطر ومضة غلٍ واحدة تجاه نفس.

كل تلك الأحقاب الزاخرة بتقويم أحداث عاشتها حدثاً تلو حدث، واقعة إثر صنوتها، رسّخت في عمقها يقين أن الإنسان يمكن له أن يحقق معجزته الذاتية، ويرتقي إلى درجات سمو الفضيلة إذا استعان بطاقات الاستكانة في كوامنه، بيد أنه سيواجه إعصاراً من زيغ في تحقيق كينونته دون تفعيل رعشات الحب في حناياه.

لاتتوانى البتة من وصية أبنائها بأن العمل الذي ينبثق من خصوبة أرضية الحب، يمكن أن تزدهر ذروة نتاجه بشجرة ورد عامرة، والعمل الذي ينبثق من جفاف أرضية الحقد، يمكن أن تزدهر ذروة نتاجه بشجرة شوك عامرة.

الفصل الثاني

شجرة الجبل

هاهو عبق الصيف المجيد، ينثر لقاح نفحاته في رحم نسائم جنبات هولير،

هاهي هولير تبسط أذرعها بغنج للتناغم مع قوامة فصل جديد، كما لو أنه يمدّ رحاله إليها أول مرة ،

هاهي هولير ترتدي قميص الصيف المزركش، وتصرّ أن تبقى مشعشعة بأفق مروجها، بسعة حدائقها العامة المزدانة بنوافير المياه، بسجادة الخضرة المفروشة في ربوعها، فلا يجدّ الفصل الممتاز بحرارته مناصاً سوى أن يُخفّف ما أمكنه من وقع أنفاس حرارة شمسه في هذا المحجّ.

قفز إلى مخيلته ما همسته له هولير:

إن لم تشمس عليك شمس الصيف، لن يورق عليك ورق الخريف.

إن لم يورق عليك ورق الخريف، لن يمطر عليك مطر الشتاء.

إن لم يمطر عليك مطر الشتاء، لن تهلّ عليك دوحة الربيع.

لا يكون صيفكَ صيفاً، إلاّ وخلاياك تتجدّد بشمسه

لا يكون خريفك خريفاً، إلاّ وأنظارك ترنو حكمة أوراقه

لا يكون شتاؤك شتاءً، إلاّ ونفسك تغتسل بمطره

لا يكون ربيعك ربيعاً، إلاّ ووردة نفسك تتفتح في دوحته

استند صوتها إلى جديلة صمت، ثم ما برح أن ترامى :

إن لم يكن لك خصوم، تلبث وحيداً بلا أصدقاء

إن لم يكن لك بغضاء، تمكث مترهلاً بلا أحباء

ألف ضريبة نجاح تقدّمها، خير لك أن تُمنى بضريبة إخفاق واحدة.

هزّ رأسه وهو ينظر إلى الأرض، فأردفت بدفء نبراتها الهادئة:

عندما تّسدّد ضريبة نجاح، فإنك تُسدّدها بلذة ظافر،

وعندما تُسدّد ضريبة إخفاق، فإنك تُسدّدها بخذل مهزوم.

من أزكى فضائل النجاح عليك، أنه يفصح عن الوجه الحقيقي لمبغضيك،

ومن أزكى فضائل الإخفاق عليك، أنه يفصح عن الوجه الحقيقي لمحبيك.

أن تكون ناجحاً يقذفك الفاشلون بحجارة فشلهم، ألف خير لك أن تكون فاشلاً تقذف الناجحين بحجارة فشلك.

إن هذه الورود المزدهرة، تفتحّت إلى جوار هذه الأشواك،

إن هذه الأشواك الواخزة، تشابكت إلى جوار هذه الورود.

مثلما الشوكة تؤدي مهمة تحصين الوردة، يؤدي الخصم وظيفة تحصين النجاح، ما يهبه لك الخصم من تحفيز على آفاق النجاح، قد لا يهبه لك خلٌ وفي.

النجاح الذي لا يتكلل بخصوم، لا يتجاوز أن يكون سراب نجاح، كلما مددتَ أناملك إلى غمامه، تلاشى بين فراغات، حتى يستكين فيك يقين أنك كنت متلبساً بحمّى تكهّن.

لولا تلك العاصفة الهوجاء، لما كان هذا النسيم العليل

لولا هذا النسيم العليل، لما كانت تلك العاصفة الهوجاء.

من أولى علامات النجاح الكبرى، ظهور ملامح خصوم لك من حيث تدري، ومن حيث لا تدري، وكلما تألق النجاح، أفصح عن ملامح خصوم.

عندما تحيا في قلب واقع لايجافيك فيه أحد قط، فذلك برهان بأنك لاتملك مقوّم نجاح طفيف يجدر أن يتكلل بخصم واحد.

تبتغي أن تكون ناجحاً، تجني نضيج ثمار نجاحك دون أن يظهر لك خصوم، تبتغي أن تكون مثل شجرة، تريد أن تعتمر بالورود، دون أن تظهر عليها أشواك.

خيّم صمت عليها، ثم ما توانت أن أردفت:

جميل الفوز، ما انبثق من رحم مشقة

شجرة الصبر، أورقت زهرة الظفر.

الانفعال، علامة أولى من علامات وقوفك خارج مملكة الصبر،

ما تحققه وأنت في محراب مملكة الصبر، يكون بعيداً عن متناولك وأنت في الخارج.

استمدّ أجدادك صبرهم من صبر الجبال على تقلّبات الفصول.

رفع نظره إليها إذ ذاك وقال: ما حكاية الكردي مع الجبال؟

نظرتْ إليه ملياً وطفقت تقول: تزوّج الكردي الجبل، فأنجب جنة عدن على سعة أرض الرب.

اكتنفها سكون، وغدت كأنها شردت، انهمرت دموع رقراقة من عينيها، وشرعت تقول بغصة:

جبل الكردي هو منزله الأول

جبل الكردي هو ستره.

كل أحقاب العجاف تلك

كل فصول الزهو الحوالي، برهنت للكردي الطريد

أن جبله هو قريته المعطاءة

جبله هو عاصمته المضاءة

جبله هو دولته العصماء.

اكتنفتها هنيهات سكون، قطرتْ على إثرها حبقات دموع رقراقة إلى أرنبة أنفها، وشرعت تقول:

لا كردستان في كردستان إذا خلت من أنس جبالها،

إنها تستمد حيويتها على قدرما تغتني بالجبال.

زينة كردستان، لآلئ جبالها

حلّة كردستان، منارة جبالها.

إن خلت كردستان من بهاء جبالها، جردتْ من ألق كردستانيتها.

إذا ضحكت جبال كردستان، ضحكت لها جبال الكون

إذا دمعت جبال كردستان، دمعت لها جبال الدنيا.

كردستان خالدة، ما بقيت جبالها قائمة

لا قوة للكردي دون جبله

لا سند للكردي دون جبله

لا ظهر للكردي دون جبله

لا شمس تشرق على الكردي، في منأى عن جبله.

حينها ومضتْ في مخياله فكرة الانطلاقة إلى رحابة الجبال، يسامر حوافها، يداعب حصاها، يرتوي من عذوبة عيونها، يتسلّق تعرجات مرتفعاتها، يتلمّس نبض طقس الحياة في بيئة الجبل، وهو الذي عاش في قاع المدينة الملتهب، ترعرع على إيقاع صخب الحياة في ردهاتها.

إنها فرصة العمر الذهبية نحو التوغل في هضبة ميراث الكرد.

عند منحدر برودة عصر يوم من الشهر التالي، لمّا ترامت إلى مسمعه طرطرة درّاجة جاره (دلزار) النارية ذات العجلتين، هبّت به قدماه إثر فكرة خطرت له، هرول إلى باب الحوش، فرأى جاره يوقف الدراجة على وقافتها: باشي كاك دلزار

التفت إليه دلزار مجيباً: زور باشم

قال: تلزمني دراجة لعدّة ساعات.

أجاب بوجهه البشوش وهو يمدّ إليه المفتاح: دراجتي تحت أمرك

شكره قائلاً: ليس الآن/ به ياني/ صباح الغد.

هزّ رأسه وقال: على عيني عزيزي.

ممنون، قالها وعاد ببهجة إلى البيت يخبر آفان بأنه سيخرج صباح الغد لقضاء يوم بين جبال هولير بواسطة الدراجة.

شجعته على الفكرة قائلة: حسناً صنعت، ستغيّر الجو قليلاً، لكن رجاءً قد على مهلك حرصاً على العملية، الجرح يبقى جرحاً مهما تلاءم.

في السادسة صباحاً، طرق عليه جاره الباب وقال:/ به ياني باش/ صباح الخير، الدراجة جاهزة.

أبدا له امتنانه الجم وهو يتناول من يده المفتاح، ثم ما لبث أن خرج بعد نحو نصف ساعة.

اتجه إلى أول /بنزينخانة/ كازية وصلها، وعندما فتح قارورة الخزّان ليملأ وقوداً، رآه ممتلئاً حتى الكظة، اعتذر من عامل الكازية قائلاً: / به بورا كاكا /.

ثم اتجه بها صوب الجبال.

دهمته نسائم نشوة غامرة، وهو يستمتع بقيادة الدراجة منشرح

النفس متجهاً إلى ربوع جبال هولير.

بدتْ كرة الشمس الأيلولية أقل سطوة وهي ترتفع وترسل حرارتها النافذة إلى شريان صبح هوليري جديد، يمضي بالدراجة منطلقاً كما لو أنه ملك، يدنو من شهقات الجبال وهو يدندن:

أيتها الجبال الشمّاء

جبال آل الكرد الأزلية

أيتها الجبال الثائرة

منك استمدّ الكرد ثوراتهم

أيتها الجبال المباركة

فيك ينابيع الحب.. ينابيع الحياة.

راوده حينئذ شعور بأن علاقة الكردي بالجبل، هي كعلاقة الوليد برائحة أمه، عندما ولج إلى منحدرات طرق مفروشة بالحصى، أخذ يخفف من سرعة الدراجة متأملاً هيبة انتصاب الجبال، يتوقف قليلاً، يُخرج جهازه الخلوي، ويلتقط صوراً، ثم ما يلبث أن يكمل المسير ببطء في وعورة الطرق الملتوية.

حينئذ استغرق في تأمل عن مدى حاجة الأ رض إلى

سلاسل الجبال التي تنتصب على سطحها بكل ما أوتيت من ثقل، وهي تمدّ جذورها إلى أعماق الأرض لتتشابك بها وتجعلها أكثر ثباتاً، فينصب الجبل نفسه مَلَكاً بسطوة نافذة على الأرض دون أن يجاريه في ملكه أحد قيد أنمله.

أوقف الدراجة، وبدأ يرفع ناظريه إلى السفوح: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)[1]

ردّد الآية وهو يتخيّل كيف أن جبلاً تبوأ مرتبة حمل سورة من القرآن، الجبل الذي يصفه النبي بأنه / يتكوّن من ياقوت أحمر وفضة بيضاء وزجة في زمردة خضراء له ثلاثة ذوائب واحدة في المشرق وأخرى في المغرب، وأوسطهم في السماء/.

الجبل ذاته الذي لفت نظر ذي القرنين من قبل عندما مضى بجانبه ورأى حوله جبالاً صغاراً، فناداه: ياقاف، ما هذه الجبال من حولك؟

قال: هذه عروقي، ليس في الدنيا مدينة إلاّ وفيها عرق منها، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً، أمرني، فحرّكت ذلك العرق، فتزلزل

[1] سورة ق، الآية 1

تلك الأرض.

استغرق في التأمل وهو يسيرعلى قدميه متسلقاً ظهر جبل: {**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**} [1]

ثم تخيّل أن هذا الجبل رغم جبروته، يذرف الدموع، تذكّر قول علي بن أبي طالب:

/ مررتُ أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بجبل، فإذا الدموع تخرج من بعضه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا جبل؟

فقال: يا رسول الله كان عيسى مرّ بي وهو يخوّف الناس بنار وقودها الناس والحجارة، فأنا أخاف أن أكون من تلك الحجارة.

قال له: لا تخف، تلك الحجارة الكبريت، فهدئ الجبل وسكن/.

ثم أخذ يردد:

﴿**وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً**﴾ (2)

بدأت الجبال تفصح له عن معالم كنوزها، وبدا كما لو أنه

---

[1] سورة الحشر، الآية 21

(2) سورة الأعراف، الآية: 74.

منقّب آثار ينبش في عمق المكنونات ليشعر برابطة قرب بينه وبين الجبال، تدهشه لمعات مكتشفاته التأملية.

توقفت به قدماه في قمة جبل، وغدا يجوب بنظراته أعالي الجبال الكثيفة التي تحيط به، فتتحول في لحظات أمام عينيه إلى نجوم الأرض، تمّد الإنسان بمقومات الحياة، فلا يرى نفسه إلا وهو يلوذ بها ليستجلب منها دعائم عمارة الأرض، ويستخرج من بواطنها ثروات من نحاس، وحديد، وقصدير.

حينئذ أراد الإنسان أن يتعرف على مزايا الجبل أكثر، تلافياً لأي لبس بينه وبين مرتفعات قرينة؛ وفي غمرة ديمومة تشاغله أفصح له الجبل عن مزاياه التي لا تقل ارتفاعا عن ألف قدم، فكان على الإنسان أمام هذه المعرفة أن يفرز المرتفعات الشبيهة، ليتحوّل ارتفاع 500 قدم إلى سهل، وما يعلو ذلك إلى 999 قدم يكون تلاً.

هذا الفرز الذي استطاع أن يرسّخ التركيز على مقومات الجبل ليصبح جبل/ إفلاست / أعلى جبل على سطح الأرض لا ينازعه في علوه جبل قط، وهو ينتصب على ارتفاع 8848 متراً، ثم تميّز

القارة الآسيوية بأنها تتمتع بأكبر مساحات جبلية على الأرض، وهي تضم في مساحتها نسبة 64 بالمائة جبلية، ويتبيّن أن قارة أفريقيا هي الأقل جبالاً بما تضم من مساحة ثلاثة بالمئة فقط جبلية.

بين الرقمين الأعلى، والأدنى، تأتي نسبة الوسطية لتتمتع قارة أوربة بنسبة 25 بالمائة جبلية، و22 بالمائة لأمريكا الجنوبية، و17 بالمائة لأستراليا.

مع مرور الزمن، تحولت الجبال إلى ثروة اقتصادية يستخرج منها الإنسان: النحاس، والحديد، والقصدير.

استغرق به التأمل وهو يتخيّل غنى أشكال هذه الجبال التي تختلف بمزاياها من نسق إلى نسق، فلا المنطوية تتطابق مع المتصدعة، ولا المتصدعة تتطابق مع البركانية، ولا البركانية تتطابق مع المقببة، وهي تشكّل مساحة 24 بالمائة من الأرض، تمدّ نصف سكان العالم بالمياه، وتوفر المأوى لنسبة 10 بالمائة من البشر.

عندما بلغت الساعة الثانية، أحس بشيء من الجوع، فتوقف بدراجته تحت ضل شجرة سرو، تحيطه الخضرة.

مدّ يده إلى خرج الدراجة، وسحب كيساً شفافاً، تذكّر أن آفان

دسّته في الخرج وهي تقول: علّك تحتاجه.

فتح عُقدتَي الكيس فرأى تفاحة، وعبوة رائب، وصندويشتين من صدر الدجاج.

خمّن أنها شوت شرائح اللحم على الغاز بواسطة شوّاية الماريا في وقت متأخر من الليل، وأعدتْ الوجبة كي تكون جاهزة في الصباح.

في تلك اللحظات، خطر له كيف أن المرأة تشكّل دعامة أساسية في حياة الرجل، وأن حاجته إليها تفوق حاجته إلى أي مقوّم آخر في الحياة.

تصوّر عمّا كان سيحل به وبالأولاد لولا وجودها إلى جانبهم، هذه المرأة التي آثرته على كل ما يعنيها في الحياة، وها هي تبذل كل ما بوسعها كي تخفف عنه من وطأة مسؤوليات المعيشة اليومية في رحلة اللجوء، تتجاوز مسؤولياتها في كثير من المواقف لتقوم بما هو واجب عليه أيضاً حتى توفر له أكبر مساحة من الهدوء.

يشرد بكل هذه المهمات التي تقوم بها المرأة بهمّة وجدّية، يُدرك بأنها عمودة البيت، عمودة العائلة، عمودة العلاقات

الاجتماعية، عمودة صلات القربى، وليس بوسع الرجل أن يلمس ذلك في منأى عنها.

خطر له آنئذ أن الرجل يشكّل عبئاً على المرأة في مختلف مراحل حياتها، بيد أنها لا تجد مناصاً سوى أن تحتمل بكظم غيظ ما يُسبب لها من أعباء، لأنها لا ترى غير ذلك كي تحافظ على العائلة التي كوّنتها.

راق له أن يتأمل حال البنت عندما تولد، ولا تحظى بما يحظى به الولد من الابتهاج بقدومه، وعندما يتشكّل وعيها، ترى نفسها مرغمة على تحمّل ضريبة أنها أنثى، ثم تمو سنة تلو سنة على تحمّل ما تلقاه من الرجل الذي يتمادى ليبسط سلطته على أدق تفاصيل حياتها الخاصة، تلبث قائمة على حالة التحمّل، ويلبث قائماً على التدخل في مقومات حريتها الإنسانية، ترضخ له حتى وهو يفرض عليها ما ترتدي من ثياب، وهي تيقن بأنها لم تكن لتقبل ذلك لو لم تكن أنثى، ولم تكن لترضخ لو لم يكن صاحب الأمر ذكراً.

عند ذاك تشتعل في مخيلتها فكرة تكوين بيت خاص بها تكون سيدته، وتتخلص من سلطة الأب والأخوة وبعض الأقارب، لكنها

ما إن تقترن بشريك العمر حتى تلفى نفسها أمام قيود جديدة، تنبثق من وقع حياة زوجية.

تستعين بخبرتها المتراكمة مع الرجل في مشقة مقدرة التحمّل لاستيعاب تدخلات هذا الرجل الجديد السافرة، وتحمّل كل ما يبدر منه، فتحتمله ساعة غناه، تحتمله ساعة فقره

تحتمله ساعة عافيته، تحتمله ساعة مرضه

تحتمله ساعة فرحه، تحتمله ساعة ترحه

تحتمله في حله، تحتمله في ترحالـه.

افتر ثغره عن بسمة ثم أخذ يتمتم ويهز رأسه دهشة لجلدها على طاقة التحمّل:

حتى في فراش النوم، فإن المغلوبة على أمرها لا تملك سوى أن ترضخ لحمله.

ثم راح يتخيّل عالم الحيوان، حيث لا ترى الأنثى بدّاً مهما هربت بأنوثتها سوى أن ترضخ للذكر، وهو يطاردها برعونته كي يستوي عليها، ترى نفسها في النهاية تستكين لحمله كي يدعها في حال سبيلها.

تخيّل أن النعجة الوديعة، تحتمل جلافة الكبش وهو يقوم

عليها،

رعونة الحصان وهو ينال من أنثاه،

خيلاء الديك وهو يقع على الدجاجة.

تبيّن له أن بعض هذه العمليات لا تتوانى أن تكون حالات اغتصاب، بيد أنها تستمدّ شرعيتها من مؤسسة الزواج، فيتم ذلك بالرضى من قبل المرأة على مضض مكرهة كي تجنّب نفسها لعنة الملائكة عليها حتى تصبح إذا أمسكت نفسها عن بعلها، وبات قامعاً رغبته بها.

ثم تخيّل علامات الخشونة على الرجل مهما اتسم بالوسامة، علامات النعومة على المرأة مهما اتسمت بالخشونة.

تخيّل ذلك حتى في عالم الحيوان حيث يمتاز الذكر بالرعونة، بينما تمتاز الأنثى بالشفافية، ولا يختلف الأمر سواء بالنسبة للحيوانات الأليفة، أو الحيوانات الشرسة.

عندما يقدم الإبن على فعل حسن، يغبط أبوه وهو يقول بزهو: عفارم عليك يابني، ابن أبيك.

وعندما يقدم على فعل مشين، يوبخ زوجته قائلاً باستياء: هذه

نتيجة تربيتك لابنك.

تصغي إليه، ولا تملك سوى أن تجعل من ذلك حملاً آخراً تضيفه إلى جملة ما تحمله من الرجل.

ينظر إليها، فيزداد شكراً لله الذي أكرمه بامرأة طيبة كهذه، يدرك بأنه لم يكن ليحظى بزوجة تتمتع بهذه المساحة من فورة النقاء لولا عظيم فضل الله عليه، حتى بات أحياناً يقدم شكره لله من خلال تكريمه لها، فيوازي مقدار تكريمه لها بمقدار شكره لله، ومقدار جحوده لجميل الله، بمقدار ما يسبب لها من لحظات استياء، عندما ينظر إليها، يذكر فضل الله عليه، ويمتلئ شعوراً برهبة المسؤولية تجاهها. دوماً تذكّره بأنه طفلها الأثير، عندما تمضي معه في الطرقات، ويريد أن يعبر طريقاً، فإنها تمسك بيده جيداً وتعبر به الطريق.

عنايتها الفائقة رسّخت لديه حالة من الطفولة، فبات يعتمد عليها في احتياجاته كما لو أنه طفل، يعتمد عليها حتى في احتياجات البيت والأولاد والعلاقات الاجتماعية.

يشعر بأمان عندما يغفو على ترنيمة صوتها، وعندما يفتح عينيه،

أو يجفل في دجى الليل، يشعر بطمأنينة وهو ينظر إلى عينيها المغلقتين، وكلما ينظر إليها نظرة، يكتشف شيئاً من سر الله في المرأة.

بدأ يتناول الطعام، وهو يتأمل صفحة الطبيعة من حوله، يستمتع باكتشاف لمساتها الجمالية، يتخيل كم:

من أناس مروا من هنا،

كم من أناس عاشوا هنا،

وبقيت هولير شاهدة على كل شيء،،،

تفوح رائحتها من كل جبل،

من كل تل، من كل منخفض،

من كل شجرة.

أدرك في تلك اللحظات وقد استلقى على ظهره، إثر التفرغ من تناول الطعام، أنه في قلب هذا المكان، يكتشف جانباً من بريق أسرار هولير، يتلمّس مالم يتلمسه في نبض المدينة. أدرك أنه هنا غدا أكثر قرباً من مكنونات هولير، أكثر معرفة بملكة الكرد الأزلية.

راودته رغبة بأخذ قسط من راحة وهو يسبل جفنيه مستسلماً

لرغوة غفوة.

لا يدري كم من الوقت مضى على غفوته عندما استيقظ إثر شعوره بقرصة نملة على كتفه، مدّ أنامله إليها وقذفها، ثم ما لبث أن هب واقفاً على قدميه، وأخذ يستكمل قيادة الدراجة متأملاً ملامح الجبال التي يمضي بجانبها وهي تتحوّل أمام ناظرَيه إلى امتدادات متداخلة مع بعضها البعض على مساحة 000 500 كم مربع من أراضي دولة الكرد القويمة، تزيّن صدرها سلسلة جبال زاكروس الذهبية، ثم تأتي جبال أرارات لتتلألأ على كتفيها كما لو أنها كواكب مضيئة، ويلف خصرها المياد حزام جبال طوروس المزركش، وعلى تفاحتيَ الخدين تتورد إشراقة جبلَي قنديل، هوار، تحاذيهما شامة جبل ليون، ثم ينتصب جبل عفرين بشموخه ناثراً مسكه في الأرجاء.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (1)

قفزتْ الآية بغتة إلى مخيلته، فبات يردّدها كلمة، كلمة وهو يتخيّل منظر الطوفان الأكبر الذي تعرّض له الإنسان، الطوفان

(1) سورة هود، الآية: 44.

المفصلي الذي محق كل شكل من أشكال الحياة ليؤسس جبل كردستان المبارك (الجودي) لمقومات حياة بشرية جديدة، وهو يستقبل سفينة النجاة الوحيدة، ثم ينطلق الإنسان من جديد، في عمارة الأرض، ويعيد بناء ما دمره الطوفان من أركان الحياة، ليعبق كل إنسان بعد ذلك برائحة من عطر الجودي، ويدرك بأنه مدين بنفحات من فضل الجودي عليه.

بيد أن الكردي أبى الخروج عن جباله متنازلاً عن السعي لإقامة أركان دولته في بقعة أخرى من بقاع الأرض، عندما انتشر الناس في أخاديد المناكب، ورسموا لأنفسهم حدود دول خاصة بهم، وهم يتقاسمون الأرض.

عندئذ رسم الكردي حدود دولته في الجبال التي يقطنها، وهو يعلن قيام دولة أمة الكرد، كردستان إلى جانب بقة أمم الأرض.

بدأت الخارطة تجلو أمامه وهو يتخيّل أطماع الدول المجاورة التي بسطت نفوذ سلطتها إلى المساحات التي تمكنت منها وشيئاً فشيئاً أخذت تضمها إلى حدودها، وحتى تضمحل القومية الكردية وتنصهر، بدأت المحاولات لمنع الكردي الحديث بلغته، وحظر أي

ممارسة من شأنها أن تشير سواء من قريب، أو من بعيد إلى هذه القومية المحظورة المحصورة بين دول أربع، حيث استولت بلاد عثمان على أكبر مساحة من الغنيمة، ثم تلتها بلاد فارس، ثم تلاها العراق، ثم سورية، لأن بقاء أي بقعة مجاورة لدولة دون بسط سيطرتها، تكون بمثابة نقطة انطلاقة للكرد من أجل استعادة بقية البقاع.

لفت نظره أن مساحة بلاد الكرد الغنية بالثروات كانت خلف كل تلك الأطماع التي اشتركت فيها دول الجهات الأربع، ولو كانت عبارة عن جبال جرداء، وصحراء خالية لما دنا منها أحد.

أخذ يواصل سيره بتمّهل في منعرجات الطرق وهو يتأمل اغتناء أراضي الكرد بمصادر المياه الوفيرة التي تنعش فيها مقومات لثروات طبيعية، حيث يمتدّ نهر آراس، وهو يجري الهوينى من إقليم بينجو على طول 920 كم ليتكلل في مصب بحر قزوين.

من جانبه يشمخ نهر دجلة بعراقته، وهو ينبع من بحيرة جولجوك، التي تستريح في ضفة طوروس تحت إطلالة المنحى الشمالي لديار بكر، ليواصل مجراه حتى يستقبله مصب خليج بلاد

العرب.

وتجد ديار الكرد حصة ثمينة لها في عذوبة نهر الفرات، فينبع فرعه (قراصو) في دوملوتبة على شرفة شمال أرجوم، إلى جانب نبع فرعه (نهر مراد) من ألاداغ المسترخية بين بحيرة (أوان) وخصوبة جبال آغري، ثم يتعانق الفرعان بشوق شمال مدينة (ألازيغ) ليشكّلا نهر الفرات، الذي ما يتوانى أن يخترق المساحات العراقية السورية حتى يجد له في خليج العرب صبابة.

إلى جانب ذلك يطل نهر قيزيل أوزان الجميل نابعاً من دوحة جنوب غرب مدينة ديوان درة في أيلن، ويضخ مياهه إلى إقليمَي زبخان، وميانة، ومن هناك إلى جنوب مدينة رشت ليصب في بحر قزوين.

ثم يأتي الزاب الكبير، إلى جانب أخيه الزاب الصغير، ليصبا معاً في نهر دجلة.

مياه عزيرة،

جبال عالية،

خضرة وفيرة.

أحس بنشوة انشراح الصدر وهو يتخيّل كيف أن الكردي يستفيق في الصباح الباكر ليبذل قصارى جهده وهو يقوم بفلاحة وزراعة جباله، ويملأها خضرة حتى لايقول قائل: جاعت دابة، أو جاع طير في كردستان.

في غمرة هذه التأملات التي اجتاحته، وهو لمّا يزل يمضي الهوينى على ظهر درّاجته، قفزت إلى ذاكرته وقائع تلك الزيارة التي قام بها إلى مستوطنة (نيفالي تشوري) ورؤيته لتلك المكتشفات الأثرية من الملاعق، والإبر، والمدقات التي تُستخدم في دق الحبوب وطحنها، وأقراص المغازل الصوفية التي توضح طريقتهم في حياكة الألبسة، وأحجار الرحى، والمساحيق، والمناجل ذات المقابض الكبيرة، والمبذار، والمحراث.

وهي تشير إلى رقي أجداده في نمط معيشتهم، ثم ما لبثت أن تداخلت وقائع زيارته إلى تلك الآثار والكهوف التي قام بها، ورأى فيها إيقاعات الحياة، تذكّر :

كهف كونه شمشم بمساحته 70 متراً في دربنديخان

كهف سيدر بمساحته 60 متراً بالقرب من بركلو

كهف كونه كه فتيار بمساحته 4030 متراً بالقرب من مملحة في منطقة سنكاو

كهف ترشاوطه بمساحته 107 متراً في جامر بز بجبال آشداح في منطقة سنكاو

كهف بير بابكر الذي يمتدّ إلى طول 26 متراً في ملومه

كهف كونه با الذي يمتدّ إلى طول 630 مترا في جبال كولان بدربنديخان

كهف سحرا الذي يمتدّ إلى طول 1050 مترا في منطقة نهر ز بزان

كهف هزار ميرد الذي له 11 مدخلاً في سهل برانان.

عندما تباطأت به عجلتا الدراجة حتى ألفاها توقفت، وانطفأ محرّكها، بدا كما لو أنه كان في حلم طويل يجوب أعماق التاريخ، وبغتة استفاق من حلمه.

أراد أن يدير المحرّك مرات عديدة، إلاّ أنه أبى الاستجابة، عندئذ أمسك المقود بكفيه، وبدأ يدفع الدراجة راكضاً بها لعلها تستجيب، أعاد الكرة مرات عديدة حتى نال منه اللهاث دون أن

يفلح في مراده.

عندما توقف بها، امتدت كفه بآلية إلى غطاء الخزان، حرّكه عدة حركات بشدة، ليتبيّن له نفاذ الوقود.

تعجب للأمر وهو يدرك أن الوقود قبل أن تنفذ، تحوّل إلى الاحتياط، فمدّ يده إلى عيار الخزان ليراه معطلاً.

عندئذ وقف في حيرة وهو يشعر بنوبة هلع تدهمه، مدّ يده إلى جهاز هاتفه كي يجري اتصالاً بزوجته، وبعد عدّة رنات ترامى إلى سمعه صوتها الذي جعله يشعر بنسمة طمأنينة، بيد أنه في ذات اللحظة فوجئ بانقطاع الصوت.

وعندما أراد أن يعيد الاتصال، رأى نفاذ الشحن، أدرك أن ذلك حدث بسبب كثرة الصور التي التقطها، إلى جانب مقاطع الفيديو لأماكن لفتت نظره.

صوّب عدّة رمقات إلى جهاز الهاتف الصامت في راحة كفه، ولايدري لماذا قفزت في تلك اللحظات إلى مخيلته مقارنة بين الجهاز، وبين الانسان.

أخذ يقلّبه في يده، وقد خلا من أي شكل من أشكال الحياة،

انطفأت فيه قبسة الحياة التي كانت تجعله متألقاً ينبض حيوية، أمّا الآن، هاهو صامت، منطفئ لم يعد يمتلك أن يَسمع، أو يُسمع، يَرسل، أو يُرسل.

حتى ذاكرته تعرضت للجمود بحيث لم يعد بإمكان أي معلومة مخزّنة فيها أن تبدي حركة. استدار بنظراته إلى الدراجة أيضاً وهمهم: ها أنت يا دراجتي لاتختلفين شيئاً عن هذا الجهاز، وقد خيّمت عليكما انطفاءة مشكاة الحياة.

ثم راح يجوب بنظراته في الأفق، عندها أدرك للتو أنه فقد معرفة الوقت أيضاً، وقد استدرك بأن الجهاز كان المصدر الوحيد الذي يحدّد له الميقات.

رمق جهاز الهاتف الصغير في كفه، وكأنه للتو استدرك بأنه كان الوسيلة الوحيدة لتواصله مع الآخرين، والمصدر الذي يحدّد له الميقات.

أبقى الدراجة على وقافتها، ومضى مهرولاً تحت سطوة الهلع في عمق طبيعة مشرعة على كل احتمال، دون أن يحدّد لخطواته اتجاهاً بعينه، وهو يوزع نظراته في كل الجهات لعلها تقع على أي شيء

يتحّرك يمكن له أن يقدّم إليه نجدة، بيد أن اليأس غدايغزوه رويداً رويداً وهو يبلغ حدّ الإنهاك هرولة، فجلس في أرضه، وهو يرمق علامات الغروب تزحف، وأجنحة الظلمة تتسرّب لحظة تلو لحظة لتخيّم على الطبيعة، الأمر الذي بث مزيداً من الذعر في أوصاله، لكنه في ذات اللحظة امتلأ يقيناً بأنه يعجز عن القيام بأي فعل ينجده من براثن ما وقع فيه.

بدأ يرقب الليل وهو يهبط بحلكته التي تداخلت في ثناياها أصوات حيوانات مختلفة من كل حدب وصوب، وهي تنتشر وتتعالى كما لو أنها كانت متلازمة لسواد الليل.

عندئذ انتفض بكل ما استوطنه من فزع، وهو يتلمّس وقع أقدام حيوانات تدنو إليه، جرى إلى شجرة توت قريبة على مقربة منه، وأخذ يتسلق حتى وقف على غصن وهو يرقب حركات الحيوانات التي بدأت تحلق حول الشجرة، وتصدر أصواتاً مرتفعة تارة، وتارة تتعارك بضراوة.

حينها أدرك أنها تتعارك فيما بينها في سبيل مّن يظفر بنهش الغنيمة المنتصبة على الشجرة.

إثر حدّة عراك استغرق نحو ساعة، انصرفت الحيوانات المجتمعة حول الشجرة جميعاً، حينئذ بدأ ذئب يصدر عواءً كما لو أنه هدير طائرة، وهو يتسلّق جذع الشجرة.

انفجرت منه صرخة مدوّية، وبدأ يستنجد بالأغصان وهو يرتفع ويهزّ الجذوع بقوة؛ في لحظة أحس أن صوته بدأ يتحاور مع عواء الذئب الذي بات على مقربة منه، فكلّما يطلق صرخة ذعر، يستجيب الذئب بنبرة عواء جديدة، وكلما يصدر الذئب عواء، يطلق صرخة ذعر جديدة.

أدرك آنئذ أن الذئب تعارك مع كل تلك الحيوانات حتى ينفرد به، وأنه لن يتنازل عن غنيمته مهما كلفه ذلك من مشقة، وما وجد إلى ذلك سبيلاً.

في تلك اللحظات الأكثر ذعراً في حياته، بدأ يتخيّل كيف أن الذئب ينقض عليه، ويبدأ في نهش لحمه دون أن يجسر على أي ممانعة، أدرك معها كم أن الإنسان مخلوق متناقض، فهو الذي يملك أن يقتل ملايين البشر، يسحق طبيعة بما فيها من أشكال الحياة الإنسانية، والحيوانية، والنباتية.

بذات اللحظة هاهو يقف عاجزاً في مواجهة حيوان يصغره حجماً، وقد ملأ أوصاله بالهلع، هاهو يتخّيل كيف أنه يستسلم بوهن لفكّي هذا الحيوان كي ينقض عليه دون أن يبدي أي مقاومة.

عندئذ بدأت تتضح أمامه معالم القوة الحقيقية، ومعالم القوة الجبانة، فهاهو الذئب الأعزل، وهولايملك سلاحاً سوى أسنانه، وذاك العواء الذي يبث الذعر، وهو يقوى أن يأكل هذا الإنسان، وقد أسلمه لمصير فكّيه دون أن يتزوّد بأي سلاح عمّا يحمله هذا الإنسان، أو يتمتع بقوة تفوق عمّا يتمتع بها.

بعد محاولات عدّة، وقضاء ما قدّر بساعة من الوقت، توقف الذئب عن المحاولة واقفاً تحت الشجرة.

بغتة وهو يترقب بحذر، تعرضت الشجرة لرجة قوية بكامل أغصانها، فانتبه بأن قوائم الذئب قد خذلته للصعود مما أدّى إلى تزحلقه بين الأغصان نحو الأسفل.

كان ذلك بمثابة تنفّس له، والتسلق حتى بلوغ قمة الشجرة، من جانبه أعاد الذئب الكرة، بيد أن الأغصان أخذت تحول بينه وبين مزيد من التسلق حتى غدا فاقداً الأمل بعد محاولات متكررة.

عندذاك لمح جسد الذئب ينحدرعن الغصون، ويبرح الشجرة، لكن ذلك لم يبث إليه الأمن، لأنه تكهّن بأن الذئب قد يكون متوارياً تحت جنح الظلمة بالقرب من الشجرة في حالة ترقب لنزوله.

حينئذ ما توانى أن جلس على غصن يقظأ كنسر دون أن يغفل له جفن وهو يرى الحيوانات الشرسة تمضي في الأسفل وتُصدر أصواتاً قوية حتى خال له أن الموضع الذي هو فيه أمسى ساحة لهذه الحيوانات لاستعراض نغمات أصواتها حيث غطّت هذه الأصوات على كل شيء وكأن لاشيء غيرها في المكان.

تداخل زئير الأسد، بقهقاع الدب، وضباح الثعلب، بنزيب الظبي، وبدا له أنه يستمع فحيح الثعبان، وزمجرة الضبع، قعقعة الصقر، نقيق الضفادع.

في لحظة خطر له أن يسعى إلى محاولة للانسجام مع هذه الأصوات، كي يقي نفسه الرعب الذي يستبدّ به، ويهدأ روعه، فتخيل بأنه في حفل غريب من نوعه، وأن هذا الحفل يتطلب من الحضور الجلوس على أغصان الأشجار في ساحة أُعدّت لذلك، ثم

تبدأ الحيوانات التغني بأصواتها المختلفة بعد أن تم إطلاقها من أقفاصها في تلك الساحة المسوّرة، بحيث كل صوت يتمتع بإيقاع مختلف، يستمر ذلك حتى طلوع الضوء، فتستسلم تلك الحيوانات لحالة من الخدر تحت تأثير الحقن التي تم حقنها بها قبل إطلاقها من الأقفاص، والتي تبدأ مفعولها في تلك الساعة.

تخيّل نفسه في هذا الحفل، وبدأ يستمع الأصوات كما لو أنها سيمفونية يستمتع بعذوبة أنغامها.

مدّ يده إلى حبات توت ناضجة، وأخذ يتلذذ بتناولها على أنغام ما يتناهى إلى سمعه من أصوات متناغمة وهو يدرك مدى المشاهدات الحياتية التي تفوت الإنسان دون أن يكتشفها.

كل ذرة من ذرات جسده بدت مسترخية ومنتشية، بيد أن انبلاج الضوء جعله يخرج لحظة تلو أخرى من عالمه مع تخافت الأصوات من حوله، حتى ألفى نفسه منتصباً على الشجرة، وقد امتدّت خيوط الشمس إليه، ولم يعد يرى أثراً لكل تلك الحيوانات الضارية التي ملأت سكون الليل بأصواتها.

عندئذ أخذ يهبط بتؤدة من بين تشابك الأغصان كما لو أنه كان

على متن طائرة، حتى استوى على الأرض ملتفتاً حوله، رمق درّاجته الواقفة على البعد منه، ثم أولاها قفاه مادّاً خطواته في ردهات الجبال، وقد ارتسمت بسمة على ثغره، تلك العادة التي اكتسبها من أزمات سابقة، وهو يواجهها بالبسمة، فمادام قادراً على البسمة، فإن ذلك يبث إليه إشارة بأنه أقوى من الأزمة، ويستطيع التغلب عليها، لكنه إن عجز عن البسمة، فإن ذلك يعني أنه استسلم لجبروتها، فتنجح الأزمة إذذاك أن تجعل محيّاه يقطر احتقاناً، وبدنه يرتعد توتراً، ودمه يغلي في عروقه تحت سطوة جبروتها، لكنه يتسلّح في مجابهتها بنفوذ البسمة التي تكون له حصانة، فتجعل من وجهه بشوشاً، ومن أعضائه مسترخية، ومن أعصابه مستكينة.

قفزت إلى ذاكرته حالات الاستفزاز التي تعرّض لها، وتمكّن من مواجهتها، والتغلب عليها متسلحاً بالبسمة، حتى أنه بات يعتقد أن أفضل ما يمكن للإنسان أن يقدّمه للإنسان هو أن يجعل بسمة ترتسم على فَيه، ولن يكون بوسعه التجاح في ذلك دون أن يبتسم هو أولاً.

مضى بين الجبال وهو يتخيّل أن البسمة هي مقدمة للضحك، كما

أن بزوغ الضوء هو مقدمة لنهار جديد، وإن لم يبتسم المرء أولاً، لن يكون بوسعه أن يضحك، إن لم يبزغ الضوء، لن يكون بوسع نهار جديد أن يطل.

أخذ يمدّ أنظاره وهو يمضي تحت أشعة الشمس حتى لاح له من بعيد ما يشبه البناء، سرت في أوصاله نشوة أمل، وهو يسارع الخطا مصوّباً نظراته إلى البناء الطيني الذي بات يفصح عن معلمه مع تسارع الخطوات.

عندما غدا على مشارفه، رأى نفسه إزاء بيت طيني شبيه بالكوخ، التفت حوله عسى أن يرى بناء في القرب، لبث مسمّراً على مسافة نحو عشر خطوات من الكوخ الغارق في الصمت، وهو يخمّن ما الذي يمكن أن يخرج منه، أو أنه فارغ، لكنه في ذات الوقت بدا أمام عينيه كما لو أنه سفينة نجاة في هذا التيه.

دنا بخطوتين وقد سبقه صوته: هل من أحد هنا ؟

مسح بنظراته على هيأة البناء المتصدّع الذي بدا مهجوراً، إذ لاشيء يشير إلى مقومات السكن فيه.

بعد ترقب زهاء ربع ساعة، تناهت إلى مسمعه حركة من

الداخل، زحف على إثرها وجل مباغت إليه، آبت به قدماه عدّة خطوات حذرة، وقد تجحظتْ حدقتا عينيه وتحجرتا في شكل الكوخ.

-: ماذا تريد؟

أجفله الصوت الذي انطلق كرصاصة من الداخل، لكنه بذات الوقت وقف حائراً أمام إجابة سؤال كهذا، فلو قال الصوت: مَن أنت ؟

لربما استطاع الإجابة السريعة.

بعد قليل أجاب دون تركيز: أريد مَن يرشدني إلى قرية قريبة

اندفع الصوت: لماذا ؟

قال على الفور: حتى أستعير منها وقوداً لدراجتي كي أعود إلى هولير

لبث ينتظر الرد دون أن يسمع إجابة، مضى بين الأشجار نحو ساعة، ثم ما لبث أن عاد إلى الكوخ قائلاً: هل يمكنك إرشادي مام ؟

بعد قليل تراءى رجل عجوز ببنية قوية يرتدي ثياباً رثّة واسعة

الردن، بدت آثار السنوات محفورة على سحنته.

طلب إليه أن يتراجع قليلاً، فامتثل لذلك، قال الرجل إذذاك: هل تحمل سلاحاً ؟

قال: لا

قال: ولا حتى سكيناً ؟

أجاب بالنفي، عندئذ غدا يتفحصه بعينين ثاقبتين، وبعد لحظات قال: لايمكنك ذلك إلاّ إذا مرّ أحد مصادفة بالقرب من هذا المكان، توجد قرية بعيدة، لكنها تحتاج إلى مَن يخبر المكان حتى لايضيع بين الجبال.

دنا إليه عدّة خطوات، فتفاجأ بأن الرجل بدأ يتراجع بشيء من الذعر، عندئذ اضطر للوقوف. طلب إليه الرجل أن يتجه إلى الأشجار ليقطف ما يشاء ويتناول الإفطار ريثما يظهر مَن يمكن له أن يقدّم له مساعدة، ثم دخل كوخه طالباً إليه ألاّ يدنو منه مهما كان السبب.

قطف لنفسه تفاحة كبيرة، وحبة دراق، وبعض المشمش، ثم راح يغسلها في النبع الجاري من أسفل الجبل، ثم قعد تحت شجرة

حور يتناول الفاكهة، وبعد أن فرغ، لبث قاعداً وهو يمدّ بصره لعله يقع على أي شيء يتحرك يمكن له أن يتجده.

مضى الوقت دون أن يدري به حتى سمع وقع خطوات الرجل العجوز، فنهض وهو ينظر إليه متقدماً إلى النبع، شمّر عن ساعدّيه وراح يتوضأ، ثم تقدم إلى بقعة خضراء وصلى الظهر.

عندئذ راح هو الآخر إلى ذات النبع، وتوضأ، ثم أتى إلى مكان مجاور للرجل، وصلى،

اتجه الرجل إلى مأواه مرة أخرى دون أن يحدّثه بكلمة واحدة، وبعد نحو ساعة خرج متجهاً إلى الأشجار وهو يطلب منه أن يأتي ليقطف لنفسه بعض الفاكهة كي يتغدى.

أحس بأن الرجل لم يبتعد عنه كما كان، فاستغل هدوءه ودنا إليه أكثر حتى وقف إلى جانبه، عندئذ قال له: هل أنت وحدك هنا مام؟

بدا الرجل كما لو أن السؤال أجفله، فرمقه بنظرات ثاقبة دامت نحو دقيقتين، دون أن يجيب، مضى بعد ذلك صوب النبع حاملاً الفاكهة، فتبعه حاملاً فاكهته، بعد تناول وجبة الغداء على حافة

النبع، وجّه أدراجه صوب البيت مشيراً إليه أن يمضي معه.

تقدّم معه إلى البيت الغارق في الصمت، دلف بتردد وهو يلتفت حوله وقد نسي ما هو فيه، وبات يشرد بما يتجسّد أمامه، وبين لحظة وأخرى يتلمّس جسده كي يزيح أي شعور بأنه في حلم، وأنه بالفعل بات ليلته يقظاً كنسر على الشجرة، والدراجة نافذة الوقود.

أغمض عينيه وراح يتذكّر كيف أنه خرج بالفعل من سورية، تعرّف على هولير التي زارته في البيت وقد تجسدتْ بهيئة صبية بالغة الحسن، وأن بيرهات تدرس في مدرسة كردية.

بعد لحظات فتح عينيه، وصار يرمق الرجل العجوز مجدداً، وصار ينتبه إلى حجم الشعر الكثيف الذي يكسو رأسه ووجهه، وإلى حجم الغبار المتراكم على ثيابه، عندئذ تسرّب إليه يقين بأنه إزاء حقيقة ملموسة، وأنه يتقلّب في منعطفات الحياة.

مسح بنظرات سريعة تصدّع الجدران المطلية قديماً ربما لمرة واحدة بالكلس، عندئذ بادره الرجل بالسؤال: أين أمضيت ليلتك؟

قال: أمضيتها على شجرة

قال: يبدو من لهجتك البادينانية بأنك غريب.

قال: أنا سوري، جئت إلى الإقليم لاجئاً حتى يجعل الله لنا مخرجاً

قال: ماذا حلّ بأكراد روزآفا حتى لاذوا بالإقليم؟

نظر إليه بدهشة ثم قال: ألم تسمع بالحرب التي وقعت في البلاد منذ نحو سنتين ونصف ونصف ؟!

أجاب الرجل: منذ ذاك اليوم الأسود، لم يعد يهمني أي شيء يجري في العالم، لأن كل شيء بات متوقعاً من الإنسان، انقطعتُ عن كل شيء، وانقطع كلُ شيء عني.

قال وعلامات الاستغراب بدت على صوته: ماذا حدث في ذاك اليوم الأسود مام ريودار؟

انتبه الرجل إلى مباشرية السؤال، وكأنه كان في غفوة حينما تحدّث، وفي محاولة لتجنّب الإجابة، قال: لاتوجد حرب في تاريخ الإنسان إلاّ وأشعل فتيلها الحكّام، إنهم لايفلحون في شيء سوى حياكة المؤامرات، وغرس النزعات العدوانية بين الناس.

بغتة انبجست دموع غزيرة من مقلتيه كأنها كانت حبيسة، وأخذ يتمتم بحرقة: إنهم لايعرفون أي وجه للرحمة، كأنهم فقدوا أي

انتماء للروح الإنسانية كا كا.

خيّم عليه صمت، ثم أخذ يمسح دموعه الغزيرة بيدَيه الخشنتين وطفق يقول: الحياة هنا تتسم بالهدوء، لاأحد يعكّر عليّ صفوي، الطبيعة هادئة، الجبال أنيسة، الحيوانات المسالمة تسرّ النظر إليها، حتى الحيوانات المفترسة لها أوقات محدّدة تظهر فيها، كل شيء يمضي في نسق متوافق، ومنسجم، ومتكامل، الإنسان هو الذي يأتي ليفسد كل منظومة للحياة، لاأحد يفوق خطورة على طبيعة الحيوان، والنبات، والجماد، من الإنسان، إنه الكائن الأكثر عنفواناً الذي يشكّل تهديداً لكل كائنات الطبيعة، الحيوانات المسالمة لاتملك سوى أن تستسلم لعنفوانه، لكن الحيوانات الشرسة القوية عندما تنفرد به وتتمكن منه، فإنها تنقضّ عليه، تفتك به بكل ما ملكت من انتقام، حتى الحيوانات الصغيرة الواهنة، فإنها عندما تمكّن منه، لاتدع فرصة سانحة لها للانقضاض عليه، مثل الذباب، والبعوض، والدبابير، والعقارب، والأفاعي، والكلاب، حتى الفيضانات والعواصف تشتدّ عليه حتى تردعه.

بتُّ أخاف الإنسان بعد الذي وقع معي، أتوقع منه أي غدر

في أي لحظة، أناس كثر لم أدعهم يقتربوا من بيتي.

اكتنفه صامت لم يدم طويلاً، حتى فاضت عيناه بدموع غزار، واستأنف يقول بحرقة شديدة: ذات يوم من أيام انتفاضة سنة 1991 زحفت الدبابات إلى قريتنا وبدأت بالقصف، حينها لم يبق أمام الناس غير أن يخرجوا من بيوتهم ويتجهوا صوب حدود إيران، إذذاك لاأعرف ما الذي حصل مع سماعي لدوي قذيفة حتى صحوت بعد عدّة أيام في مركز طبي معدّ للاجئين في إيران، فعلمتُ بأن زوجتي وأبنائي قضوا بتلك القذيفة، وقيل لي بأن ثمة شظية في رأسي يصعب إخراجها بعملية جراحية.

عندما عدنا إلى قريتنا بعد أن هدأت الأمور، رأيتُ نفسي وحيداً بلا أحد، كنا نقطن تلك القرية التي أشرتُ لك إليها، وكان هذا البيت بمثابة استراحة نقضي فيه بعض أوقاتنا لأننا نلمك بعض المساحات من هذه الأرض المزروعة بالأشجار.

بقيتُ عشرة أيام في القرية، فأدركتُ بأنني لاأستطيع مواصلة العيش هناك، يومها اتخذتُ قرار العزلة واللجوء إلى هذا الجبل بعيداً عن الناس، أحسستُ بأن الاضطراب نال مني، ولم أعد قادراً على

الحياة في القرية، وفقط في فسحة خالية من ضجيج الناس يمكنني أن أعيش.

منذ ذاك اليوم قطعتُ كل علاقة لي بالوقت وبالناس، لاأعرف ما الذي حدث بعد ذلك، وكم من السنوات مضتْ، كنتُ إذذاك في الخامسة والخمسين، ولم تعد تهمني السنوات، حتى عندما كان يأتي أحد لزيارتي، أو يأتي مصادفة، لم أدعه يقترب مني، لاأريد أن أعود إلى الماضي لأنه لايحمل لي غيروخزات الاضطراب، لاأريد أن أعرف شيئاً عمّا يحدث في العالم، لأن معرفة ما يجري الآن، سوف تعيدني إلى معرفة الماضي، إلى أولادي الذين فقدتهم، إلى زوجتي الطيبة، إلى كل الذين قضوا تحت القصف.

صمت الرجل تاركاً نشيجه المتقطع يعلو وهو يمسح عينيه من الدموع، ثم استأنف حديثه بذات الغصة: هنا أحاكي الجبل، أسامر الأشجار، أستأنس بسماع أصوات الحيوانات، الحياة في هذه الربوع هادئة، وأنا لاأحتاج شيئاً قدر حاجتي إلى الهدوء، والابتعاد عن الناس، هنا اكتشفتُ وجهاً جديداً للحياة، ويبدو لي أنني انسجمتُ

مع ذلك.

لاأعرف سبب هذه العدوانية التي يمارسها الإنسان بحق الإنسان دون أي مبرر، لقد عشتُ قبل ذلك هول الأنفال، مئات الآلاف منّا قضوا في عمليات إبادة جماعية خلال أيام معدودة، كان الأمر بالنسبة لنا أشبه بالطوفان، مئات الألوف من الناس اعتقلوا واختفوا من الحياة دون أن يعرف أحد عنهم شيئاً، حتى الذين نجوا من االمداهمات، أو من القصف، أصبحوا في حالة هوس متوقعين قصفهم بأسلحة دمار شاملة في أي لحظة، لقد عشتُ ذاك الرعب الجماعي الذي استبدّ بنا ساعة إثر ساعة، فلم يبق أمامنا سوى أن نترك بيوتنا وجبالنا ونتجه إلى الأراضي الإيرانية هرباً من هول الرعب، والقصف، والحصار، والمداهمات المفاجئة.

كل الحيوانات الفتاكة التي أعيش بينها الآن لم تسبب لي الرعب الذي سببه لي الإنسان، لم تلحق بي الأذى الذي ألحقه بي الإنسان لأنها في ذروة درجات شراستها، لاتلحق بي الهول الذي ألحقه بي الإنسان.

كأن الناس لم يعد لديهم عمل سوى أن يخططوا لقتل بعضهم

بعضاً، يحيكوا المؤامرات والدسائس ضد بعضهم بعضاً، كأن كل واحد بات يستلذ بمقدار ما يسبب الاستفزاز للآخر، إنهم- كاكا - يمضون في دروب قاتمة يزدادون في منعرجاتها عدوانية، وفي النهاية يكتشفون بأنهم لم يحققوا شيئاً، وقد خسروا كل شيء في اللحظة التي خسروا فيها الإنسان.

كل واحد من هؤلاء الحكّام يقف على تاريخ من الخزي، الظروف التي تنشأ فيها مجتمعاتنا، لاتكون مهيأة لإنتاج شخصيات قيادية، لذلك تؤخذ القيادة بالقوة، لابالحكمة، تؤخذ بالسطوة، لابالتأهل.

إذا نظرنا إلى منجزات هؤلاء، لانرى سوى أنهم استفحلوا حالات العدوانية بين الناس، أثاروا النعرات بين قوميات الناس وشعوبهم وطوائفهم السمحة، الناس الذين بطبيعة فطريتهم يميلون إلى التحابب فيما بينهم، لايوجد رجل هنا يبغض رجلاً هناك، ولاتوجد امرأة هناك تبغض امرأة هنا، ولايوجد طفل في موضع يبغض طفلا في موضع آخر، إلاّ إذا استند هؤلاء جميعاً إلى تلك المنجزات السوداء التي حققها لهم الحكّام.

بدأ الغروب يسدل ستاره على المكان، فأدرك بأنه سيمضي الليلة الثانية أيضاً بعيداً عن عائلته، أحس بثقل غصة تعلو حنجرته، وما لبثت أن ترقرقت دموع من عينيه وهو يتخيّل وجوده مع عائلته، ولأول مرة دهمه إحساس مرير بعدم قدرته التحرّك من المكان، كما لو أنه رهين سجن، أدرك للتو كم أن العائلة تضفي غنى على الحياة، تضفي بهجة على إيقاعها اليومي.

عندما بدأت أصوات الحيوانات تعلو، نهض مام ريودار، وبدأ يغلق الباب الحديدي بشكل جيّد قائلاً: إنها حيوانات مفترسة، تخترق أي مكان يمكنها أن تنفذ إليه.

رغم أنه لم ينم ليلة أمس، أحس برغبة في السهر مع حديث الرجل العجوز، وبدا الرجل كذلك يقظاً ومستمتعاً بالسهر مع هذا الضيف الطارئ.

قال: في الحروب يتحول الناس إلى وحوش كاسرة تفتك بعضها بعضاً، تختفي القيم الإنسانية النبيلة، يقف الرجل أمام الرجل، فيرديه قتيلاً، وليس أكثر توحشاً من ذاك الذي يتحوّل إلى قنّاص، فيطلق الرصاص على الناس كما لو أنه في حالة صيد، وهو يقعد على

أسوأ مرحلة انحطاط يمكن أن تبلغ بإنسان، إذذاك يتجرّد من انتمائه الإنساني لأن أي مشاعر إنسانية مهما كانت متدنية، لوقفت حاجباً بينه وبين ممارسته لذاك اللون المخزي من تفاقم الوحشية.

هزّ مام ريودار رأسه، فأردف يقول:

لم يبق أمام الناس العزّل سوى أن يهجروا كل شيء، ويطلبوا الاستغاثة واللجوء من ديارهم وأهلهم الذين أشعلوا النيران في بعضهم البعض، ليصبح قتال الأخوة في دائرة الحرب أكثر فتكاً من أي قتال، بدأ الناس - مام ريودار- يقتلون بعضهم بعضاً في سر، وفي علن، في الطرقات، وفي البيوت، تحولت البلاد برمتها إلى حرب طاحنة، ومَن لم يتمكّن من اللجوء إلى الجوار، لاذ بعياله للعيش في كهوف حتى تخلو الساحات لأسوأ أشكال القتال والدمار بين هؤلاء.

لبثا ساهرين حتى أدركهما الصباح، بعد أن تناولا بعض الفاكهة، أخذ مام ريودار يمضي به في الأرض المفروشة بالخضار ويتحدث له كيف أنه بات على صداقة مع الأشجار، والأعشاب، والحجارة، والأرانب البرية.

كيف اعتاد سمعه على عندلة العنليب، خترشة الجراد، هديل الحمام، هدهدة الهدهد، لقلقة اللقالق.

تقدّما إلى بركة ماء فيها أسماك وضفادع، جلسا بجانبها فيما تمضي فوقهما أسراب البط والإوز، بعد زهاء ساعتين لاحت لهما سيارة من بعيد تمضي في وعورة الطرقات، قال مام ريودار: يبدو بأن الفرج جاء، انتظرا حتى تقدمت السيارة إليهما، إلاّ أنها وقبل أن تبلغهما، مالت في طريق آخر، وسرعان ما توارت عن أنظارهما. لبثا في الخارج حتى ساعة العصر، حينها تناهى إليهما صوت دراجة، عندئذ استأذنه منطلقاً إليها حتى استطاع أن يجعل السائق يتجه إليه، فطلب منه بعض الوقود.

قال الشاب العشريني: لدي وقود كافية، سوف أزوّد دراجتك حتى نصل القرية، وهناك سأملأ الخزان كي تعود بها إلى البيت.

أصعده خلفه على الدراجة، واتجها إلى حيث الدراجة الواقفة، سحب خرطوماً من الخرج، ثم بدأ يضخ الوقود بواسطتها إلى خزان دراجته...أحس بنشوة عندما أشغل الدراجة قائلاً: شكراً لك كاك بلباس.

ثم طلب إليه أن ينتظره حتى يعود إلى الرجل العجوز، ويودّعه.

عندذاك قال له الشاب بأن مام ريودار لا يريد أن يرى أحداً بسبب ما أصابه، فأخبره بأنه أمضى يوماً معه، حينها دّهش بلباس وهو ينظر إليه ماضياً صوب بيت مام ريودار، فلم يملك نفسه إذذاك، وقاد دراجته متجهاً إليهما، عندما رآه الرجل العجوز يقف على بعد خطوات، دعاه قائلاً: تعال يابني، تعال، هذا ضيفي، أوصيك به. أطفأ الشاب درّاجته غير مصدّق ما سمع، وهب قادماً إليه وهو يقبّل يدَيه، ثم يحتضنه ويبكي قائلاً بأنه من سكّان قريته السابقة.

حين رأى بلباس حميمية لحظات الوداع بينهما قال: مام ريودار، سأغيب نحو ساعة وأعود كي أصطحب ضيفك إلى القرية.

تنفس الرجل العجوز الصعداء، وبدا سعيداً بما سمع، ثم مالبث أن أخذ يتحدّث معه كما لو أنه على معرفة وطيدة به، وسوف يغادره.

في تلك اللحظات رأى الدموع تترقرق في عينيه وهو يقول: كانت أول ليلة خلال كل تلك السنوات التي نام فيها شخص في بيتي.

عندما تقدمت دراجة الشاب يسبقها صوتها المرتفع، احتضنا بحرارة، ثم صعد الدراجة بينما لبث الرجل واقفاً يلوّح له بكفه وهو يستدير ليرد على تلويحته حتى توارى عنه.

قال له بلباس عندما بلغا مشارف القرية: سنذهب إلى بيت - كاك قباد - كي يزوّدك ببعض الوقود من سيارته الشاحنة.

مضى خلفه بالدراجة في طرقات القرية حتى توقف أمام بيت، ثم نادى: كاك قباد. . كاك قباد.

بعد قليل تراءت امرأة بدا بأنها تخبز في التنور خلف البيت.

نظرتْ إليهما، ثم دعتهما للدخول ريثما ترسل أحداً كي ينادي قباد الموجود في بيت قريب.

دخلا البيت، وبعد قليل جاء قباد مرتدياً ثيابه الفضفاضة، ومعتمراً محرمة على رأسه، ولافاً لفحة حول خصره، فقال له بلباس: هل لديك وقود كي تملأ خزان هذه الدراجة كاك قباد؟

أجاب: على رأسي، وعينَي الاثنتين كاك بلباس.

ودّعه الشاب عائداً إلى البيت بعد أن تعهد به قباد الذي شاركه الجلوس حتى قدّم له الغداء، ثم ملأ له الخزّان مودعاً إياه.

الفصل الثالث

نبتـة العشـــق

أمسية الحدث السحري، أحس الخدم بإشراقة غير مألوفة في سيدتهم، راودهم إحساس بالقلق مرة أخرى، وقد أدركوا أنها منذ ساعة الصباح تقوم باستعدادات الخروج.

تشع إشراقة نور حتى من حركاتها، من نبرات صوتها، إذ ذاك قالت خادمة لأخرى: أنا قلقة عليها، مضت آلاف السنين وأنا في خدمتها، لم يسبق لأي حدث أن جعلها تترك القلعة وتخرج، ياه يا صديقتي، كم تبدو القلعة موحشة لا تُطاق عندما تغادرها سيدتنا، ينتابني دوّار، وأشعر كما لو أن حبلاً يلتف حول عنقي.

ابتسمت الثانية بسمة خافتة وقالت: أنا كذلك في دهشة من أمري، تبدو سيدتنا بأنها تضيء كلما خرجت منذ أن فاجأتنا بهذا الخروج بين حين وحين.

ثم أردفت تقول بشيء من الهمس: أخال سيدتنا عاشقة، أكاد ألمح على سحنتها بريق حالة عشق.

قالت الأولى وقد افتر ثغرها عن بسمة: وما علامات ماتخالين ياصاحبتي؟

أجابتها: علامات العشق لاتخفى علي، إنها تكشف نفسها بنفسها، انظري إلى بشرتها كيف تتفتح في الليلة التي تستعدّ للخروج في منتصفها، ولاتعود إلاّ عندما تزحف خيوط الضوء إلى كبد السماء.

في هذه الليلة تستحم برحيق الزهور، تتنشف بأوراق الورود، تدندن بأغنيات عذبة بشدو رخام صوتها.

عندئذ ألفتا سيدتهما قادمة، قالت الثانية: هاهي، سوف أجري اختباراً لحدسي؟!

قالت الأولى: كيف؟

أجابت: سأسألها سؤالاً عن العشق

همست وقد ركبتها دهشة: كيف تتجرّئين بحديث كهذا في حضرة هيبة مولاتنا؟!

مع تبادل أطراف الحديث بين الخادمتين، بلغتهما هولير بخطواتها كما لو أنها شجرة ياسمين في يوم رأس سنة كردية جديدة.

انحنتا لبهاء دنوها إليهما فقالت: أنا خارجة الليلة، لي شأن خارج القلعة سوف أقضيه وأعود.

قالت ذات الخادمة: مولاتي، لدي سؤال يؤرقني، هل تأذنين لي به؟

قالت هولير وقد تمهّلت بها قدماها: سلي ما تشائين، أنا الليلة على جناح بهجة.

قالت بشيء من شجاعة: كنتُ أتحادث مع صاحبتي إن كان قلب مولاتنا قد ذاق لوعة الغرام ؟

ابتسمت هولير وقالت: قلب مولاتك مثل نبتة كردستان العاشقة / هلّكَوكِ /

قالتا معاً بصوت واحد: ما حكاية هذه النبتة ياسيدتي ؟

لبثت هولير في صمت، فأردفتا بذات الصوت الموحدّ: بنا طمع أن نعلم حكاية نبتة كردستاننا هذه، وقد تشوّقنا إلى ذلك.

قالت: لاتنبت نبتتنا الأزلية هذه إلاّ في أماكن شديدة القسوة من جبال كردستان، عندما يتكاثف هطول الثلج، تظهر تلك النبتة المميزة بجمالها ورقتها ورهافتها إلى الطبيعة من قسوة الجبل، ومن

صقيع الثلج.

تنظر حولها، فلا تلمح شيئاً سوى بياض الثلج الذي يكسو كل شيء من الطبيعة حولها، تولد بكل رهافتها في قلب طبيعة ناصعة البياض، ولا ترى غير نصوع بياض في بياض.

هزّت الخادمتان رأسيهما، فأردفت: عندما يلمحها الثلج لأول نظرة، ينتابه شعور غريب بجاذبية نحوها، فلا يملك أن يتجاهل شعوره رغم كل ما يتمتع به من سطوة وجبروت على الطبيعة التي لا ينازعه في سيادته لها منازع.

يتأمل بديع ما أوتيتْ من جمال، ثم ما يلبث أن يتمتم لها وهو يلامسها برقة وحنو: لم أكن أعلم أن لي قلباً إلاّ عندما وقع نظري عليكِ.

تشعر النبتة بكثير من الخجل على إطرائه، وتقول بصوت خافت يسمعه الثلج بالكاد:

كم أنتِ محظوظة يا / هلّكَوكِ / وأنتِ تلفتين نظر سيّد طبيعة كردستان الذهبية.

يهمس: الآن فقط، اكتشفتُ قيمة ومعنى لوجودي.

تجيب بحياء جم: لقد غمرتني بلطفك ياسيّد الطبيعة.

ثم تضيف: كأنك لسان حالي، تنطق بما يعتريني من مشاعر نحوك.

يمتدّ بينهما الغزل ثلاثة أيام وثلاث ليال، عندئذ يقول لها الثلج: ألتمس منك يانبتة كردستان المباركة أن تقبليني زوجاً لك

- يالتواضعك، ويا لرقتك ياسيدي، لي الرفعة أن أتشرف بهذا القِرَان منك،

لكن. ...

تصمتُ النبتةُ تاركة دموعها تنهمر، فما يلبث الثلج أن يمسح لها الدموع الرقراقة وهو يقول: ما أبكاكِ يا سيدة فؤادي؟

تقول: ما أزال صغيرة العهد على الزواج، وإني لأرجو يا سيدي أن تمهلني بعض وقت حتى يكبر حجمي قليلاً، ويشتدّ عودي، ما أزال في أيام ولادتي الأولى، وأنت في ذروة لياقتك وقوتك.

يكمل الثلج مسحه لدموعها وهو يداعبها ويقول: أعتذر

كل الاعتذار لأن جمالك لم يدع لي لحظة كي أنتبه إلى هذا، لك ما تشائين، سوف أنتظر حتى تخبريني بأنك غدوتي مهيأة للزواج.

مضت هولير بخطوات بطيئة، تتبعها خادمتاها، فاستأنفت تقول:

لبث الثلج في حالة انتظار حتى جاء الربيع، وبدأت الشمس تذيبه من أعالي الجبال، ثم أخذ بياضه يخفت ويذوب من غصون الأشجار، ومن الطبيعة.

عندذاك، أحسّت حبيبته أنها غدت مهيأة للزواج، فلم تتردد من مناداته قائلة: الآن يا سيدي يمكننا أن نحقق حلمنا، هلّم واتخذني زوجة لك.

يصمت الثلج دون أن يرد، وعندما تنظر إليه ملياً، تراه شاحباً، وقد نال منه الوهن، فتصدر منه نبرات خافتة: لقد خارت قواي، لم أعد قادراً على الزواج يا جميلتي.

تنتحب النبتة قائلة: لكن لاعليك، أعاهدك بأنني لن أكون حليلة لغيرك، لن أدع أحداً غيرك يمسني يا سيدي.

يبتسم الثلج بسمة شاحبة، ثم ما يلبث أن يتوارى، ثم
تذبل النبتة حزناً على حبيبها.

عندما تهل إطلالة شتاء جديد على جبال كردستان، ينبعث أمل جديد عند الثلج حين يرى حبيبته، وتنبعث لديها إشراقة أمل وهي ترى الثلج يمدّ سطوته إلى سفوح الجبال.

حين بلغت بخطواتها باب الخروج، فوجئت بكل مَن في القلعة لخدمتها يقفون انحناء لها وهم يجهشون بكاء ويقولون بأنهم لايتخيلون بقاءهم في القلعة دونها، لم يخطر ببالهم ذات يوم أنها ستغادر المكان وتتركهم في وحشة.

وقفت للحظات وهي تمسح قاماتهم بنظراتها، ثم ابتسمت هازة رأسها وملوحة لهم يدها ألاّ يخرجوا إلى باب القلعة لوداعها.

مدّت خطواتها الأولى إلى الخارج ترتعد كما لو أن عاصفة شديدة هبّت عليها وهي واقفة في صحراء.

انبجست دموع من عينيها والخطوات تجرجر جسدها، وقد أخذت تقاوم غصة ثقيلة استقرّت في حنجرتها.

بعد عدّة خطوات أبعدتها عن صرحها، توقفت قليلاً، ثم التفتت تنظر إلى مظهر القلعة المهيبة التي يلفها صمت مطبق وقد بلغ

سكون الليل منتصفه.

بدأ الضوء ينبلج كما ألفته في المرات السابقة، ينبلج على الطريق الذي تمضي فيه، وما أن تتجاوزه حتى ينتقل إلى الطريق الجديد الذي تلجه في سيرها إليه.

تمضي في كبد الطريق مادة خطواتها بثقة كما لو أنها في وضح النهار.

عندذاك لمح أحد الحرّاس بأن ذات الأمر قد تكرر، فأنبه زميله وأجريا اتصالات ببقية الحراس كي يحضروا ويشهدوا هذه الظاهرة الغريبة، حيث يتم إضاءة طريق إضاءة طبيعية كما لو أنه ضوء النهار، وهو يتنقل بين الطرق الفرعية.

اجتمع الأسايش في لحظات وهم يتأملون المشهد ويمضون معه دون أن يجسر أحد للدخول إلى مساحة الضوء الذي يمضي في الطريق، عادت ذات الرائحة السحرية العطرة تنعش خياشيمهم، وهولير لمّا تزل تمضي وهي تذرف الدموع مدراراً، وكلما تتساقط دمعة إلى الأرض تتحول إلى جوهرة نفيسة يلتقطها أحد الأسايش.

الطريق إليه، طريق إلى رحابة الحياة، كل خطوة روح تخطوها

إليه، تملأها بقوة عذوبة الحياة.

تمضي وهي تسكب الدموع وتتخيل كيف أنها عاشت كل تلك السنوات دون أن تكتشف هذا الجانب المبهج من الحياة، دون أن تحظى باكتشاف مزايا الهيام، مزايا أن تخرج كمعتوهة في منتصف الليل من قلعتها الشامخة وتمضي بهدي خفقات قلبها، تتذوّق لوعة العشق، وتصبح أسيرة للهوى، تقودها أمواج العاطفة الملتهبة في مدّها .. وجزرها.

لم تكن تعلم أن حياً دون غيره من أحيائها سوف يمتاز بكل تلك الجاذبية، ويُخرجها عنوة من أبهة مملكتها لتجري إليه تاركة كل شيء.

عندما ولجت إليه، ألقت بنفسها في حضنه كما لو أنها كانت غارقة في يم، وقد ألفت سفينة نجاة، بدأت تنتحب على كتفه وقد غمرها شعور أنها لاتساوي شيئاً مجدياً دونه، امتلأت إحساساً بأن مدن الأرض برمتها لاتساوي شيئاً مجدياً إذا خلت من رائحة الإنسان، وأنها لاتتفتح، ولاتزدهر إلا بمقدار ما تتفوّح بعطر الإنسان.

شكل جديد من أشكال العشق،

عبق جديد من عبير العشق،

نسمات جديدة من ربيع العشق.

بدت وكأنها تكتشف كنوز العشق المخبأة، يخفق قلبها خفقات لم يخفقها من قبل،

تتذّوق لذة عسل العشق وهي تشم رائحته، تستطلع منابع سحرية حالة العشق، هكذا عندما تحب للحب فقط، يخفق قلبها للحب فقط بمجرد أنها تخيّل أي لمسة ممّن يحب، تستشعر لذة أن يسري العشق في عروقها.

كل شيء في ناظرَيها بدا جديداً، وبدتْ كما لو أنها في سرمدية عرس كرنفالي.

هكذا مجرّد أن الذي تحبه هو كائن بالقرب منها يمكن في أي لحظة متوقعة أو غير متوقعة أن تلتقيه، يلبث الأمل مشرعاً، تنفتح أمام روحها كل أبواب الحياة، تشعر بعذوبة هيجان العاطفة.

تخيلت وهي في حضنه كيف بمقدور الحب أن ينبثق بغتة من تحت جنح المجهول ويحمل معه معالم حياة كاملة، لكن هذا هو

الحب، كأن حلوه لايكتمل إلاّ بمرّه، كأن زهوره لاتكتمل إلاّ بأشواكه.

الفصل الرابع

مظفر الدين كوكبري

طال شوقه إلى هوليرالعظيمة، داهمه أحياناً شعور مرير بأنها سلته، طاف شوارعها، وقف أمام القلعة على جبال من الشوق الفائض علّها تطل برأسها من نافذة وتناديه، ثم يعود إلى البيت متلهفاً لرؤيتها كما خرج.

بدأ ينظر إليها ذرة ذرة، ينظر والدموع تنهمر من عينيه.

مدّت أناملها وأخذت تمسح الدموع التي تسيل على خدّيه.

طبع قبلة على ظاهر كفلها متمتماً: إنها دموع الشوق، أشعر بأنها تريحني، تخفف عني قليلاً من لهب التوق.

قالت: يبدو أنني تأخرتُ عليك.

رفع عينيه الممتلئتين بالدموع ينظر إلى مصحف وجهها: تأخرتِ كثيرا يا حياتـي. . توقعتُ أنك ستأتين في عيد الفطر.

- كيف أمضيت رمضانك الأول هنا؟
- كان أكثر رمضان رمضاناً، كان ياهولير أكثر

رمضان غني وروحانية، أكثر بركة من كل تلك الرمضانات التي شهدتها.

اكتشفت هنا كيف يمكن للمرء أن يحتفي بهذا الشهر، كيف يمكن له أن يوقر منزلته.

- أفتخر بين سائر مدن الأرض بأن أهلي من أكثر الناس احتفاء برمضان، كما أنهم من أكثر الناس توقيراً للنبي.

- لمستُ ذلك في يوم مولده، ولمسته في العيدين الأولين هنا، عندما يتبادل الناس تهاني العيد قائلين: اللهم صلي على سيدنا محمد. . جشنتان بيروزبت.

وليس أجمل من لحظات الإفطار، عندما كنت أذهب إلى المسجد لصلاة المغرب، فيعدّوا لنا الإفطار فيه، نفطر، ثم نصلي ونعود إلى بيوتنا لإكمال برنامج الإفطار.

عندما يجتمع الناس جميعاً في المسجد ويستفتحون الإفطار معاً، ينتابهم شعور بأنهم جميعاً عائلة واحدة، اكتشفت هنا بأن المسجد أيضاً يؤدي هذا الدور الاجتماعي في تقوية الصلات الاجتماعية

بين الناس.

- كان مظفر الدين كوكبري يقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة مولد النبي، ولا يبقى أحد في ربوعي إلاّ ويسمع بهذا الاحتفال.

ذاك الرجل كان جواداً، لم يكن يهمه بهذه المناسبة سوى أن يكون أكثر سخاء، وأن تصيب منافع الاحتفال كل شرائح الناس في أرجائي.

ذات يوم وهو يفكر بحجم محبته لشخصية النبي، أراد أن يعبر عن ذلك بعمل ما يمكن أن يفعله ،هذا العمل الذي لم يسبقه إليه أحد، ثم يتبعه الناس من بعده، فخطرت له فكرة أن يؤسس مناسبة الاحتفال بيوم مولد النبي، ثم على الفور شرع في تنفيذ الفكرة مع قدوم ذكرى يوم المولد.

بعد ذلك بدأ يتوسع في هذا الاحتفال ليتحوّل إلى احتفال عام يُدعى إليه ضيوف من نصيبين، وبلاد فارس، وجزيرة ابن عمر، وبغداد، والموصل.

قبل شهرين من قدوم هذه المناسبة، كان يبدأ في

الاستعدادات لها، وكان يشارك بنفسه في نصب القباب الخشبية التي تمتد من بابي الرئيسي إلى ساحة الميدان.

كان يدعو بنفسه المنشدين، والفقهاء، والوعاظ، والقراء، والشعراء، والصوفية، كذلك يحضر أهل النكتة، وألوان الفنون، وبهذه المناسبة شهدتُ لأول مرة فرق القراكوز.

كان الناس يعدّون ذلك بمثابة عطلة لهم، فيتوقفون عن أعمالهم مع بداية شهر صفر عندما كان يتم الإعلان عن بدء الاحتفال، يرتدون ثياباً جديدة، ويخرجون من بيوتهم على شكل جماعات حتى تكتظ ساحة الاحتفال بهم، يتحلقون بأعداد كبيرة، وهم يبتهجون، ويشاهدون هذه الفعاليات.

كان مظفر يقيم في قلعتي، ويقسّم وقته في هذه المناسبة، فكان يصلي الفجر، وفي الصباح يذهب إلى الصيد، يبقى حتى قبل صلاة الظهر، ويعود، يصلي، ثم يتناول الغداء، ويستريح حتى ينهض ليصلي صلاة العصر، ثم يخرج إلى الساحة ليشارك الناس متعة التفرّج على هذه الألعاب المسلية، والمشاهد البهلوانية، والاستماع إلى الفرق الموسيقية، وعندما يحل الليل، كان يتجه إلى الخانقاه حتى يشارك

الناس الاستماع إلى المنقبة النبوية.

كان يستمر على هذا المنوال طوال شهر صفر، حتى صبيحة يوم المولد في الثاني عشر من ربيع الأول، حيث يبلغ الاحتفال أوجه، حينها كان الصوفية يتوافدون إلى القلعة على شكل أفواج وهم يحملون الهدايا الوفيرة التي جلبها مظفر إلى القلعة، كانوا يحملون الخلع المشدودة في بقج، ويتجهون بها بانتظام إلى الخانقاه التي يجتمع فيها بياض الناس من رؤساء وأعيان، بينما يجلس مظفر في برج خشبي أنيق ذو شبابيك، وهو يشرف على العرض العسكري الذي كان ينظمه في نهارالمولد.

إثر ذلك يتجه الناس جميعاً إلى تناول الطعام، كانت تُذبح الغنم، والبقر، والإبل بسخاء، ويتابع الأمير بنفسه عملية إحضار ألوان وأشكال الطعام والشراب.

كان الصوفية يفرشون مائة فرس قشلمش، وخمسة آلاف رأس شوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف صينية، وثلاثين ألف صحن من أصناف الحلوى.

كان يعدّ لذلك سماطين، سماط في الميدان لعامة الناس يمتلئ بما

طاب من طعام وما لذ من شراب، والآخر في الخانقاه للضيوف والأعوان.

بعد تناول الطعام، كان مظفر يعود إلى القلعة، يستريح حتى يحل وقت صلاة المغرب، فينهض، يصلي ويخرج متجهاً إلى الخانقاه.

يمضي في موكبه المهيب وقد أشعل شموع المولد بكثرة، حيث تحمل الحاشية هذه الشموع، إضافة إلى شمعتين ضخمتين، كل واحدة مثبتة على ظهر بغل، يقوم رجل بسندها.

عندما يصل مظفر، ويجالس ضيوفه، يبدأ السماع الكبير بالسيرة النبوية، وقراءة قصة المعراج، يستمر السماع حتى فجر اليوم التالي، وفي نهاية الاحتفال يقوم بتكريم الفقهاء، والمنشدين، والشعراء، والوعاظ، والقرّاء، وسائر المشاركين، فيجزل لهم العطاء، ويقدم لهم الخلع والهدايا الثمينة.

خيّم صمت دام زهاء عشر دقائق، فأردفت تقول: ذاك الرجل تعلّق بي كثيراً، لأنه طُرد مني قبل ذلك عندما اعتقله مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني، وأخرجه بالقوة مني، عندها رأيتُ الدموع

تترقرق في عينيه، والغصة تعلو حنجرته، وهو يُطرد من ربوعي بعد أن تولى حكمي لأيام قليلة.

كان ذلك عندما مات أبوه زين الدين علي، وترك ثلاثة أولاد أكبرهم مظفر، ثم زين الدين يوسف، وآق بوري.

كان قايماز مقرّباً من أبيهم حتى أنه أعتقه، وجعله أتابك يقوم بتربية أبنائه الثلاثة، ومع تواطد العلاقة استطاع قايماز أن يحظى بمنزلة أكثر قرباً من زين الدين علي حتى جعله نائباً له في حكمي، وعند موته أصبح مظفر بحكم الوراثة حاكماً علي، وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره.

كان مظفر الدين صبياً مقبلاً على الحياة في إدارة حكمي، ولم يكن ذلك يرضي قايماز الذي رأى ذلك بمثابة إبعاد له عن المشاركة في إدارة الحكم، فأدى ذلك إلى نشوب صراع بينهما، لكن قايماز لجأ إلى حنكته حتى نجح في إقناع زين الدين يوسف ينالكتين بأنه الأجدر بحكمي من أخيه مظفر الذي يبدو عليه الطيش، ثم استطاع أن يكسب رجال الإدارة وإقناعهم بهذه الفكرة حتى بدا الصراع بين مظفر الدين وبين سائر رجال الحكم، أتاح ذلك لـ قايماز الحصول

على أمر باعتقاله وطرده من ربوعي، وتنصيب زين الدين أميراً عليّ نيابة عن أخيه رغم أنه أصغر منه سناً، وكان ذلك من حيث الظاهر، لأن قايماز نفسه هو الذي تولى حكمي من خلال هذا الأمير الذي كان يمتثل لتوجيهه، وهو يدرك جيداً بأنه هو الذي أنصبه في هذا الموقع.

بقي مظفر مطروداً يتجرّع مرارة فراقي، والطرد مني بالقوة حتى مات أخوه، فعاد ثانية بحكم الوراثة هذه المرة بدعم ومؤازرة من نسيبه صلاح الدين الأيوبي الذي زوّجه من أخته ربيعة خاتون، التي كانت سابقاً زوجة الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين، وكان صلاح الدين قد تزوّج عصمت خاتون أخت سعد الدين.

يومها أصدر صلاح الدين الأيوبي بنفسه بياناً قال فيه: (لاشك أن إحاطة العلم بانتقال زين الدين يوسف إلى جوار الله تعالى ومقر رحمته مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله فيهم ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ

الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾[1]. فما أوجع القلوب بمصابه وما أنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته وإعلاء درجته، لكن الله استأثر به قبل ظهور حسن الأثار في إيثاره، وبلى بدره التم بسراره في ضمير البلى من أسراره، وهذه أربل أنعام البيت الأتابكي على البيت الزيني منذ سبعين عاماً، لم يحلوا لعقد أنعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا إحكاماً وإبراماً، وما رأى أنه يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدق به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية، بمقتضى وصاية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه).

عاش مظفر الدين خمسين سنة مع ربيعة خاتون أنجبت فيها ابنتيه، زوجهما لولدّي أتابك الموصل نور الدين أرسلان شاه، الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني، أتابك الموصل، وأخيه عماد الدين زنكي الثالث، صاحب بلاد العقر وشوش، ثم شهرزور.

كان مظفر الدين يميل إلى الزهد بالنسبة لحياته اليومية على قدر ما يميل إلى السخاء بالنسبة لفعل الخير والصدقات، فكان يرتدي

(1) سورة النساء، الآية: 100.

ثياباً زهيدة الثمن، وذات مرة عندما طلبت منه ربيعة خاتون أن يرتدي ثياباً ثمينة،

قال لها بثقة: أيهما أصلح وأكثر أجراً، أن ألبس ثوباً بعشرة دراهم، أو ألبس ثوباً بخمسة دراهم وأتصدق بالخمسة الباقية على فقير أو مسكين.

كان يخصص بنفسه حاجة الفقراء من الخبز كل يوم حتى يأتوا ويأخذوا خبز يومهم من كل الأرجاء، ثم كان يعطيهم ما يحتاجون من ملابس في الصيف والشتاء، وكان يعطي للمسافر المحتاج نفقات الطريق، وكل سنة في موسم الحج كان يقيم سبيلاً للحجاج، يزوّده بكل ما يحتاج إليه.

صمتت مرة أخرى، فلبث في حالة إصغاء وهو ينظر إليها تسترجع له وقائع ما شهدته، بعد قليل استأنفت تقول: في عيد القربان يتّبع أبنائي وصيتي بألاّ يبقى أحد في ربوعي دون أن يشبع لحماً ثلاثة أيام متواصلة.

قال: هذه هي الليلة الرابعة من العيد، وأظن بأن ما في البرّاد من لحم يكفي شهراً.

لم يكن يتخيّل بأن الناس يقبلون على الأضاحي بهذا الكم الهائل، وأن البيوت كلها تمتلئ بهذه الكميات الكبيرة من اللحوم ،تخيّل آنذاك أنه لم يبق بيت في كردستان إلاّ وامتلأ لحماً، حتى قالت آفان: إنهم يطرقون كل الأبواب، ومن العيب أن أقول بأننا اكتفينا، لكن لم يعد في البرّاد موضع من كثر اللحم.

يقبل الناس من كل الأماكن وهم يطرقون الأبواب ويقدّمون اللحم ،إضافة إلى الجوار الذين يتبادلون لحوم الأضاحي فيما بينهم، كذلك المؤسسات الخيرية التي تجوب بين الأحياء وتوزع أكياس اللحم بعد أن قامت بتوزيعه على مخيمات اللاجئين.

في صبيحة العيد يخرج الهوليريون من بيوتهم باكراً لصلاة الفجر، ثم صلاة العيد في المساجد، بعدئذ يؤوبون إلى بيوتهم كي يتناولوا طعام إفطار العيد المميز عن سائر الأيام الذي يتكوّن غالباً من التمن، أو اللحم مع المرق، والبرغل، أو الرز، ذلك أن لديهم اعتقاد أن تناول اللحم في وجبة إفطار صبيحة العيد، يجلب البركة.

إثرذاك يدور الناس على البيوت من أجل تبادل تهاني العيد، ولايتركوا اثنين على خصام دون أن يصلحوا بينهما في هذه المناسبة.

قالت: هذه من تقاليدي التي دأب عليها أهلي، أينما وطئت بهم أقدامهم، فإنهم يشعرون بحياء جم مني، علّمتهم بأن الإنسان كائن مجبول من عجينة مسك الأدب،

عندما يجتح به المدار عن شطر عجينته،

يجنح به عن مزايا كينونته.

إن قعد الهوليري، قعد في مقعد أدب

إن مشى، مدّ خطواته في ممشى أدب

إن تحدّث، قال كلمة أدب

إن صمت، ركن إلى صمت أدب

إن عاتب، عاتب بلباقة أدب

إن أثنى، أثنى بلفظ أدب

إن أكل، تناول اللقمة بأدب

إن شرب، تناول الشربة بأدب

إن عاهد، أوفى بأدب

إن اوؤتمن الهوليري، أدّى بأدب

إن عمل، مهر بأدب

إن نام، استلقى في فراش أدب

إن استيقظ، نهض من فراشه بأدب

إن عاشر، تغطى بلحاف خلوة أدب

إن مازح، بدر منه المزاح على كفة ميزان أدب

إن ارتدى ثوباً، زرّه بازرار أدب

إن سُــرّ، وقف عل سروره وقوف أدب

إن حزن، قام على حزنه مقام أدب.

علّمتهم أن ابن الأدب يبلغ مرتبة يشعر فيها الجماد بهيبة حياء من أدبه

يشعر فيها الحيوان بلمسة حياء من أدبه.

عندما ينظر ناظر إليه، يلمح في سحنته خامة حياء الأدب

عندما يدنو منه، يشمّ من هيأته عطر الأدب

حينها يتسرّب إلى دواخله إحساس مبهم بأنه إزاء بركات إنسان يمكن أن يخفض جناحيه لمكرمات أدبــه.

قال: إنهم لايخرجون عن طوعك، تبدين مؤثرة عليهم.

قالت: لا أتشدّد عليهم، أترك لهم كل الأبواب مشرعة حتى

يكتشفوا كل شي، ثم يركنوا إلي، إنهم يعتبرونني ملكتهم ومرجعيتهم، لذلك يبذلون كل ما بوسعهم من أجلي.

في تلك اللحظات قفزت إليه الحادثة التي وقعت لها منذ عدّة أيام، رأى كيف أن الناس هرعوا من بيوتهم إليها، يقبّلون يديها وقدميها، وقد أبوا أن يعودوا إلى بيوتهم تاركينها في تلك الوعكة التي تعرضت لها.

قدم أبناؤها من كل حدب وصوب وأحيوا الليل في طرقاتها، التفوا حولها وهم يعاهدونها بأنهم سيمكثون بجانب رأسها حتى الصباح يؤازرونها حتى لا تتسرب إليها لحظة وحشة.

لم ينم أحد تلك الليلة في بيته، الجميع لبثوا ساهرين بجانب رأس هولير، وجانب قدميها، ينهالون بالقبلات على جبهتها، ويديها، وقدميها، عزّ عليهم أن يتركوها وحيدة تلك الليلة.

عندما رأته شارداً، ارتسمت بسمة متلألئة على فمها الوردي وقالت: لاتشرد في الأمر كثيراً، إنها ليست أكثر من نزلة زكام.

كنتً منهمكة في تلك الظهيرة في توزيع الورود على ضيوفي، وكل ما حدث أن أحدهم رماني على غفلة بشوكة.

عندما أدركني الصباح، أحسست بطاقة حيوية جديدة، ثم ما لبث أن انهال إلي الضيوف من كل حدب وصوب، وما لبثت أن شرعت أوّزع عليهم الحلوى.

صمتت قليلاً، ثم انهمرت دموع من عينيها: لا أحد يكون أكثر حزناً مني عندما أرى أبنائي يقضون من أجلي.

قال: هناك حديث يقول: (عينان لاتمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين سهرت تحرس في سبيل الله).

قالت هؤلاء ملائكة الأرض، يلبثون ساهرين كي يحرسوا الناس، ليس بوسع أحد أن يفيهم حقهم، أو يقدّم لهم شيئاً يرتقي إلى نبل عطائهم، إنهم حرّاس بلاد الله وعباده، يسهرون عندما ينام الناس، ولاينامون عندما يستيقظ الناس.

بعد قليل من الصمت، رفع نظره إليها، فألفاها تنظر إليه، قال في قرارة نفسه: لم أكن أعلم لذة نظرات العشق الطاهرة التي تصدر من عينين عاشقتين.

هكذا غمره شعور سحري وهو ينظر إلى نظراتها إليه، كما لو أنه ظفر بكنز ثمين.

تمتم في سره وهو لمّا يزل ينظر إليها صامتة: هكذا تبدو الحياة

جميلة وبهية ومكتملة الأركان في كل جوانبها حتى ونحن في ذروة الألم والمعاناة. تبدو مدهشة ونحن نحبها كل الحب، نتفتح على إشراقتها الصباحية كما لو أننا زهور، ونمتلك كل تلك المقومات التي تمكننا كي نكن لها كل ذاك الحب، ونكتشف أيضاً الأشخاص العظماء الذين هم بمثابة مسك حقيقي للحياة.

هكذا نمتلك طاقة أبدية على حب أبدي مفتوح لانهائي تجاه الحياة بوصفها حياتنا، وتجاه العالم بوصفه عائلتنا الإنسانية الكبيرة، وتجاه كوكب الأرض بوصفه بيتنا الكبير.

هكذا هي هولير، كما لو أنها ملكة الروح، ساحرة الأفئدة
وردة أزلية متجدّدة التألق
لايعرف الذبول درباً إلى صعيدها
تبعث أريج عطرها الفوّاح لكل مَن يدنو إليها بخطوة.

الفصل الخامس

الـزيـــــــــارة

عندما بلغت الساعة التاسعة ليلاً، تلقت آفان اتصالاً على هاتفها، وعندما فرغت من الحديث، أخبرنه بأنها عندما قامت بتسجيل لاوين في المدرسة، تعرّفت على امرأة اسمها كلنار، أحست نحوها بود.

حينها تأمّل كيف أنها تقوم نيابة عنه بمهمات تقع على عاتقه، فعندما بدأ تسجيل الطلاب في المدارس لسنة دراسية جديدة، قالت له: دع الأمرعلي، سأقوم بترتيب كل شيء.

قال: تسجيل طالب في المدرسة ليس سهلاً، وأنت غريبة لاتعرفين شيئاً هنا.

قالت: لاعليك، سأتدبر أمري، كما فعلت بالنسبة لـ بيرهات، سوف يدرس في ذات المدرسة.

في الصباح الباكر حملت معها بعض الثبوتيات الشخصية، وخرجت ما سكة بيد لاوين، لبثْت حتى العصر، وعادت منهكة

وهي تخبره بأنها أنهت جزءاً من عملية التسجيل، وهو أسهل مما كانت بيرهات التي كانت قد باشرت الصف الأول في سورية، فكان عليها أن تقدّم إثباتاً بأن بيرهات قد درست بالفعل الصف الأول في سورية حتى يتم تسجيلها بموجب ذلك في الصف الثاني، وعندما قدّمت ما لديها من ثبوتيات، طُلب منها أن تحصل على وثيقة من كاتب العدل، ثم موافقة من مديرية الامتحانات.

قالت بأن الأمر معه أيسر لأنه يدرس الصق الأول، وغداً ستذهب إلى مديرية التربية كي يتم فرزها إلى ذات المدرسة الكردية التي تدرس فيها أخته التي غدت في الصف الثالث.

في الصباح، خرجت من البيت، وعند الثانية عشرة ظهراً عادت مسرورة تقول بأن المديرية طلبت أن تأتي بعد يومين كي تأخذ إشعار الفرز إلى المدرسة.

عندئذ حصلت على الإشعار وجلبته إلى المدرسة التي تم فرزها إليها،

عندما بدأت بيرهات تداوم في صفها الثاني، حينها قالت بأنها لاتطمئن إن لم تأخذها كل يوم إلى المدرسة وتعيدها، رغم أن

المدرسة تقع جوار البيت، فغدت تستفيق باكراً في الأيام الثلاثة التي يكون فيها الدوام صباحاً من الأسبوع، وتهيئها، ثم تأخذها، وبعد ذلك تعرج على المخبز، تبتاع حاجة البيت من الخبز وتعود لتقوم بإحضار طعام الفطور.

أما في الأيام الثلاثة التي يكون فيها الدوام ظهراً، تتفرّغ لتهيئتها قبل ساعة، ثم تأخذها إلى باب المدرسة، بعد ذلك تبتاع ما يحتاجه البيت وتعود.

بعد شهر من ذلك رآها تكف عن الذهاب برفقتها قائلة بأنها باتت قادرة على الذهاب والإياب بمفردها.

أما الآن، فرأت أنها لاتحتاج كي تصطحب لاوين، لأن أخته معه؟

قالت مبتسمة: يومها عرضت هذه المرأة الرائعة خدماتها علي، فقلت أن عملي هنا لايستجوب أي خدمة، بعض التواقيع الروتينية التي تخص تسجيل ابني في الصف الابتدائي، وقد باتت لدي خبرة لأنني سابقاً سجلتُ ابنتي.

لبثت المرأة معي حتى أنهيت تلك المعاملة في دائرة

الامتحانات، ثم أصرّت أن توصلني بسيارتها إلى مديرية التربية رغم أنها أنهت ما كانت قد حضرت من أجله، وأن زوجها أجرى اتصالاً معها كي تعود فور انتهائها من ذلك بسبب حضور بعض الضيوف من إيران إلى البيت بشكل مفاجئ.

ثم أردفت تقول: بعد أن ودّعتني، طلبت رقم هاتفي وقالت بأنها ستقوم بزيارة مع زوجها آوات إلينا كي يستمعا إلى بيرهات وهي تعزف على آلة الكمان.

هزّت رأسها وهي تقول: لاأعرف كيف نسيت ذلك تماماً، لكن هاهي ستأتي مساء الغد، وقد رحّبتُ بها.

قال: خيراً فعلتي عزيزتي.

في المساء، اتصلت بها صديقتها وقالت بأنها باتت قريبة من الموقع الذي أشارت إليه.

طلبت آفان منها أن تبقى في المكان ريثما يأتي زوجها.

عندئذ خرج ليرى السيارة واقفة في مدخل الشارع العام، وكانت المرأة هي التي تجلس خلف المقود، ويجلس زوجها إلى جوارها.

رحب بهما دون أن يدعهما ينزلا، فتح الباب الخلفي وصعد، ثم تقدمت السيارة حتى وقفت أمام باب البيت.

كانت آفان إذذاك واقفة في استقبالهما، وما أن نزلت صديقتها، حتى رحبت بها بحفاوة وغدت تتبادل معها القبلات.

من جهته بدأ يبدي مشاعر الاحتفاء بقدوم الرجل الذي أحس نحوه بمشاعر محبة فور رؤيته.

شكره الرجل على الاستقبال اللطيف، ثم تتبعا المرأتين نحو الداخل.

عندما وقعت عينا المرأة على بيرهات، انحنت تقبلها قائلة: أهلاً يا روحي، جئنا لنسمعك تعزفين على الكمان.

بدوره تقدّم الرجل، وطبع قبلة على خدها، ثم بدأا يقبلان لاوين، وسيروان أيضاً.

بعد قليل من جلوسهما، أخرجت المرأة من حقيبتها قطعا من الشوكولاه وبدأت تعطي الأطفال الذين أحسوا بود نحوها، فغدوا يبركون إلى جوارها مع أمهم، في حين انخرط يتبادل مع الرجل أطراف الحديث.

مدّت كلنار كفها تداعب بها شعر بيرهات قائلة: ما أخبار دراستها وهي تداوم أول مرة في مدرسة كردية؟

أجابتها آفان: لم نكن نتوقع أنها ستستجيب للدروس بهذه السرعة، أخبرتنا إدارة المدرسة بأنها ممتازة، ويبدو أن لاوين أيضاً يخذو حذوها لأن إدارة المدرسة منحته مع أخته بطاقة التفوق ليغلقاهما على صدريهما.

ثم قالت:

وأنا أسجلهما يا باجي كلنار، لفت نظري هذا الانفتاح على اللغة العربية، إزاء كل ذاك الانغلاق على مقومات ثقافة الشعب الكردي.

في دول مجاورة، لاتوجد مدرسة كردية، بل يكون محظوراً نشر مطبوعات كردية بما يمكن أن يمس الخطوط الحمراء التي قد توصل الذي يقدم عليها إلى السجن المؤبد بتهمة الخيانة العظمى، لكن الملفت هنا هو فتح الإقليم لمدارس عربية، ليس لأبنائه لأن غالبية الأجيال الكردية الجديدة التي تدرس لاتجيد اللغة العربية،

ولكن الإقليم إحتراماً لهؤلاء الذين يعيشون في ظهرانيهم مقيمين

أو عاملين، لم يكن لديه ما نع من فتح مدارس بلغة الذين يعيشون في ظهرانيه مقيمين، أو لاجئين دون أن ينظر إلى الأمر بالمثل.

عندما أنهت آفان حديثها ونهضت لتحضر الشاي، قال: الأمر الآخر الذي يلفت النظر في الحالة الثقافية المنفتحة على اللغة العربية التي يعيشها الإقليم، هو تخصيص دروس عربية في مناهج المدارس الكردية.

ثم أردف يقول:

في الجانب الثقافي الموازي لهذه الملاحظات، نرى أن المطبوعات الكردية يتم منعها في تلك الدول فقط لأنها تشير إلى القومية الكردية التي تستفز بعض أولئك، هنا رأيتُ كتباً تُطبع باللغة العربية في الإقليم ليس للكرد، ولكنها للأقلية العربية التي تعيش هنا، وكالة احترام جم لهؤلاء، ومن الجانب الآخر لفتت نظري مجلات كردية تصدر باللغة العربية، وهذا يأتي إلى بث أغنيات عربية في قنوات فضائية كردية، دون أن يكون ذلك بالنسبة لغالبية القنوات العربية.

ثم ابتسم قائلاً: كنتُ أحياناً أزور بعض الأصدقاء الكرد في

أعمالهم، فكان يقول لي الصديق: رجاء لاتتحدث معي باللغة الكردية، لأن الكردية محظورة كما تعلم، والحديث بها لايؤدي إلى فصلي فقط وقطع مصدر معيشة عائلتي، بل إلى سجني كذلك.

هكذا عندما يتحدث الكردي مع الكردي بلغته، يكون قد ارتكب جناية يستحق عليها العقاب، لكن هنا ليس فقط يُتاح للناس أن يتحدثوا بلغاتهم، بل يتحدث الكردي مع العربي بلغته بمحبة ومودة.

قال آوات: ليس بوسع أحد أن يعيش سعيداً وهو يكون في قطيعة عن الآخرين، ولايكون الجار غنياً إلاّ بقوة علاقاته مع جواره، لذلك ترانا فتحنا أسواقنا أمام بضاعات كل دول الجوار، وانفتحنا على لغاتهم، الناس يقبلون على محبة بعضهم البعض، لكن السياسات المقيتة تتسبب لهم بكل ألوان القطيعة، فلايملكون من أمرهم شيئاً أمام جبروت تلك السياسات. إنهم دوماً يعبرون عن استيائهم عندما تتفاقم العلاقات بينهم وبين جوارهم، ويعبرون عن مشاعر الارتياح عندما تزدهر بهم تلك العلاقات، هانحن نرى بأن الأوضاع الأمنية تشتدّ في الأنبار، وسائر مدن العراق، فيلوذ الناس

بالإقليم الذي يستقبلهم لاجئين بكل حفاوة، ولسان حال الكرد يقول: الناس للناس، ولا خير في أناس لايكونوا للناس.

دخلت آفان حاملة الشاي، فقالت كلنار: إنكم تذكروننا بالمرحلة الأولى التي تزوجنا فيها في إيران، كان ذلك منذ خمس وعشرين سنة مضت، أجل أذكر ذلك التاريخ جيداً، كنتُ نازحة مع أهلي من مدينة حلبجة ،: كنتُ أرى كيف أن الطيور تتساقط من السماء، تنتفض للحظات، ثم تموت نتيجة استنشاقها للغازات السامة، أرى الكلاب، والحمير، والأبقار، والجواميس ميتة، أرى قطيع الأغنام والماعز منتفخة إلى جانب جثث الناس.

كان آوات نازحاً من دهوك، هناك في ذروة المعاناة، اكتشفنا بأن المعاناة العظمى يمكن لها أن تفجّر حالات حب عظمى أيضاً، هكذا انبثقت قوة علاقتنا الزوجية والروحية من قوة المعاناة التي شهدناها يوماً بيوم، وتجرّعنا مرارتها لحظة بلحظة.

اكتشفنا أن كل لحظة ألم كانت تمرّ بنا كانت تزيد رابطة علاقتنا متانة حتى ألفيناها كالجبل الذي يبقى شامخاً يتصدى لكل ما يمكن أن يتعرض له من عواصف.

لبثت المرأة تتحدّث بعذوبة كما لو أنها تشدو بنشيد وطني، هو النشيد العائلي الذي سوف تتأسس عليه أركان عائلة كاملة تتألف من ابنة، وابنين على وشك التخرج من دراساتهم الجامعية.

بدأ يستمع إليها وهو يشعر بأنها بطلة حقيقية، استطاعت أن تفعل شيئاً مجدياً في حياتها، كذلك نظر إلى الرجل الذي هنأه على ذهنيته المنفتحة التي كانت سبباً في بناء هذه العائلة التي كان يمكن لها ألاّ تكون، وألاّ يُتاح لها أن تنبثق من ثنايا تلك الأحداث المروعة، كما أن الطبيعة تقدم بصمودها ومقاومتها ربيعاً مكتملاً بعد شهور القحط والعواصف والصقيع.

تستأنف المرأة نشيدها، وهو يتخيل كيف أن المرأة تكتمل بالرجل، وأن الرجل يكتمل بالمرأة، تستمدّ المرأة قوتها من الرجل، ويستمدّ الرجل قوته من المرأة، وفي هذه المعادلة التي تخيلها، بدا له أن الرجل ليس بوسعه أن يتمتع بلياقة قوته في معزل عن المرأة، مهما تبدّت له معالم هذه القوة، وأن المرأة ليس بوسعها أن تتمتع بمزايا قوتها في معزل عن الرجل، مهما تبدّت لها معالم هذه القوة.

خطر له في تلك اللحظة وهو يشعر بحالة احترام نحو قوة احترام

هذا الرجل لزوجته أن الرجل إذا احترم زوجته، فليس بعيداً أن يكون محترما فيما سوى ذلك، وإن لم يكن محترماً مع زوجته، فليس بعيداً ألا يكون محترماً فيما عدا ذلك.

إذا احترم الرجل زوجته، فإنها تحترم احترامها له، وإذا لم يحترم الرجل زوجته، فإنها تقف دون احترام لااحترامه لها.

تخيّل أن أقوى كف يمكن أن تتشابك مع كف الرجل، هو كف المرأة، وأن أقوى كف يمكن أن تتشابك مع كف المرأة هو كف الرجل، حينها لن يكون بوسع قوة بشرية أن تزحزح قيد أنملة ما بينهما، وفقط عند تلك الحدود المباركة يلتمس الإنسان إشراقة إنسانيته كما لو أنه يفتح عينيه عليها أول مرة، عند تلك الحدود، يبدأ تعلقه الحقيقي الفعّال بالحياة، ويشعر بمسؤوليته تجاهها وهو يقف على رأس عائلة مكوّنة من أبناء وبنات، وسمو علاقات اجتماعية، وصلات قربى لم يكن يتحقق من ذلك شيء لولا تشابك ذاك الكف بذاك.

بدا تكامل علاقتهما الزوجية يتشكل أمامه مع حديثها، فسألها: ما الذي يجعل المرأة تشعر بعاطفة حب عفيفة تجاه رجل وتؤثره

على بقية الرجال كي تظفر به زوجاً ؟

أحسّت بشيء من الخجل الذي ظهر على محياها، ثم قالت وهي تنظر إلى زوجها نظرات محملة بالفخر والاعتزاز: ثقة الرجل بنفسه، لأنه إن لم يقعد على ثقة بنفسه، لن يكون بوسعه أن يبدر أي ثقة لا إلى زوجته، ولا إلى أولاده، ولا إلى أي شخص آخر.

ما لفت نظري في آوات بقوة، ذهنيته المنفتحة التي بدأت تكتمل مع تنوع قراءاته، هذه القراءات التي كللت تلك الذهنية بنزعة إنسانية حتى صار يفسر أي ظاهرة يشهدها و لو كانت سلبية، تفسيرا إنسانياً، يقدّم تحليله لما يبدر من الآخرين تجاهنا تحليلاً إنسانياً، وهذا جنّبه كثيراً عوامل التعرض لحالات الاستفزاز، وردّات الفعل.

لبثت تنظر إليه وتقول: أنا مدينة لهذا الرجل الذي تتلمذتُ على يديه كما لو أنني طالبة ابتدائية، هكذا عرفتُ أن بوسع الرجل أن يرتقي بالمرأة كما بوسعه أن ينحدر بها.

الفصل السادس

ســــو ريـــــن

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والربع ظهراً عندما دلفت السيدة /سورين/ مبنى الجريدة اليومية، وطلبت من أحد الموظفين أن تقابل رئيس تحريرها السيد / دشتي/.

أرشدها الرجل الثلاثيني الذي يعمل مصوراً في الجريدة إلى حيث مكتبه، ولمّا أدرك أنها تدخل المبنى لأول مرة، ولم تتعرف على الركن الذي يقع فيه المكتب، سار معها خطوات وهو يرحب بها بلطف حتى أشار لها إلى باب مفتوح بأنه مكتب الأستاذ.

عندئذ، لفتت نظرها العبارة المكتوبة على الباب/ رئيس التحرير/. شكرته بكثير من الامتنان، وخطت نحو الباب حتى رأت نفسها أمام امرأة على قدر لابأس به من الجمال، سمراء البشرة، وبدا أنها لا تولي المكياج أي عناية، ترتدي نظارة وهي مستغرقة في قراءة كتاب باللغة الكردية، كما لو أنها على وشك أن تلج بين صفحاته.

لبثت واقفة أمام استغراقها دون أن تتجرأ لتخرجها من نشوة

حالتها، وبعد لحظات تراجعت بضع خطوات إلى الخلف حتى أصبحت خارج المكتب، ولبثت تصوّب إليها نظراتها من بعيد.

بعد نحو عشر دقائق، رفعت المرأة رأسها من الكتّاب الذي كانت مستغرقة في قراءته، فوقعت حدقتاها على السيدة التي تقف بالقرب من الباب.

هبّت من كرسيها واقفة وهي تقول: تفضلي. . تفضلي عزيزتي. . أنا آسفة، هل من خدمة يمكنني تقديمها لك؟

عندئذ، خطت سورين خطوات إليها، ومدّت كفها لتصافحها بكثير من الود، أجابتها بمدّ كفها قائلة: تشرفتُ بك سيدتي.

قالت: أريد أن أقابل الأستاذ؟

رحبّت السكرتيرة بحضورها، بيد أنها قدّمت اعتذارها الشديد قائلة: من سوء حظ الأستاذ سيدتي أنه غائب عن المكتب هذا الوقت.

لبثت واقفة قليلاً وكأنها فكرت في أمر ما، ثم ما لبثت أن حزمت أمرها قائلة: بل هو من سوء حظي سيدتي، عموماً فرصة سعيدة تعرفتُ فيها على امرأة ودودة.

أجابتها السكرتيرة وقد ارتسمت بسمة على ثغرها: هندرين.

هزّت رأسها وأجابتها مبتسمة: غمرتني بلطفك يا هندرين، حقاً أنا سعيدة بمعرفتك، اسمي سورين.

قالت السكرتيرة: إنه من حسن حظي يا سيدتي لأنني حظيت بفرصة التعرف إلى سيدة طيبة مثلك.

في تلك اللحظات، أصدر هاتفها الخلوي رنيناً تصاعدياً، فاستأذنتها لتردّ، وعلى الفور قالت وهي تلقي نظرة سريعة إلى الشاشة: إنه الأستاذ. ثم قالت: نعم أستاذي.

-: أنا في الطريق إلى المكتب ياهندرين. قال الجملة وأغلق الخط على الفور.

دعتها إلى الجلوس قائلة: من حسن حظه وحظي، جاء قبل أن تنصرفي، أقل من ربع ساعة وسيكون هنا.

اقتعدتْ الكرسي بالقرب منها وهي تقول: أكرر لك اعتذاري الشديد عزيزتي، أشعر بأنني أخذت الكثير من وقتك.

ثم ألقت نظرة إلى الرواية التي كانت تقرأها وأردفت: لقد قطعتُ عنكِ متعة القراءة.

قالت: من الدروس الجيدة التي أفدتها من الأستاذ أن القراءة هامة، لكنها ليست أكثر أهمية من الإنسان.

ذات يوم عندما دخل المكتب، ورآني منهمكة في القراءة، وكان البعض يجلس بانتظاره، دعاني عند انتهاء الدوام وقال: علّمتك أن القراءة هامة جداً ياهندرين.

قلت: أجل يا أستاذي، ولكَ الفضل في أنني قرأتُ مجموعة من الكتب لم أكن لأقرأها لولاك.

قال: اليوم أعلّمكِ بأن الإنسان يتعلم من الإنسان أكثر مما يتعلم من القراءة.

منذ ذلك اليوم، كلما يدخل شخص المكتب، أترك الكتّاب الذي بين يدَي، ليقيني بأن ما لدى هذا الشخص هو أكثر أهمية مما في الكتّاب، حتى لو لبث صامتاً، فإنني سأتعلم شيئاً جديداً من صمته، ومن حركاته، ومن قسماته، ومن نظراته، لايعلمني إياه الكتّاب.

قالت: يبدو أن الأستاذ يحب القراءة كثيراً.

ضحكت وقالت: يحب القراءة كثيرا، لكن ليس بحجم حبه

للتعرف على معظم شرائح الناس، إنه دائم الرغبة للتعرف على أناس لم يكن يعرفهم من قبل.

كل الموظفين والموظفات يأتون إلي ليستعيروا كتباً من مكتبة الأستاذ، حتى من خارج الجريدة يتوافد إلينا الناس كي يستعيروا الكتب، وهوكلما يتعرف على شخص، لايتوانى من تقديم النصح إليه كي يستمتع بمنافع القراءة، ويوجهه كي يراجعني من أجل استعارة الكتب، كل يوم يا سيدتي يتوافد إلى هذا المكتب أشخاص حتى يستعيروا كتباً، وبين فترة وأخرى حينما تصدر كتب جديدة وتأتينا منها نسخ على سبيل الإهداء حتى تنشر الجريدة أخباراً عن صدورها، يشتري الأستاذ من ميزانية الجريدة نسخاً منها ويقول: أحقق من ذلك غايتين، الأولى تكون بمثابة التشجيع لطباعة الكتب، والثانية تكون في تقديم بعضها كإهداءات إلى محبي القراءة حتى تتأسس مكتبات ولو متواضعة في جميع بيوت إقليم كردستان

عندما يقوم الأستاذ بزيارة أي بيت، فإن أول ما يلفت نظره وجود مكتبة في هذا البيت، أم لا، فإن وجد مكتبة، تقدّم إليها وراح يستفتح زيارته بتأمل محتوياتها، ثم يباركها لصاحب البيت،

وإن لم يجد مكتبة، يشعر بألم وهو يوصي صاحب البيت أن يجعل مكتبة في بيته حتى لو كانت صغيرة، لأن البيت الذي لا كتب فيه هو بيت خرب، ثم يخبره بأنه سيقدّم له مجموعة كتب على سبيل الهدية.

أحياناً يقول لي بأنه يحلم أن ينجح في مسعاه حتى لا يبقى بيت في إقليم كردستان بلامكتبة منزلية.

نهضت السكرتيرة عندما لمحته قادماً وهي تقول: وصل الأستاذ.

عندئذ نهضت سورين أيضاً، وامتدّت بها نظراتها إليه وهي تراه لأول مرة، تنظر إليه يتقدم بشموخ وثقة وهو يتوقف للحظات ويلقي السلام على كل مَن يصادفه، يتحدّث بضع كلمات ثم يستأنف خطواته وهي تنظر إليه بإعجاب شديد، تتأمل ثيابه الأنيقة، البدلة الرسمية مع ربطة العنق كما لو أنها جديدة يرتديها لأول مرة، حتى الحذاء يلمع كما لو أنه ينتعله للتو.

عندما وصل باب المكتب، بدا عليه أنها لفتت نظره، فتوقف وهو ينظر إليها نظرة عميقة قائلاً: أهلاً وسهلاً سيدتي.

مدّ كفه يصافحها قائلاً: تفضلي. ثم مضى داخلاً المكتب.

همستها السكرتيرة قائلة: ظن الأستاذ بأنك صديقتي

ابتسمت وهي تقول: أعتقد ذلك.

اتجهت السكرتيرة إليه على الفور، وأخبرته بأن تلك السيدة الجالسة هي ضيفته التي تنتظره منذ نحو نصف ساعة.

وقف على قدميه بحركة سريعة، واتجه إليها مقدماً عذره الشديد، وداعياً إياها للدخول.

نهضت المرأة وهي تبدي أسفها الشديد على حضورها في وقت غير مناسب

قال: على الرحب والسعة، باب المكتب مفتوح في أي وقت يناسبك.

تقدّمت بضع خطوات، ثم توقفت كي يدخل قبلها، لكنه دعاها لتتقدّمه في الدخول.

قالت: لايصح أستاذ، تفضل أنت.

أصرّعليها قائلاً: لا، لا، أنت صاحبة فضل ببادرتك في الزيارة.

عند ذاك لم تجد بدّاً من الدخول، فمدّت خطواتها إلى أبهة المكتب الذي بدا أمام ناظرَيها غاية في الأناقة يتسم بطابع الفخامة

كما لو أنه مكتب وزير.

بدأت تتأمل معالم المكتب وهي تستأنف خطواتها البطيئة حتى دعاها إلى الجلوس على كنبة، وما أن وضعت حقيبتها اليدوية على الطاولة واقتعدتْ كنبة، حتى قعد قبالتها على كنبة مقابلة.

بعد قليل تناهت طرقات خفيفة على الباب، دخلت على إثرها السكرتيرة متمتمة: موعد الغداء ماموستا جان.

ألقى نظرة إلى ساعة يده قائلاً: يمضي الوقت بسرعة.

وقفت سورين على قدميها قائلة: رؤيتك كانت أمنية قديمة بالنسبة لي وقد تحققت هذا اليوم، لايسعني سوى أن أعبّر لك عن بالغ شكري وتقديري على لطفك وكرمك بتحقيق هذه الأمنية.

قال: بل أنا أعبّر لك عن بالغ شكري على تكرّمك بزيارتي، وسوف أكون ممنوناً فيما لو تفضلتي عليّ بقبول دعوتي إلى وجبة الغداء.

نظرت إليه وهي تمتلئ يقيناً بأنها تقف إزاء إنسان فاضل كما كوّنت عنه صورة من خلال قراءة عمودهالأسبوعي الذي يكتبه في الجريدة.

عشر سنوات مضت وهي تشعر كل أسبوع أنها على موعد مع شروق شمس جديدة كل أسبوع ترى إشراقتها الأولى لأول مرة، شمس تفتح أمام روحها إشراقة أسبوع حافل جديد تضفي إليها حيوية لم يسبق لها عهد من قبل بها.

كانت تقف بدهشة أمام حجم ما يتمتع به من مساحة النبل والفضيلة ونقاوة الألق الإنساني، وهي تزداد رغبة فيما لو حظيت ولو مرة واحدة بشكل سريع كي تلتقيه وتتحدّث إليه وجهاً لوجه، بيد أنها كانت دوماً تؤجل فكرة المبادرة، وتكبح جماح رغبتها، تقنع نفسها بأن المهم هو حضور مثل هذا الرجل في مدينة هولير، وشعورها بأن شخصاً كهذا يعيش في هولير، تشرق عليه شمس هولير كل يوم. إنه على الأقل جاء ليحطم العدد سبعة الثابت منذ خمس سنوات دون أن يستطيع أحد زحزحته.

سبعة أشخاص فقط هم عصارة هولير، خمسة رجال، وامرأتان هم نتيجة عشر سنوات من تنقيب دؤوب عن جواهر هولير البشرية، هكذا تشعر بمتعة اكتشاف كنز إنساني جديد، تفوق متعة اكتشاف كنوز الأرض، فتركن إليه وتتنفس بنشوة طمأنينة

الإنسان إلى الإنسان، أُنس الإنسان بالإنسان، تكامل الإنسان بالإنسان، تزداد طمأنينة بأن العالم بخير وهي تشم عبق رائحة فضيلة الإنسان من الإنسان.

كم غمرها إحساس بالنشوة في تلك اللحظة لأنها عثرت على إنسان يمكن له أن يحطم ذاك الرقم الذي بدا لها كما لو أنه لبث ثابتاً لا يتزحزح، كم من أناس سعوا إلى تجاوزه بيد أنهم منيوا بالفشل.

هاهي تحظى بمتعة الجلوس معه، ثم هاهو يدعوها كي تشاركه وجبة الغداء.

قالت: فضلك هذا يشرفني يا أستاذي، وأنا سعيدة ومعتزّة بدعوتك الكريمة هذه.

ثم سارا شطرغرفة هي بمثابة مطعم لموظفي الجريدة، جلسا إلى مائدة، وما لبث العمّال أن قدموا لهما وجبة الغداء.

بعد تناول الطعام الذي استغرق نحو نصف ساعة من الجلوس معاً، استأذنته وهي تكرر له عبارات الشكر والامتنان.

عندئذ نهض وراح يتمشى برفقتها في ردهة المبنى حتى أوصلها إلى الباب الرئيسي، حينها قال بأنه سيوصلها بسيارته، شكرته على

ذلك وقالت بأن لديها سيارة، ثم اتجهت إليها.

لبث الرجل واقفاً وهو يلوح لها بكف الوداع حتى توارت السيارة عن ناظرَيه.

عندئذ آبت به أدراجه إلى المكتب، جلس قليلاً، فقدّمت له السكرتيرة كأساً من الشاي، وبعد أن فرغ من ذلك، دخلت عليه كرة أخرى حاملة المواضيع التي سوف تُنشر في صبيحة يوم الغد.

عندما تركته السكرتيرة وخرجت، بدأ ت أنامله في تقليب الصفحات، وهو يشعر بحالة من عدم التركيز في تصفح المواضيع.

أدرك للتو أن تلك المرأة التي ودّعته ما تزال مسيطرة على ذاكرته، تتقافز صورتها بين الصفحات، تتناغم عباراتها في مسمعه، نظراتها إليه تبعد احتمال أي تركيز في الصفحات التي بات يقلّبها بشكل أوتوماتيكي.

خطر له أنه لم يسألها عن اسمها، واكتشف للتو كمن استيقظ من حلم أنها انصرفت دون أن تترك أي وسيلة اتصال بها.

امتدّت سبابته إلى زر صغير، فدلفت سكرتيرته على الفور إثر سماعها نغمة الرنين وهي تقول بهدوء تام كما لو أنها تحدّث بحة:

بخدمتك أستاذي، امرني.

رفع رأسه ينظر إليها، وبدا لأول مرة يعتريه شيء من الارتباك والتلعثم أمامها.

أخذ يبلع ريقه، ولمّا طال به الصمت والسكرتيرة تنتظر ما يقول في حالة تأهب، جمع شتات أفكاره وهمهم: لاشيء يا هندرين، يمكنك العودة إلى مكتبك.

استدارت ماضية للخروج ومع إغلاق الباب خلفها ترامى صوته في سمعها: هل لك معرفة سابقة بتلك الزائرة؟

عادت إليه كرة أخرى وهي تقول: لا والله أستاذي، هذه أول مرة ألتقيها.

كم راودته رغبة جامحة فيما لو يسألها بطلاقة عنها، يسألها كل شيء كما لو أنه ظمآن في عز ظهيرة من تموز في صحراء قاحلة، لكنه كبت تلك الرغبة الجامحة، ووجه إليها الأمر بالانصراف.

عندما اقتعدت كرسيها، عاد ت نغمة الرنين إلى سمعها، فدخلت إليه قائلة: أمرك أستاذي.

نهض من خلف مكتبه وأخبرها بأنه سيعود إلى البيت، طالباً

منها الجلوس على كرسيه خلف المكتب، كي تراجع الصفحات، ثم تسلّمها إلى الموظف الذي سوف يأخذها إلى المطبعة.

خرجت معه هندرين حتى باب الباب الرئيسي وهي تودعه، ثم عادت تجلس خلف مكتبه، لكنها رأت نفسها بدل أن تنفّذ ما طلبه منها رئيسها، تشرد بما آل إليه وضعه، وهي تستكشف ملامح الاضطراب على محياه.

في تلك اللحظات تسرّب إليها تخمين بأن تلك الزائرة تسببت في ذلك.

نحو عشر سنوات مضت عليها وهي تعمل سكرتيرة له حتى ترسخ لديها اعتقاد بأن السكرتيرة الماهرة يمكنها أن تتعرف على شخصية رئيسها أكثر من زوجته في الكثير من الجوانب، تتعرف على نقاط ضعفه، ونقاط قوته، تستكشف ملامح شخصيته، تتعرف على نمط مزاجه، تدرك العبارات التي تسره، والعبارات التي تغيظه، الأشخاص الذين يرتاح إليهم، والأشخاص الذين لايجد معهم راحة، و بلغت بها قناعة أنه في كثير من المواقف يبوح لسكرتيرته بما لا يبوحه لزوجته.

يتيح لها عملها برفقته أن تراه في مواقف وحالات مختلفة ومتناقضة بما يمكنها أن تضع يدها على الحالة الشديدة الخصوصية لمزاجه العام، وتتحول شخصيته بالنسبة إليها إلى كتاب يمكن لها أن تقرأ ما تشاء فيه، لذلك كادت تجزم بأن تلك الزائرة تقف خلف ما بدر عليه من اضطراب حتى أنه لم يستطع أن يثبت في مكتبه إلى نهاية الدوام، بل لم يتمكن من مراجعة مواضيع الغد وهو الذي يصرّ بما أمكنه كي يراجع بنفسه هذه المواضيع قبل دفعها إلى المطبعة.

لم تكن تعلم أن ساعة مضت على شرودها دون أن تفعل شيئاً بالنسبة للعمل الموكل إليها لولا أن الموظف الذي سيأخذ المواضيع إلى المطبعة طرق عليها الباب، وطلب ذلك.

حينئذ أبلغته أن يعود بعد ساعة أخرى، وهي بنفسها سوف تقوم بمراجعة المواضيع بتوجيه من رئيس التحرير.

غاب الرجل نحو ساعة، ثم عاد متناولاً الإضبارة، في حين انصرفت هندرين إلى البيت متأخرة نحو ساعة ونصف عن موعد عودتها.

من جانبها رابت زوجته في الأمر عندما رأته يدخل على عجالة

إلى البيت قبل موعده بساعة، يخبرها بأنه مرهق، ويحتاج إلى شي من الراحة.

مازحته وهي تلمح سمة تكشيرة على محياه قائلة: في بيتك توجد راحة، وكذلك يوجد بسكوت.

ابتسم لملاطفتها، ثم رأى نفسه يطبع قبلة على خدّها ويتجه إلى غرفة النوم.

خلع بدلته على الفور، ثم ارتدى بيجامة النوم، فاعتراه إحساس بأنه خفف عن نفسه قليلاً، ثم ما لبث أن استلقى على ظهره في السرير، وقد سحب غطاء شفافاً إلى قمة رأسه، واستغرق في نوم عميق.

عندذاك لم يرق الأمر لزوجته عندما رأت هذا التبدّل على زوجها، فتمتمت في قرارة نفسها: ثلاثة مستجدّات بدرت منه في وقت واحد، لابد أن يكون هناك شيئاً ما قد حدث معه: تكشيرة، وعودة مبكرة، وقبلة على خدّي.

خطر لها أن تجري اتصالاً بالسكرتيرة علّها تخبرها بشيء ما، وعلى الفور، أجرت الاتصال، فقالت السكرتيرة بكثير من الاحترام:

اتصالك بي سيدتي (روزان) خان، مبعث فخر واعتزاز لي، لكن لاأعرف عنه شيئاً سوى أنه خرج من المكتب بالفعل قبل موعد انتهاء الدوام بساعة واحدة، هذا كل ما أعرفه، لقد تشرفت باتصالك وسماع صوتك سيدتي.

عبّرت لها الزوجة عن شكرها وامتنانها، وهي تقول :(زور ممنون باجي هندرين) وطلبت أن تقبل أطفالها نيابة عنها، ثم أغلقت الخط.

زاد ذلك من مشاعر هندرين بأنه على غير عادته، وها هي حرمه تؤكد لها ما دار في خلدها.

عندما بلغت الساعة السادسة مساء، دخلت إليه زوجته حاملة فنجاني قهوة، إلى جانب صحن صغير من الكيك على سفرة، وندهته بخفوت.

بعد لحظات قليلة، فتح عينيه، ثم بدأ يتمطمط ويتأوه في السرير متمتماً: يبدو بأنني كنتُ مرهقاً بالفعل.

ثم تناول كأس الماء ورشف نصفها بلذة.

ترامى إذ ذاك صوت زوجته وهو يمدّ كفه إلى فنجان القهوة:

حتى هذا العمل الذي تقوم به، يمكننا الاستغناء عنه، أنت تحتاج إلى راحة بسبب ما قمت به من عمل شاق متواصل خلال السنوات الماضية، يمكن أن توكل أحداً كي ينوب عنك في الجريدة.

لاأخفيك يا دشتي أننا بتنا نفتقدك كثيراً، حتى الأولاد باتوا يلحّون في أسئلتهم، لأننا لانكاد نراك خلال الأسبوع إلاّ يوم الجمعة عندما تكون العطلة.

قال: معك حق ياروزان، لكنني لا أستطيع أن أتخيل غيابي عن المكتب، هناك ألتقي بكافة شرائح الناس، وأتمكن من تقديم المساعدة لمن أستطيع، أعتقد بأنني أفعل شيئاً مجدياً في حياتي من خلال هذه الجريدة التي أسستها منذ خمسة وعشرين سنة.

تناول قطعة كيك، فقالت: هذه صناعة محلية، ابنتنا تعلمت الطريقة من الإنترنت وصنعتها.

مدّ يده إلى قطعة ثانية، وأخذ يستلذ برشف القهوة برفقة شريكة حياته التي تشاركه احتساء قهوة المساء وتناول الكيك: لذيذة، هاهي بدأت تشعر بالمسؤولية تجاه البيت وتخفف عنك.

ضحكت وقالت: ياقلبي يابنتي، لاأريد أن أرهقها في العمل، عندما أراها تجلي في المطبخ، أشعر بأنني أتعب أكثر مما لو قمتُ

بذلك، لكنني أتركها تمارس مسؤوليتها تجاه البيت.

ثم انهمرت دموع من عينيها وطفقت تقول: غداً سوف تتزوّج وتفتح بيتاً.

وأردفت بغصة علت حنجرتها: وو.. بلعت ريقها. .تتنن..

فأكمل زوجها قائلاً وهو يربت على كتفها: وتنجب لنا حفدة.

لايدري لماذا قفزت واقعة خطوبته لها، عندما ذهب مع أبيه وبعض أقربائه لخطبتها، يومها لم يكن يعرف كثيراً عن طبيعة المجتمع التركماني الهوليري، فأتاحت له روزان أن يتعرف على عظمة هذا الشعب، على مساحة الطيب التي يتمتع بها.

مع السنوات، بدأ يكتشف نقاء ونبل الإنسان التركماني، وقد صهراً لهم، تلك التقاليد العريفة، ذاك التديّن الأصيل النابع من عمق الفطرة، بدأ كلما يرى تركمانياً، يشعر بحالة قرب منه، تنتابه مشاعر ود تجاهه وهو بشعر بحالة قرب منه لأكثر مما كان، بدأ يتعرف على عمق أصالة الإنسان التركماني في هولير.

لم تستطع زوجته الطيبة أن تتمالك نفسها من البكاء الذي انفجر منها، وغدا يتصاعد كما لو أنها طفلة عندما قفزت صورة ابنتها

الأرملة (هيمن) إلى مخيلتها بغتة، وغدت تمتم بصوت كسير: قربانك يا بنتي، ياكبدي عليها. ثم استأنفت كما لو أنها تتوسل إليه: والله اليوم يا دشتي جان، لابد أن تأخذني إلى هيمن، مضى أسبوع لم أرها، ولم أر ولدَيها.

انهمرت دموع سخية من عينيه وقال: لادين لهؤلا، لامعتقد، لامشاعر إنسانية.

ثم راح يشرد بذاك اليوم الأليم عندما كان في مبنى الجريدة، وأحس بحركة غير طبيعية وعبارات صاخبة تقول: تعرض مبنى البرلمان لانفجار عنيف.

هرع الناس من كل حدب وصوب إلى المبنى بيد أن الأسايش لم يدع أحدا من الاقتراب وسط تعالي أصوات سيارات الإسعاف والصافرات، والأعيرة النارية، الصرخات.

لبثت ابنته مع طفلها هلعة عنده، فباتت أمها توليها عنايتها الفائقة لأنها كانت حاملاً في شهرها الثاني وتخشى عليها من سقوط الحمل.

كانت تصرخ وهي تقول: أريد أن أطمئن على زوجي، كان في تلك اللحظة داخل المبنى، ليته لم يذهب، ليته بقي في البيت.

في المساء وصلهم خبر استشهاد زوجها الذي كان عضواً في البرلمان نتيجة الانفجار.

عاهدت المرأة نفسها أن تتفرغ لتربية ابنها، وعندما ولد ابنها الثاني، اتخذت ذاك القرار بشكل جازم، بعد أن أسمته باسم أبيه، وبدأت تقيم في بيتها مع ولدَيها.

عندما بلغت الساعة العاشرة والنصف ليلا، عاد دشتي برفقة زوجته من زيارة ابنتهما وحفيديهما بعد قضاء نحو أربع ساعات.

اتجه إلى غرفة نومه، شرد قليلاً وهو يتخّيل حال ابنته التي تعيش دون زوج، وتصرّ أن تكمل رسالتها في تربية ولديها وتقديمهما كي يفعلا شيئاً مجدياً لكردستان الحلم.

قالت له: إنهما من رجال هولير يا أبي، رجال كردستان المستقبل، لذلك أبذل كل ما باستطاعتي حتى أهيئهما لتلك المرحلة.

كانت هيمن منذ الصغر تتحدّث عن إقامة الدولة الكردية، وتقول بأن لامخرج للكرد سوى إقامة دولتهم، ولذلك درست العلوم السياسية حتى تخرجت، ثم أصبحت أستاذة في الجامعة التي تخرجت منها، حتى هذه الليلة قالت لأبيها بأنها ماتزال لاتوافق

الذين يقولون بأن الوقت مازال باكراً بالنسبة لكردستان.

ضحكت بسخرية وقالت: عندما تقوم الساعة بعرف هؤلاء، سيحين موعد قيام دولة كردستان، يا لهم من مساكين، يعتقدون بأنهم حكماء، وليس هذا فحسب بل يسعون إلى إعطاء الآخرين انطباعاً بأنهم يقعدون على حكمة، والحقيقة يا أبي أنهم يستقرّون في مقاعدهم ويريدون أن تبقى الأمور على ما هي عليه، وهذا يعطي تصوراً بأنهم بلغوا غاياتهم، ولذلك تبدر المحاولات لزحزحة هذا الذي يعتقدون بأنه استقرار.

كانت ضربة البرلمان موجعة، وأكذب إن قلت أنها لم تكن موجعة، كانت استهدافاً واستنزافاً ليس لمبنى البرلمان، بل لكردستان المستقبل، أرادت أن تعيق قيام تلك الدولة.

يا أبي، إذا فكرنا في هذا الأمر، نحن لا نتقدم، بل نرجع مئات، وأحياناً آلاف السنين إلى الوراء لنستعيد أركان كردستاننا التي افتقدناها.

لبث ينظر إليها وهي تتحدّث بجدية، وتسعى إلى إخفاء ملامح التشنج التي بدأت تظهر على وجهها، وكذلك على نبرات صوتها: هؤلاء الذين يدّعون الحكمة، هم ليسوا أكثر من امتدادات لأولئك

الذين نظروا بأن القاضي محمد كان مستعجلاً في إعلان / جمهورية مهاباد/، وسقوطه جعلهم يزدادون ثباتاً في رؤيتهم، ثم جعلهم لايفكرون مجرد تفكير بإعادة الكرة، لأن أي جمهورية في مخيلتهم هي تكرار لجمهورية مهاباد المنهارة في أفضل أحوالها، وبالتالي لو كانت محظوظة لن تستغرق ما استغرقته سابقتها. هذه هي الذهنية التي لبثت كاتمة على أنفاسنا ولا تدعنا نتحرر من عقدة هذه الجمهورية.

بصورة عامة يا أبي، تترك الانتكاسات التي يتعرض لها الناس أثراً سلبياً في مسيرة حياتهم القادمة بعد ذلك، فيلبثون أسرى تداعيات ما نجم عن تلك الانتكاسات، يلاحقهم رعب عودتها إليهم حتى يعيق تقدمهم في الكثير من أبواب الحياة، ويبقى الوجوم مسيطراً على سيماهم.

هذا الكائن المنتكس إنما هو كائن مسكون بشبح النكسة المروعة التي تعرّض لها وهزّت له أركان ومقومات حياته.

لبثت تتحدث وهو يصغي إليها بانتباه شديد، فقالت: تختلف الانتكاسات التي يتعرض لها الأفراد بصفة فردية، أو العوائل بصفة عائلية، أو القوميات بصفة قومية في مستوياتها ومفرزاتها، بيد أن ثمة خيط يربط بين هذه الانتكاسات في درجاتها الثلاث، لكن رغم

كل ما يمكنه أن ينجم عن آثار هذه الانتكاسات، فيمكن للفرد أو العائلة، أو القومية أن تسعى شطر الخلاص، وتنفض عن نفسها وبال هذه النكسة، فتكون بذلك أعاقت تحويل هذه النكسة إلى عقدة مزمنة في كينونتها.

لقد تعرضنا إلى هذه النكسة المروعة والهزيمة التي مُنينا بها نتيجة إسقاط أركان جمهوريتنا الأولى العتيدة بقوة الجيش سنة 1946 عن عمر 11 شهراً، وخلع رئيس جمهوريتنا الأولى بقوة السلاح، والسيطرة على أرض الجمهورية المنهارة وشعبها.

لقد تركت هذه النكسة المروعة آثارها على مشاعرنا القومية، وأطفأت لدى البعض حتى الحلم بعودة تلك الجمهورية.

إنها يا أبي التَرِكة التي لبثت مهيمنة بجبروتها وآثارها على غالبية القادة الكرد، يطاردهم شبح نهاية ما آل إليه رئيس جمهورية مهاباد إذا هم أقدموا على خطوة تمردية كهذه.

لبثناحتى هذا التاريخ بحاجة إلى زعيم شجاع تكلله القومية الكردية بطلاً قومياً استثنائيا، وهو ينزع عن نفسه براثن النكسة، ويتحرر من قيودها، ويعلن بكل شجاعة إقامة هذا الحق التاريخي العادل لحفدة

الكرد.

بدأت أمها تذرف الدموع وهي تستمع بصمت إلى جانب أبيها، فقالت:

لقد أصبحنا أغنياء، ولكن غنى المال لايُغني عن غنى الإنسان، ليس بوسع المال أن يشكل قوة للإقليم، ولكن الإنسان يشكل له قوة ويشكل له ثباتاً، ولن يكون بوسع أحد أن يزحزح أركان إقليم غني بالإنسان وبالمال. لقد خرجنا من تجربة أغنى دول الخليج مالاً وأمناً واستقراراً عندما تعرضت للغزو وهي قائمة على كل ثرواتها الطائلة دون أن تستطيع مواجهة هذا الغزو، عندذاك اكتشفت بأن الغنى ليس بوسعه أن يجعل من أركان الدول ثابتة.

كردستاننا يا أبي ليس بوسعها أن تكون قوية إلاّ بأكرادها، هؤلاء هم القوة التي تجلب الثبات، وتستعيد أركان دولتنا العتيدة.

هكذا عندما وفد إلينا أخوتنا من سورية، أدركنا بأننا أصبحنا أقوياء بهم، وأصبحوا أقوياء بنا، هكذا رأينا الاعترافات بحقوقنا حتى في تركيا ولم يكن ذلك كرمى للنفط، ولا لأي مقوّم اقتصادي بقدر ما هو استجابة لحقيقة ما بات يشكله الكرد من قوة عملية على

أراضيهم، وقد تكاملت هذه القوة واشتدّ عودها بتكاتف أكراد سورية مع الإقليم، لأن هؤلاء يشكلون قوة كردية حقيقية، لذلك يمكن أن نرى بأن ما حققه الكرد في سورية لم يكن ليتحقق لهم، إن لم يكن ثمة إقليم كردي هنا وقف وقفته هذه، لقد أعطى ذلك نظرة بأن هؤلاء الذين يقاتلون على الأرض إنما يستندون على خلفية قومية، وهم ليسوا بلا ظهر، وكنتُ سعيدة وأنا أرى أول طائرة كردية تنطلق من مطار هولير لتحط في مطار قامشلو، وأمام هذا الإطراء التركي للقومية الكردية، جاء موازيا موقف الحكومة السورية للاعتراف باللغة الكردية، وتدريسها في الجامعات والمناهج الدراسية الحكومية.

ما قمنا بتحقيقه لم يكن للاقتصاد أي دخل به، كان التآزر الكردي هو الذي يفرز هذه المنجزات التي تجعلني في حالة نشوة نفسية وأنا أعيش مشاعر الظفر، هكذا وأنا أراقب كردي العراق يلتم بكردي تركيا، ويلتم بهما كردي سورية، ويؤازرهم كردي إيران، إنها ملامح بروز شمس الدولة الكردية علينا جميعاً من خلال علم كردستان الأوحد ونحن نشدو بنشيدنا القومي.

قال دشتي: من دعائم مقومات أي أمة من أمم المعمورة أن يكون لها نشيد وطني، يعبر عن خصائص هذه الأمة، ونحن قدّمنا تضحيات هائلة في سبيل أن يكون لنا نشيدنا الوطني الذي يستفتح به الكورد صباحاتهم سواء في المدارس، أو في ثكنات الجيش، أو في المصانع، أو في سائر حقول الإنتاج.

قالت: النشيد الوطني، هو شرح عن شخصية الأمة، وعقيدتها الوطنية، حيثما وجدوا، كثيراً ما توقفتُ أمام هذا النشيد يا أبي:

(أيها الرقيب)

إنها إشارة أولى في النداء الأول الذي يوجهه الشعب الكردي إلى الآخر الذي يستخدم شتى ألوان العنف لمحاربة الكرد وإخراجهم من ديارهم، فلا يخاطبه بـ أيها العدو، بل يهذّب خطابه إليه بقوله: **(أيها الرقيب)**.

كان شاعرنا (دلدار) في قصيدته هذا يخاطب رقيب السجن الذي كان يحرسه، وهو من خلال هذا الخطاب إليه مباشرة، كان يخاطب رؤسائه، فيستأنف خطابه قائلاً:

(سيبقى الكرد بلغتهم وأمتهم باقون إلى الأبد)

في إشارة ثانية بأن هذا الرقيب لو استطاع أن يقضي على جيل كردي بأكمله، فسوف يولد جيل جديد بعد حين من الدهر ويدافع عن كردستان:

(لا يقهرهم، ولا تمحوهم مدافع الزمان).

ثم يبيّن سبب عدم قهر الكردي وعدم يأسه من فكرة المقاومة مردفاً:

(نحن أبناء اللون الأحمر أبناء الثورة)

فيطلب إليه أن: **(تمعّن بماضينا المخضب بالدماء)**

ذلك أن حاضر العنف مهما بلغ من حدّة، فإنه لن يكون أكثر من صفحة تُضاف إلى صفحات الماضي المخضّب بدماء الكرد في سبيل بقاء كردستان حية:

(نحن أبناء الميديين وكي خسرو)

يذكّره بالماضي الكردي، وامتداد جذور دولة كردستان في عمق التاريخ، وأن قيام دولة كردستان، هو ليس نشأة جديدة، بل هو عودة إلى الحق المغتصب حيث كانت كردستان عبر عصور الزمن السحيق إمبراطورية قائمة تقف على دعائم شعب، وحضارة،

وتاريخ، وملوك، وهي تستعيد حقها ضمن جغرافيتها المشروعة، ولا تسعى إلى إنشاء كيان في أرض غريبة ليست لها:

(ديننا إيماننا هو الوطن)

التفاني هنا يقضي أن يدين المواطن بدين الوطن، وكذلك يؤمن به حتى يُمكّنه ذلك من الجود بالنفس في سبيل الوطن، لأن ذروة ما يمكن للمرء أن يجود به، هو جوده بنفسه، ولا يبلغ هذه المرتبة قبل أن يدين بدين ما يجود في سبيله بنفسه.

ثم يشير إلى مكامن قوة الأمة بقوله: **(انتفض شباب الكرد مثل السباع كي يسطروا بدمائهم تاج الحياة)**

تمتلك الأمة الكردية طاقات شبابية متجدّدة تدين بدين كردستان وتؤمن بها دولة قائمة، تتحوّل إلى سباع، وتبذل ذروة ما تملك في سبيل تاج كردستان، وقد شبّه النشيد الوطن بالحياة، لأن أمة بلا وطن، لاتسري فيها حياة: **(نحن أبناء الثورات والدم الأحمر)**

هنا تذكير آخر للرقيب بأن روح الثورة تجري في عروق الكردي مجرى الدم، بعد ذلك يأخذ النداء صفة الجمع عندما يتحوّل

الرقيب إلى رقباء، ويمسي العدو مجموعة أعداء، فيخاطبهم بصيغة الجمع هذه المرة: **(انظروا إلى تاريخنا المليء بالدماء)**

كذلك فإن الحاضر ليس أكثر من امتداد للماضي لأن فيه: **(شباب الكرد على أهبة الاستعداد للتضحية بأرواحهم)**

عندئذ، يتم مخاطبة الناس جميعاً أصدقاء وأعداء بصيغة الجمع: **(لايقل أحد أن الكرد زائلون، أن الكرد باقون)**

ثم ينتهي النشيد بثقة عالية: **(باقون كرايتنا الخفاقة الشامخة إلى الأبد).**

مسح الدموع من عينيه، وتمتم: رعاك الله يابنتي.

ثم مدّ يده إلى كتاب بالقرب من السرير، وبدأ يقرأ حتى ساعة متأخرة من الليل.

عندما استيقظ في الصباح، أحس بحيوية غير معتادة كما لو أنه يتأهب للذهاب في إجازة سياحة، حين اتجه إلى المغسلة، وبدأ يحلق ذقنه، لفت انتباهه عدم وجود حركة في البيت.

تناهى منه صوت: روزان. . روزان.

بعد قليل جاء صوت زوجته من غرفة البنات: هل تريد شيئاً

يا دشتي؟

-: الساعة بلغت الثامنة، لماذا تأخر الأولاد في النوم، ألا دوام لديهم.

قالها وقد بدأ يغسل وجهه ويدندن بأغنية، ثم حمل الملقط، وخلع شعرة بيضاء كانت بارزة من فتحة أنفه.

تراءت له زوجته من خلفه في المرآة وهي تقول: ما شاء الله، أنت شاب هذا البيت، نهضتَ قبلهم، وهاأنت مشرق تبدو كما لو أنك ذاهب إلى عرس.

قال: وأنت كذلك عزيزتي تبدين مشرقة بخدّيك المتوردتين المشبعتين من نوم عميق.

قالت: لكن يؤسفني أن أخبرك بأنك لن تخرج اليوم إلى العرس، وسوف تعود إلى غرفتك لتكمل النوم.

جمد إثر سماع ذلك، وهمهم: خير يا روزان خان ؟!

ابتسمت وقالت: صح النوم نور عيني (بريز)، اليوم جمعة، أنت كلك من حصتنا أربعة وعشرين ساعة.

أحس بصدمة، كما لو أن أحداً قد رش عليه بغتة إبريقاً من

ماء بارد، لأول مرة راوده شعور بأن هذا اليوم حل في وقت غير مناسب.

أعاد أدراجه إلى غرفته بخيبة، وقد ناست شعلة حيويته، تمدّد ثانية على السرير كما لو أنه خرج لاستخدام المرحاض ثم عاد إلى فراشه ليستكمل نومه.

للتو أدرك سبب رغبته الجامحة للذهاب إلى المكتب، أحس بأنه لابد أن يصارح نفسه بهذه الحقيقة ولا ايواريها كما فعل في الساعات الماضية.

إذ ذاك بدا يتخيّل دخوله المكتب، وبعد نحو ساعة تدخل إليه هندرين قائلة: تلك الزائرة تريد لقاءك أستاذ.

ينهض من خلف الطاولة ويخرج إليها قبل السكرتيرة، يتقدّم إليها تسبقه كفه لمصافحتها: لقد غمرتني بكرمك سيدتي، لا يسعني سوى أن أعبر لك عن خالص امتناني، تفضلي، أهلاً وسهلاً.

تمدّ خطواتها، وتدعوه ليدخل قبلها، فيصرّ قائلاً: تفضلي سيدتي الكريمة على الرحب

والسعة.

تمتدّ بها خطواتها تحت إلحاحه، وتجلس على ذات الكنبة، ثم يجلس قبالتها، لايفعل شيئاً سوى أنه يتأمل جمالها الذي تتوّج بمسك النضج.

يتخيّل أن يأخذها إلى الجبال، يتخذ بيتاً هناك، يمضي معها شهراً لايفعل شيئاً سوى أن يتأمل مزايا ذاك الجمال، لعله يغدو على مقربة من سرّ الجمال.

في صبيحة يوم السبت، استفاق نشيطاً وهو يتمتم كما لو أنه يدندن بأغنية: اليوم يوم سبت، إنه ليس يوم جمعة.

ثم خرج قبل موعده بنصف ساعة، عندما وصل المكتب، لم ير أحداً سوى الحرس وبعض المستخدمين الذين تفاجأوا بحضوره المبكّر.

دلف مكتبه، وما لبث أن مدّ كفه إلى/الكونترول/ وأشعل التلفاز، ثم أخذ يقلّب القنوات، وفي أثناء ذلك أحس بأنه قفز على لقطة سريعة لفتت نظره في قناة كردية.

عاد إليها وتمتم: هذه هي. ثم بدأ يدندن مع الأغنية الكردية.

أحس في تلك اللحظات بأن الحياة طابت للتو، وأنه يقف في

أوجها، عندئذ خطر له أن الرجل مهما تزوّج، ومهما تقدّم في العمر، فإنه لايُسقط من حساباته بأنه ذات يوم، قد يغدو عريساً.

عندما أحس بنشوة غامرة، أخذ يرفع شيئاً من الصوت، وهو يدندن مع كلمات

الأغنية.

بعد قليل تناهت إلى سمعه طرقات على الباب، أدرك بأن سكرتيرته وصلت، فقال دون أن يخفض من صوت التلفاز: ادخلي باجي هندرين، وهو لمّا يزل يدندن مع الأغنية.

عندما دخلت هندرين، بوغتت بما رأته عليه، وخال لها أنه عاد عشر سنوات إلى الوراء.

لم تخف سعادتها بذلك، فطفحت تتمتم: جعل الله كل أيامك سعيدة كهذه عزيزم.

لبث مبتهجاً، وعندما انتهت الأغنية، راح يقلّب القنوات حتى وقع على فرقة رقص تؤدي رقصة من التراث الكردي.

قال: الفن يجعلنا نكتشف جماليات الحياة يا هندرين.

قالت: الأهم من ذلك نكتشف جماليات أنفسنا.

قال: صحيح، لأن الذي لا يكتشف جماليات نفسه، لن يكون بمقدوره أن يكتشف الجمال الخارجي، أو يتذوّقه، للأسف لم يتح لي وقتي كي أستمتع بهذا الفن، مشاغلي حرمتني حتى من تلبية الدعوات التي تلقيتها لحضور الأعراس، والمشاركة في حلقات الرقص والدبكة.

ثم صمت قليلاً وأضاف: بل لا أجيد رقص أي لون من ألوان رقصاتنا بشكل جيد، أحياناً في عيد النوروز، أتجوّل بين الفرق الموسيقية وأستمتع بمشاهدة أشكال الرقصات.

ركن إلى شيء من الصمت، ثم أردف يقول: أظن بأن المرأة الجميلة عندما ترقص، تتفتح براعم أنوثتها، وتبدو أكثر إشراقة.

ابتسمت بسمة خجلى وقالت: هذا بالنسبة لك يا أستاذي، لكن بالنسبة للمرأة، يلفت نظرها كثيراً الرجل الوسيم عندما ينخرط في حلقة رقص، عندما تنظر إليه، تراه يزداد وسامة في ناظريها، ولذلك ترغب فيما لو حظيت بشبك كفها في كفه وشاركته الرقص، إنها لحظتذاك تشعر بزهو كما لم تشعر به من قبل.

قال: أتحبين الرقص يا هندرين؟

قالت: والله يا أستاذي، لاأصدق إن قلت أنني لا أحبه، لكن بعد أن تزوجت وأنجبت، لم يعد هناك وقت للذهاب إلى الأعراس والمشاركة في الرقص إلاّ إذا رأيتني مضطرة إلى ذلك.

حين كنتُ صبية لم أكن أدع عرساً يفوتني دون أن أذهب إليه مع أهلي عندما كانوا يلبون الدعوة، أو كنتُ أصطحب أحد خوتي، ولا أخرج من العرس قبل أن أشارك في حلقات الرقص.

حتى بعد زواجي بسنتين كان يحدث ذلك، وكنت أذهب مع زوجي ونشارك في الرقص، لكن مع مرور الوقت بدأت أعتذر، خاصة بعد التزامي بالدوام، والآن بعد إنجابي لأولادي الأربعة، بدا ذلك بالنسبة لي شيئاً من الماضي.

عملي في المكتب، مسؤوليات الأولاد والزوج، الواجبات الاجتماعية، الطبخ.

هكذا أرني منهكة، أبحث عن وقت كي أرتاح فيه حتى يتجدّد نشاطي، ولا أخفيك - ماموستا جان- أحياناً يعتريني إحساس بأنني في الثمانين من عمري، ولستُ ابنة الثانية الثلاثين.

قال: الرقص هو تعبير عن نبض الحيوية في أي مجتمع، لذلك

لا يخلو مجتمع من ابتكار ألوان وأشكال فنون الرقص التي تعبّر عن هوية هذا المجتمع، فتقول يا هندرين: هذه رقصة تركمانية، وهذه رقصة آشورية، وتلك رقصة فارسية، وتلك رقصة كردية. الرقص هنا يشكّل علامة من علامات المجتمع، وكذلك فإن بعض الرقصات تخلّد مجتمعاتها وتقيها من الذوبان عندما تتآزر عليها الأمم وتسعى إلى محقها.

ونظراً لهذه المنزلة الرفيعة لما يقوم به ويؤديه فن الرقص الذي يسهم في تأصيل هوية الأمم، نرى الملوك، والأمراء، وكبار قادة الشعوب، يؤدّون رقصات شعوبهم العريقة في سائر المناسبات سواء أكانت وطنية، أو اجتماعية، وكذلك فإن الدول عندما تريد أن تقدّم تاريخ حضارة شعبها لكبار ضيوفها المميزين في زيارات تاريخية انعطافية، فإنها تقدّم لهم فرقاً تؤدّي ألواناً من لآلئ هذا الرقص، وما ذلك إلاّ لأهمية ما يؤدّيه ويحمله فن الرقص من وظيفة قومية معبّرة عن تقاليد وأصالة هذا الشعب.

الرقص عندنا يركّز على الفكرة الجمالية في أداء الجسد للحركات الراقصة، وهذا يعني أن الأساطير لم تستطع أن تقحم ذاتها في هذه

الرقصات كما الأمر بالنسبة لرقصات بعض الشعوب الأخرى في العالم.

انظري إلى الرقصات الكردية، سترينها تُعنى بالجانب الجمالي من المنهج العام لعموم الرقص في حضارة وتراث شعبنا، هذا الجمالي الذي يتكلل بالمضون المعنوي، وهذا من شأنه أن يدفع - ليس الراقص فقط - بل الناظر أيضاً كي يمتلئ بحالة الرقص، لأن الرقص هنا تحوّل إلى عملية إرسال، وتلق في وقت واحد، فالراقص يستمتع ويتذوّق جمالية الرقص كما أن المشاهد إليه أيضاً يشاركه هذه العملية.

لبثت هندرين تصغي إليه، فقال: نظراً لأن شعبنا يغلب عليه الطابع الاجتماعي، وهو بفطرته ينزع إلى روح العلاقات الاجتماعية، فإن ذلك يجلو من خلال رقصاته التي تكون على شكل حلقات حيث تتشابك أكف الرجال والنساء في دوائر تتسع كثيراً وتبقى مفتوحة للتوسع واستقطاب المشاركين، وما ذلك إلاّ لأن الرقص هو ليس حالة فردية، بل هو حالة جماعية إشراكية بين الراقصين وبين الحضور، ولذلك ترين الناس ينهضون من أماكنهم

ليدخلوا حلقة الرقص، وإن اتسعت الدائرة كثيراً، يصنع الراقصون حلقة ثانية، ثم ثالثة حول بعضها البعض، وهذا يكون عندما يأخذ الحفل المخصص ذروة تألقه وتوهجه، وقد أجاد الكرد في إبداع أغنيات مصاحبة لما تغتني به الذائقة الفنية من ألوان وأشكال الرقص والدبك الشعبي، مثل: مام عباسي، شيخاني، كُلشين، سويسكَي، سي كاف، بابله كان، عَيشوكي، روينه، به ر وبشت، زنكاني، ملاني، يار كوزل، وهي تتفرّع من عائلة الرقصات السورانية، والرقصات الكورمانجية، والرقصات الفيلية.

كل رقصة من تلك الرقصات - عزيزتي - تروي حكاية، يتحوّل الرقص إلى لغة بليغة، لكن ترويها حركات الأعضاء، وكل رقصة تميّز بمقوماتها، وبحركاتها الخاصة بها كي تقدّم الفكرة التي انبنت عليها عمارتها، فتشابك الأكف في الأكف، والرقص البطي من خلال تشكيل دائرة والتحرّك ببطء ضمن مسار دائري متّبع، يرمز إلى حالة، كما الأمر مع تشابك الأكف في الأعلى والرقص على إيقاع سريع والخروج عن الحلبة الدائرية والعودة إليها، كما الأمر بملاصقة الأكتاف، أو التباعد بينها، لهذا فإن الضيف الغريب الذي يجلس

وينظر إلى ألوان هذه الرقصات، وتلك الحركات المدروسة بذكاء، يُشكل تصوراً عن بنية هذا المجتمع، وتبلغه الرسالة التي قدّمتها له تلك الرقصات، وهو في حالة من الاستمتاع، ولعل ذلك يكون بالنسبة إليه أكثر بلاغة من حديث مباشر، فقد تمكّن فن الرقص أن يقدّم الرسالة بشكل أكثر بلاغة من فجاجة حديث مباشر. أردف وهو ينظر باعجاب إلى الفرقة الراقصة تؤدي رقصة فلكلورية من التتراث الكردي: هنا لاترقصين فحسب، بل تتذوّقين نكهة الرقص، ولا تشاهد ينفحسب، بل تتذوّقين نكهة ذائقة الرقص.

أيقنت هندرين أن أستاذها يمر بحالة متوهجة من العاطفة، ولا بد أن سورين قد حرّكت فيه مشاعره هذه العاطفة التي كانت راكدة، دون أن تستطع امرأة أن تحركها بكل هذه القوة.

كم مضت عليهما ساعات طويلة وهو يحدّثها عن أهمية أن يعيش الإنسان حالة الحب، أن يتحوّل الحب إلى سلوك يومي في حياته، أن يشعر بدفء إنسان يحبه كل الحب، وكم شكا لها أن هذه المعادلة لم تعد تتحقق مع زوجته، لايدري كيف تحوّل حبه لها إلى حالة كبرى من الاحترام، حتى غدا في درجة يغلب فيها الاحترام

حالة الحب، لم يكن يعلم أن احترامه لها، سيفوق حبه لها، وأن ذلك يترك أثراً على صلب العلاقة الزوجية بينهما.

قفز كلامه إلى ذاكرتها: إنها امرأة طيبة للغاية، وقد أنجبتْ أولادي، وأهلها جميعاً وقفوا سنداً لي، وأدين لها بالكثير من أفضالها علي، لكن مع السنوات، لم أعد أشعر معها بحالة الحب التي تزلزل الرجل من عمقه، تجعله يمسي متيماً وهائماً، يتذوّق عسل لوعة الحب.

روزان زوجة، زوجة فحسب، وهي أم للأولاد، لا أتصور عودتي إلى البيت دون أن أراها، بل لاأتخيل حياتي دون هذه الشريكة التقية النقية الصالحة، اعتدتُ على رؤيتها في البيت، على ماتقوم به تجاهي وهي تعبر لي عن محبتها، زواجنا مثله مثل أي زواج تقليدي، وعموماً هذا لاضير منه كثيرون يسعون إلى زواج مستقر كهذا دون أن يلمسوه، كثيرون يحسدونني على زوجة أصيلة وطيبة كهذه.

تصوّب إليه نظراتها وتتمتم في قرارة نفسها: مسكين لقد وجد الحب الكبير، لكنه جاء متأخراً، وفي وقت غير مناسب البتة، إنه

يعيش حالة صراع حادة بين شريكة العمر التي يحترمها كل الاحترام، وبين حبيبة العمر التي يحبها كل الحب.

إني قلقة عليه، أعرف كم هو مرهف، وكم هو بريء، وكم يتمتع بحساسية مفرطة.

عندئذ رأفت بحاله وأرادت أن تخفف عنه فقالت: كأن قلبي يخبرني أن زائرتنا التي زارتنا في الأسبوع الماضي، ستزورنا مرة أخرى.

نظر إليها، أراد أن يقول شيئاً، لكنه تمّهل وكأنه تلقى نبأ، انتظر حتى يتأكد منه، فأردفت

قائلة: عندما رأيتها لأول مرة، شعرت بحب نحوها، كم كانت مؤدبة يا أستاذ، انتظرتْ نحو ربع ساعة فقط حتى لا تقاطعني من قراءة الكتاب الذي كنت أقرأه.

أحسّت من نظراته إليها بأنه يصغي إليها بإنصات، ويريد أن تستكمل حديثها، فقالت: سورين، ياله من اسم جميل، لقد أحببتُ حتى اسمها، كم كانت وديعة تلك السيدة الجليلة.

قال: صحيح ما تقولين يا عزيزتي، لقد تناولنا وجبة الغداء معاً،

لكن ألم تقل لكِ أين تسكن؟

قالت: بلى يا أستاذ، قالت لي بأنها تسكن في شورش.

شورش. . قالها الأستاذ وهب واقفاً على قدميه: شورش. . بيتها لا يبعد كثيراً عن جريدتنا.

قالت: لذلك راودني إحساس بأنها لابدّ أن تأتي قريباً.

كانت تتحدّث عنك بإعجاب جم، وتقول بأنها لا تنسى أفضالك عليها لأنها تعلمتْ من مقالاتك الكثير، في الواقع يا أستاذي كل ما فيها كان يؤكد لي بأنني أمام امرأة نادرة.

في تلك اللحظات أصدر الباب عدّة طرقا، فاستدارت هندرين وفتحته ليدخل أحد المحررين.

تركته مع الأستاذ، وراحت تقبع خلف مكتبها، وقد اعتراها شعور بأنها استطاعت أن تخفف عنه، وتجنبه الحرج من تلك الأسئلة التي أحست بأنه يريد أن يسألها، بيد أنه يجد حرجاً في ذلك.

عندما انتهى الدوام، ركب دشتي سيارته، وسار بها نحو حي شورش، وحين أشرف على دخول الحي، لأول مرة راوده

إحساس بأنه يدخل بقعة نفيسة، تأوي كائناً عزيزاًعلى قلبه.

كم أحس بالنشوة وهو يمضي في طرقات الحي، يوزع نظراته يمنة ويسرة، علّها تقع على تلك الكائنة التي داعبت شغاف قلبه منذ نظراته الأولى إليها.

مضى في الحي، ثم عاد متجهاً إلى البيت، دخل غرفة نومه، وراح يستغرق في نوم حتى المساء.

عندما بلغت الساعة السابعة والنصف، حلّ موعده اليومي للجلوس مع عائلته كي يتناولوا معاً وجبة العشاء، طقس يومي ينتظره كل فرد من أفراد العائلة بشغف، هذه العائلة المكوّنة من ثلاث بنات، وولدين، بقيت الابنتان والشاب في البيت بعد زواج الأخت الكبرى هيمن، والأخ الذي يليها سه ركوت.

يجلس الأبناء الثلاثة مع أبويهم في فرصة وحيدة تستغرق هذا الوقت الطويل، حيث مائدة العشاء، ثم يجلسوا جميعاً، يسهرون مع برامج التلفاز، يتناولون المكسرات، والفاكهة، والعصائر، والحلويات حتى تبلغ الساعة الحادية عشرة، فيودعهم وينهض إلى حجرة نومه، يقرأ حتى يغلبه النعاس، وينام.

هاهي امرأة تقتحم عليه أسوار عاطفته، تزلزله من الأعماق دون أن يعرف عنها شيئاً، دون أن يلتقيها سوى مرة واحدة قد لن تتكرر، إنها تخل بكل الموازين التي وضعها لحياته، يبدو بأنه لا يثبت في موضع، كأنه ينتظر شيئاً ما، من خلال طرقات الباب، من خلال رنين الهاتف، حتى عندما يفتح النافذة، ويلقي نظرة إلى الشارع، يعتريه إحساس بأنه سيقع على حدث سعيد ما في حالة ترقب دائمة لمفاجأة وكأنه على موعد معها.

مرّة أخرى طاب له أن يتخيّل تلك اللحظات الذهبية من عمره، تخيّلها خلسة كما لو أنه لص يختلس شيئاً خفية وبحذر شديد كي لا يضبطه أحد بالجرم المشهود.

تخيّل تلك المشاعر الغامرة التي دهمته وهو يجالسها، ويظفر بمتعة النظر إليها وهي تشاركه الطعام، كم راودته رغبة فيما لو غرز الشوكة بقطعة اللحم ودسّها في فمها، وهو يشعر بأنه في مملكة سحرية يأبى الخروج منها، بيد أن الوقت أخذ يمضي مسرعاً أكثر من أي وقت مضى، يمضي حتى ألفاها تودعه وتترك في أعماقه شعوراً بأنه ورقة خريف سقطت من أعلى شجرتها.

مضت تاركة إياه وحيداً كما لو أنه كان في حلم واستيقظ للتو مستعيداً بذاكرته لمعات تلك الوقائع.

شرد إذ ذاك بالعلاقة بين الحلم والذاكرة، إذا كيف بمقدور الحلم أن ينفذ إلى الذاكرة اليقظة، هاهو الحلم يترك بصمته في الذاكرة التي تستعيد التفاصيل كما لو أنها وقعت بالفعل على أرض الواقع.

همهم: إذن، الحلم جزء من الواقع يا دشتي، والواقع هو جزء من حلم، يستمدّ الحلم حلميته من ثنايا الواقع، ويستمد الواقع واقعيته من ثنايا الحلم.

في الحلم لا ينسى الحالم واقعه، وهو يتعامل مع الذين تعرّف إليهم في الواقع على أنها ذات المعرفة التي تحققت في الواقع وانتقلت إلى الحلم، فلو رأيت سورين في الحلم، سوف تتعرف إليها استناداً إلى معرفتك الواقعية بها، ولو لم تحدث بينكما معرفة في الواقع، لما تعرّفتَ إليها كذلك إذا رأيتها في الحلم.

لذا بدأ الناس يعوّلون على تفسير أحلامهم، والتفسير بمعناه الدقيق يعني مدى علاقة ما وقع في الحلم بمجريات الواقع، ودوماً

فإن المفسّر يصيب في تفسيره على قدر نجاحه في ربط الحلم بالواقع لأن ما يهم الحالم بالدرجة الأولى هو مدى صلة ما حلم به بمجريات واقعه اليومي.

كم يطيب له أن يسترد كل لمسة من تلك اللمسات، كل لحظة من تلك اللحظات حتى وهو جالس مع أفراد أسرته، حتى وهو في ذروة انهماكه في كتابة عموده الأسبوعي الجديد الذي لابدّ أنها ستقرأه، هكذا بدا وكأنه يكتب المقال لها فحسب، ولن يقرأه أحد سواها.

تقافز كلامها إلى سمعه عندما قالت بأنها تنتظر بشغف قراءة مقاله الأسبوعي، ثم بدأت تسرد عليه ماحفظته من تلك المقالات قائلة: إذا تخاصم رجل وامرأة، فاعلم بأن الرجل على خطأ، وأن المرأة على صواب، حتى لو كان الرجل على صواب، وكانت المرأة على خطأ.

لم يملك نفسه من نوبة بكاء شديدة انفجرت في حنجرته، لبثت ماثلة أمامه وصوتها يتسرّب إلى سمعه: يمكن أن أتقبّل من الرجل أي تصرّف من منطلق الحرية الشخصية، بيد أنني لا أستطيع أن

أتقبّل منه إساءته إلى المرأة، حينها فقط يمكن أن أبلغ مرحلة أعيد فيها النظر في رابط العلاقة بيننا.

قال: في اعتقادي يا سيدتي أن لا أحد ينغّص على المرأة حياتها سوى الرجل، حتى لوشكت المرأة من ألم في معدتها، فإن رجلاً ما يكون قد تسبب لها بذلك.

قالت: كذلك قولك الذي دوماً أردّده، وأعتقد بأنني قرأته منذ نحو سنة: الرجل دون المرأة، هو كائن يمشي على قدم واحدة، ويرى بعين واحدة، ويسمع بأذن واحدة، ويشم بفتحة أنف واحدة.

والمرأة مع الرجل، تمشي على قدم واحدة، وترى بعين واحدة، وتسمع بأذن واحدة، وتشم بفتحة أنف واحدة.

قال: قلتُ ذلك يا عزيزتي لأنني أعتقد أن المرأة تمتلك تجاه الرجل تسامح نقاء الأنوثة حتى لو بلغ بها العمر عتياً، ويمتلك الرجل تجاه المرأة رعونة خشونة الرجولة حتى وهو في سنواته الأولى.

ابتسمت، وبعد لحظات قالت: عندما قرأت بعض كتاباتك لصديقاتي، لم يترددن من كتابته، وأخذه لأزواجهن، خاصة عندما

قلت: قبل أن توجه كلاماً مهيناً إلى زوجتك، احضر ابنتك ووجّه إليها ما تشاء من كلام مهين، وأنت تنظر إليها نظر العين، وهي تبادلك نظر العين، ثم اصرف ابنتك، واحضر امرأتك إلى ذات الركن، واعد لها ما أتاحت به أبوتك من قوله على مسمع ابنتها.

قبل أن ترفع يد الضرب على امرأتك، احضر ابنتك في خلوة، وسدّد إليها ما تشاء من ضرب، وأنت تنظر إليها نظر العين، وهي تبادلك نظر العين، ثم اصرف ابنتك، واحضر امرأتك إلى ذات الركن، وسدّد إليها ما أتاحته لك أبوتك على جسد ابنتها.

قال: إذا كانت الأم تنجب ابنها وتصطبر عليه وهناً على وهن حتى تجعله رجلاً، فإن الزوجة تتزوّجه وتصطبر عليه وهناً على وهن حتى تجعله أباً وتغدو امّاً لأولاده.

منزلة الزوجة هنا تتساوى مع منزلة الأم، لذا فإن الأم لاتشعر بطمأنينة على ابنها مهما كبر، ومهما علا شأنه، إلاّ عندما يتزوّج، لأنها عندذاك فقط تشعر بأنها أودعته إلى أمّه الثانية التي سوف تستكمل معه مسيرة الأمومة.

لهذا فعندما يتجرّأ رجل ويرفع يده إلى زوجته بالضرب، فكأنما

رفعها على أمّه، وعندما يوجه إليها كلمة بذيئة، فكأنما وجهها إلى أمّه، وعندما ينظر إليها نظرة مزدرية، فكأنما نظرها إلى أمّه.

للتو ولأول مرة في سيرته، يحسد الكلمات التي يكتبها، يحسدها لأنها ستقع تحت عينيها، وستحظى ببريق نظراتها السحرية، وتنام في حجرتها كما لو أنها عصافير.

سورين. . أين أنت الآن؟

ألن يرق فؤادك لحظة واحدة وتفكري ولو بطلّة خاطفة إلى مَن بات كله شوقاً إليك،

طلّة

خاطفة

واحدة

كما

لو

أنها

وقعت

سهواً.

مضى عليه شهر وهو يمرّ كل يوم في الصباح من حي شورش متجهاً إلى عمله، ويعود من ذات الحي عائداً إلى البيت.

بدأ كل مَن يراه يسأله عن سبب شحوبه وهزله، إضافة إلى تغيير سحنته، وتعكير مزاجه، ونوب الاضطراب التي تنتابه بشكل مفاجئ.

الأمر الذي جعل زوجته توليه الكثير من عنايتها الزائدة وقد باتت في حالة قلق عليه.

عند الساعة العاشرة، بينما كانت هندرين مستغرقة في الحديث مع بعض الزوّار الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى مكتب الأستاذ، ألفت سورين تمدّ خطواتها داخلة، دهمها شعور مباغت مرافق لوقوع نظراتها عليها بأنها تخيّل دخولها، وبعد لحظات عندما رأتها تقترب منها بالفعل، مسحت وجوه الزوّار بنظرة سريعة، ثم نهضت من كرسيها وقد بدا عليها الإرباك واضحاً وهي تستقبلها بحفاوة وتتبادل معها قبلات حميمية.

بدت أمامها كما لو أنها خرجت للتو من مملكة سحرية، وهي تمدّ نظراتها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، غير مصدّقة بأن التي تقف أمامها إنما هي سورين التي تسببت بكل تلك الانعطافة في حياة

الأستاذ، حتى بدأت تشفق عليه وهي تراه يهزل يوماً إثر يوم، يزداد اضطراباً، وشحوباً وهو يسعى بكل إمكاناته أن يخفي ذلك، ويتوارى خلف بسمات يتصنّعها، لاتمت إلى وضعه النفسي المؤلم بشيء.

كم تعتصر ألماً وهي تنظر إليه، يكظم غيظه، يواري الصراع الحاد الذي يعانيه والذي يتصاعد يوماً إثر يوم.

هاهي المرأة التي سوف تعيده إلى ما كان عليه.

تنظر إليها وهي تشعر بأنها أمام كنز، طلبت إليها أن تجلس على كرسيها خلف الطاولة، لكنها اعتذرت مفضلة أن تجلس على كرسي بجانبها، بيد أن هندرين أصرّت على ذلك، فأذعنت لمطلبها شاكرة إياها على لطف حفاوتها بها.

حينئذ أجرت اتصالاً هاتفيا مع عامل البوفيه وطلبت إليه أن يحضر كاساً من الحليب، وعندما رمقت باب المكتب ينفتح ويخرج منه شخصان، طلبت من أحد الجالسين أن يتفضل بالدخول إلى الأستاذ.

ثم بدأت تكرر ترحيبها الحار بها، عندما ترامى إلى سمعها رنين

من المكتب، استأذنتها وراحت تدخل إليه، طلب إليها الأستاذ أن تجري اتصالات بشأن مطلب الرجل الذي كان جالساً، فأومأت رأسها بالإيجاب، وهي تحاول أن تخفي حبورها بوجود زائرته المرتقبة.

كم تمنّت فيما لو كان المكتب خالياً من المراجعين، وأخبرته بما تخفي له من مفاجأة، بيد أنها عادت إلى مكتبه، وشرعت تُدخل المراجعين حتى خلا المكتب.

في تلك اللحظة خطرت لها أفكار كثيرة عن كيفية دخولها، فاهتدت أن تجعلها تدخل بمفردها، حتى يتلقى الأستاذ المفاجأة، ويستمتع بحرية استقبالها، ورأت أن دخولها مع سورين ولو للحظات قد يجعله يشعر بشيء من الحرج في إبداء حفاوته به.

تفضلي سيدتي.

قالتها وهي تدعوها للدخول، شكرتها المرأة وقد نهضت، مدّت خطوات وئيدة صوب الباب، وراحت تطرقه بخفوت.

قفز إليها صوت الأستاذ مؤذناً بالدخول، وما أن مدّت خطواتها الأولى إلى الداخل وكأنها ملغومة بشوقها إليه، رأته يجمد وهو

يصوّب نظراته إليها.

دنت إليه وهو ما يزال في وضعه، مدّت كفها تسلم عليه، فنهض، وبدا لأول مرة يشعر بأن ركبتيه خذلتاه، ولم تفلحا في مساعدته للوقوف.

تناولته نوبة من الارتجاف، حتى أن صوته بدا يخرج على شكل نبرات متقطعة مرتعشة وهو يلفظ بالكاد: مرحباً بك. . مرحباً بك. . جيانه كه م.

تناول شربة ماء، فرمتْ المرأة جسدها بذهول في ذات الموضع الذي جلست فيه المرة السابقة، بيد أنه بقي في كرسيه خلف المكتب، يسعى إلى استرداد أنفاسه، وتوازنه.

هل هو حلم؟

تمتم بهذه العبارة في قرارة نفسه، وبدا ينظر حوله جيداً، يلقي نظرة إلى الساعة، ينظر إلى الصور التي تتحرك في شاشة التلفاز الصامت.

لا يدري لماذا كان دوماً يخطر له أنها عندما تحضر، سيكون خارج المكتب، وستتصل به هندرين، تزفّ إليه خبر مجيئها، وحتى

لو كان في المكتب، كانت ستدخل وتخبره، حتى يتهيأ ويستعد لاستقبالها، أما وقد ولجت على غفلة، وحتى هندرين لم تخبره، ولم تدخل معها، فقد أثار ذلك شيئاً من الريب في نفسه بأن ما هو فيه قد يكون كابوساً، أو أن المخيلة شطحت به قليلاً، فلم يتردد من مدّ سبابته إلى زرّ المنبّه، لتدخل سكرتيرته قائلة: امرني ماموستا جان.

حينئذ بات على يقين بأنه في واقع، وأنها بالفعل تجلس في مكتبه، فطلب إذذاك أن تقدّم شيئاً للضيفة.

أومأت السكرتيرة رأسها بالإيجاب، ثم تراجعت بها خطواتها إلى الخارج، وقد أعادت إحكام الباب.

أخذت تنظر إليه وهي تتفاجأ بما آلت إليه صحته، بدا أمامها مستسلماً للذبول واليأس.

لكنه من الطرف الآخر بدا يشعر بأن الحيوية أخذت تسري في عروقه، وبدأت مسامات وجهه تتفتح، يعتريه إحساس بأنه يستمتع بنظراته إليها.

دخلت السكرتيرة حاملة كأسين من عصير الرمان، وبعض الشوكولاه الفاخرة، لفت نظرها لحظتذاك أن الأستاذ بدأ في وضع

أفضل مما كان عليه وهو يتبادل الحديث مع ضيفته ورونق البشاشة يغمر محياه.

قامت بالضيافة، وانسحبت برفق، عندئذ قال لها دشتي: كيف تمضين وقتك الآن ؟

قالت: منذ ذلك اليوم وأنا مستمرة في البرنامج الذي وضعته لنفسي.

قال وكله رغبة كي يتعرف على شيء من تفاصيل حياتها: أي برنامج؟

قالت: عنايتي بولدَي تأخذ الصدارة من وقتي.

أحس كما لو أن صاعقة وقعت عليه بغتة.

امتدّت كفه إلى صدغه، وبدأ يضغط، بيد أن المرأة لبثت مستمرة: ثم أجد وقتاً أوليه لأبيهما، وأحياناً أخرج لأنقب عن معادن الناس.

في تلك اللحظة باغته إحساس بأنه يرتكب إثماً، فكيف يسمح لنفسه بالاستمرار في هذا الإثم وهو الذي عُرف في المجتمع بقوة ما يتمتع به من قيم وأخلاق.

لايدري كيف رأى نفسه منتصباً على قدميه، ثم دعا سكرتيرته كي تدخل وتشاركهما الجلوس.

بعد قليل، نهض بشكل مفاجئ، قائلاً بأنه مضطر للخروج حالاً.

* * *

دُهشت السكرتيرة، وكذلك لم تستطع الضيفة أن تخفي معالم دهشتها، بيد أنها لم تسمح لخيالها أن يستمرّ في المنحى السلبي، حتى فلحت في إقناع نفسها وأخذت الأمر بحسن نية، كما تفعل في سائر مواقف حياتها.

عندذاك شرعت تقول للسكرتيرة: كان الله في عونه، هاهو يلاحق التزاماته دون كللأ.

بعد نحو نصف ساعة من الجلوس، دعتها السكرتيرة إلى تناول وجبة الغداء، فقدّمت اعتذارها، لكن السكرتيرة قالت بأن ذلك سيكون مأخذاً عليها وعلى أستاذها، فكيف تركا ضيفة تنصرف في وقت الغداء، وهو سوف يعاتبها بشدّة إذا تركتها تنصرف دون ذلك.

عندما رأتها تلح في مطلبها، أبدت موافقتها، فنهضتا معاً، لدى دخولهما المطعم، سألها العامل عن الأستاذ لأنه على غير عادته، لم يحضر لتناول الغداء وقت تأخر الوقت، فقالت بأنه اضطر للخروج من المكتب.

عاد دشتي إلى البيت، وهو في حالة صراع حادة، لبث يقظاً دون أن يقربه نوم حتى صباح اليوم التالي، فاتجه إلى مقر عمله دون أن يحلق ذقنه، وقد مسح بقليل من الماء على وجهه، ارتدى ثيابه دون عناية.

بعد نحو ساعة من جلوسه في المكتب، دخلت إليه هندرين وأخبرته بأنها استضافت المرأة إلى وجبة الغداء، فشكرها على بادرتها مع ضيفته، وبعد قليل رأى دموعاً تترقرق في عينيها، فسألها عن السبب، عندئذ شرعت تخبره عمّا تعانيه تلك المرأة التي تحدّثت لها عن جانب من حياتها حيث كان زوجها مهندساً، وذات يوم وقع بينهما خلاف حاد أدى به إلى طلاقها تاركاً لها ولولديهما البيت، وبات يعيش في بيت بالأجرة.

بعد نحو شهرين من ذلك، سمعت بأنه سقط من بناء كان يعمل

فيه مما أدى إلى فقدانه للذاكرة، حينها لم تتردد من الذهاب مع ولدَيها لزيارته في المشفى، وبعد نحو شهر من علاجه، أذن الأطباء لأهله كي يخرجوه، لكنها طلبت منهم أن توليه عنايتها، وتأتي به إلى بيته ليعيش مع ولدَيه، فأذنوا لها بذلك وباتوا على زيارات دائمة له.

سنوات طويلة مضت على الحادثة، ولم تر المرأة ما يملأ وقتها المتبقي سوى أنها تنقّب عن معادن الناس، تبحث في هولير عن أناس مميزين، هؤلاء فقط الذين يخففون عنها شيئاً من وقع ما أصابها.

عندما سمع ذلك من سكرتيرته، استبدّ به إحساس بأنه لابد أن يراها ويقدّم اعتذاره الشديد إليها، إذ ذاك قالت له السكرتيرة بأنها أعطتها رقم هاتفها كي يتبادلا الحديث، وأخبرته بأنها لم تشعر بأي حرج من خروجه المباشر.

أجرى الرجل اتصالاً بها على الفور ودون أي تردد ،عبّر لها عن اعتذاره الشديد لِما بدر منه عندما كانت في زيارته، فقالت سورين بأن لاشيء البتة، وهو من حقه أن يمارس حياته وفق الطريقة التي يرتئيها، ويرتب أوقاته كما يشاء.

عندئذ طلب إليها أن تزوره كي يقدم لها اعتذاره عمّا بدر منه.

كان ذلك بمثابة إشارة قوية أثبتت لسورين بأن تقييمها للرجل هو تقييم صائب، فقد بلغتها رسالته جلية من هذا الاتصال، أوضحت ما هو عليه من نقاء، ولذلك لم ترد دعوته، وقبلتها قائلة: هذا شرف رفيع لي يا سيدي أن تدعوني بنفسك إلى زيارة كهذه، وأنا أزداد شرفاً بقبولي لدعوتك الكريمة.

بعد خمسة أيام كان اللقاء المرتقب في مكتبه، كل مَن في البيت، وكل مَن في الجريدة بدأ يلاحظ عودة الحيوية إلى الأستاذ، كأنه كان يعاني تحت وطأة ثقل جاثم على صدره، والآن انزاح عنه ذاك الثقل، وبدأ يسترد عافيته.

عندما دخلت إليه في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، رأت نفسها أمام تلك الإشراقة التي ألفته عليها، دخلت عليه بكامل أناقتها، أمضت نحو ساعتين وهي تستعد للقائه، عشرات المرات نظرت في المرآة، بدّلت ثيابها مرات عديدة، هيأت كل شيء كي تبقى محافظة على تفتح بشرتها.

في السابعة والنصف خرج ولداها ريوان، وديلمان إلى دوامهما

الدراسي، لبثت مستريحة في فراشها بعض الوقت ترتاح مما بذلته حتى أحضرت الفطار لهما، ثم نهضت برفق من الفراش، أمضت نحو نصف ساعة وهي تستحم بعلبة الشامبو المنعشة، ثم خرجت من الحمّام وقد لفّت جسدها ببشكير حريري كبير، مدّت سبابتها إلى جهاز اللابتوب، فامتلأ بيتها الأنيق بموسيقى هادئة، تناولت تفاحة حمراء كبيرة الحجم، ثم راحت تلقي جسدها في حضن الأريكة الناعمة تستلذ بتناول التفاحة.

عندما أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة والربع، خرجت بخطوات متمهلة متجهة إلى سيارتها وهي تشعر بأنها زهرة تتفتح.

جلست خلف المقود، وما لبث أن انبعثت أغنية من مسجل السيارة، حينها غدت تقود بمتعة فائقة كأنها تكتشف متعة قيادة السيارة لأول مرة.

توقفت عجلات السيارة بمحاذاة رصيف المبنى، وبعد قليل هبطت وغدت تمدّ خطوات نحو الداخل بلياقة كما لو أنها لاعبة كرة سلّة.

بدأت تنظر إليه وهي تصغي باهتمام لما يقول، تكتشف لمسات

جديدة من عذوبته، تزداد يقيناً أن الحياة ذاتها تبدو أكثر إشراقة بوجود أناس يتمتعون بتلك الدرجات المتقدمة من صفاء الروح الإنسانية.

تمتمت في سرّها: كردستاننا جميلة، لكنها تزداد جمالاً بوجود أناس يبدون كالصدف النادرة.

أدركت في تلك اللحظات أكثر من غيرها أن هؤلاء يجعلون من حبها لكردستان أمراً ممكناً، إذا ليس بوسع المرء أن يحب بقعة تخلو من مسك الإنسان الطيب، ولذلك يهجر الإنسان موطنه عندما يستشري فيه الفساد، وتتفاقم فيه النزاعات العدوانية، يهجره ويلجأ إلى موطن آخر، يتعلق به على قدر ما يتعلق بمجتمعه، هكذا تأكد لها بأن أبناء كردستان بطيبهم هم الذين يزرعون حب كردستان في قلوب زوّارها، وهم الذين يروون بذور حبها في نفوس بعضهم بعضاً.

قالت: ما لفت انتباهي يا أستاذ أنني لم أعثر على أبطالي سوى في قاع الأحياء الشعبية، عثرت عليهم بين بسطاء هولير.

قال: هذه مرحلة تحولية مضطربة نعيشها في الإقليم، نحن

لانقبل أن نكون إقليماً كما هي سائر الأقاليم التي تتبع للدول، وكذلك نتردد من إعلان الاستقلال، ورغم ذلك فإننا نمارس سلطة دولة مستقلة.

هذا الأمر لا يشعر به سواد شعب الإقليم بتلك الدرجات التي يعيشها يوماً بيوم مَن يديرون شؤون الإقليم، ولذلك بقي الناس على فطراتهم، على طيبهم، وعندما رأوا أنهم يعيشون في إقليم كردي، وهم يقنون بأنهم يعيشون في دولة كردية قائمة، دفعهم ذلك كي يبرزوا مزايا طيبهم وفطريتهم وطبيعتهم بشكل أكثر مما كانوا عليه، لكن الأمر يبدو مختلفاً في وجهه الآخر بالنسبة لأهل السياسة والإدارة، وأعتقد أنهم رأوا أنفسهم في مصيدة السيادة، أصبحوا ضحايا هذه الاستقلالية، إنني لا أخاف على الكرد من شيء قدر خوفي عليهم من ساستهم، ولا أخفيك بأنني كثيراً ما أشعر بالشفقة على بعض الذين ألتقيهم من أهل السياسة بشكل مستمر بسبب طبيعة عملي.

عندما يسألني شباب عن توجيهي لهم في حياتهم الجديد، أخبرهم أن يتجنّبوا ما أمكنهم الاقتراب من دوائر السياسة، لأن

تلك الدوائر دوماً هي محفوفة بالأوبئة الروحية، وهي المواضع الأنسب لإعداد أجيال من الساديين، والمازوخيين، والشيزوفرينيين، إنها تطفئ إشراقة الإنسان الطبيعي، وتجعله يتوه في حلكة من رياء.

أشفق بالذي يلجأ للعمل في تلك الدوائر لأنني أراه يلج منعرجات لا تثير غير الشفقة، لأنه سوف يلقى الإخفاق في سائر مقومات حياته الطبيعية، وعلاقاته الاجتماعية، ليلقى نفسه في هوةٍ حُرم فيها من أصدقاء حقيقيين، من حب طبيعي، من عفوية مشاعر أبوية، من سوية علاقة مسالمة مع نفسه، أجل عزيزتي، مجرّد العمل في تلك الدوائر المخنوقة تدرّب الإنسان كيف يتدرّج في مسالك اللؤم، مسالك الحنكة، مسالك الإبهام، وكلما تقدمت به السنوات، ترسّخ في حالات الاحتراف في هذه المزايا أسوة بأسياده.

إنهم يثيرون الشفقة وأنا أرى بعض السلوكيات التي تبدر منهم ليس مع الآخرين فحسب، بل مع أنفسهم أيضاً، وهذا ما يجعلني أستوعب طبيعة المرحلة ربما أكثر من غيري، وأعتقد أن استيعابي لهذه السلوكيات والتصرفات التي أراها مرحلية وربما لابد منها ونحن

نمضي قدماً نحو المستقبل الكردي، عملي في هذه الجريدة جعلني بالنسبة للجميع شخصية إعلامية وسطية وتوافقية، وهذا ما أغتنمه في الكثير من المواقف، فأسعى إلى ردم هوة ما ينشب بين بعض الأطراف والأحزاب السياسية.

باتت السياسة تبعث القيء في نفسي، حتى صرتُ أتجنّب النظر في وجوه أهلها الملتهبة بالشر، عندما يغدو المرء مزارعاً، فإنه في أسوأ الاحتمالات لدى حدوث خلاف بينه وبين مزارعين آخرين بسبب جودة الإنتاج، يلجأ إلى إلحاق الأذى المادي به، كذلك عندما يكون تاجراً، أو خيّاطاً، أو نجاراً، أو حلاّقاً يحاول أن يروّج لبضاعته، أو يخفض من قيمتها، أو يسعى إلى تحسين جودتها، وقد يبلغ مرحلة يتخاصم فيها مع منافسيه، لكنه عندما يصبح سياسياً، فإنه يُنزل أشد وأقسى ألوان العقاب على منافسيه، يتجرّد معها من قيمه الإنسانية السامية، ليشمّر عن ساعد الشر وهو يرتكب الفظائع بحقهم، عندما يعتقلهم، ويزجهم في السجون، إنه يتحوّل إلى كائن هستيري يبيح لنفسه ارتكاب كل الموبقات بحق معارضيه.

عندما يشتغل المرء في السياسة، فإنه أول ما يفعل هو أن ينزع

الرأفة من قلبه، وكل ما يراه، يفسره تفسيراً سياسياً محضاً، مثله كمثل المصاب بعقدة الجنس، فيجنح إلى تفسير كل ما يراه تفسيراً جنسياً.

حين يمضي في طريق، ويرى امرأة واقفة أمام بابها، فيتسرّب إليه شكُ بأنها تنتظر شخصاً ما، أو أن شخصاً ما يبادلها النظر، عندما تنظر إليه امرأة، فإنه يفسر نظرتها إليه تفسيراً جنسياً، بل حتى عندما تقع منه نظرة على امرأة في مكان ما عن طريق المصادفة، فإنه يعتقد أن تلك المرأة فسّرت نظرته إليها تفسيراً جنسياً.

لذلك أتحاشى حضور مناسبات تجمعني بأهل السياسة ما أمكنني، وإن اضطررتُ إلى ذلك، أتحاشى مصالحتهم، أو النظر إليهم، وأنا أتخيّل بأن كل أشكال التعذيب اللا أخلاقية، ابتكرها أهل السياسة، وأزلامهم، كل الانتهاكات بحق كرامة الإنسان، ابتدعها هؤلاء في زنازينهم، وأقبيتهم المظلمة، وهم يتفرّدون بمعارضيهم، ويتجرّدون معهم من كل خصلة تمت إلى الروح الإنسانية العالية.

قالت: إذن أنت على تفاؤل

قال: تفاؤلي لا ينبع مما أعقد عليه آمالاً على أهل السياسة، ولو فعلتُ ذلك، لما كنتُ على صواب، لكن تفاؤلي معقود على هؤلاء الذين تحدّثين عنهم، وقد استطعتي أن تستخرجي من أوساطهم أصدقاءك.

بالنسبة للكرد، هناك مسألة غاية في الأهمية، وفد تجلّت أمامي في إقليمنا بشكل أكثر وضوحاً بعد انتفاضة 1991

قالت: ماهي؟

قال: المجتمع الكردي هو الذي يصنع قادته وسياسييه، ولايسمح لهؤلاء أن يخترقوا قيمه المتوارثة، ومنظومته الاجتماعية، وهم أنفسهم يدركون هذه الحقيقة بشكل جيد.

هنا عزيزتي نضع أيدينا على مكامن قوة المجتمع، وكذلك مكامن قوة السلطة السياسية وهي تتخذ من عمق المجتمع الكردي مرجعية أساسية لها.

عندما تتحّول السلطة إلى قوة نفوذ، وتخترق بنية المجتمع التحتية، وتنتهك قيمه، تستبدّ بقوته، وشياً فشيئاً تنخر في هذه القوة، وتحدث فيها تشرذمات وانشقاقات بغية إضعافها والحدّ من سطوتها حتى

تنصب نفسها بديلاً، وعندذاك، عندما تتمكن من ذلك، تنظر للشعب بأنه تحت سن الرشد ويحتاج إليها كي توجهه، لأنه لو لم يكن كذلك، لما مكّنها منه بهذه السطوة، وهذا يجعلها تنصب من ذاتها وصياً عليه، فتختار له مَن يمثلونه، وعندذاك تنهار قوة المجتمع، ولا تكون ثمة قوة تنافس قوة السلطة في دولة يحكمها العسكر، ويتسلط فيها رجاله، فيتمادون حتى يبلغوا مراحل يرتعب فيها الناس من مجرد الحديث في بيوتهم خشية أن يبلغهم ما يقولوه، على هذا النحو يجعلون المجتمع في حالة تشتت وعدم الثقة ببعضه البعض، وكلما نالوا من مفصل جديد من مفاصل قوة المجتمع ،ازدادوا تمكناً منه.

لكن ما لم يحسب له هؤلاء حساباً هو أن هذه المجتمعات التي لا تستطيع أن تحمي نفسها من طغيان أنظمتها، فهي كذلك لن يكون بوسعها أن تحمي أنظمتها عندما تهب عليها ريح من الخارج، لذلك لم يسمح الكرد لسياسييه أن يتجاوزوا هذا الخط، وربما أيقن سياسيوه أيضاً أنه لن يكون بوسعهم أن يكونوا أقوياء، إلاّ إذا كان الشعب الكردي قوياً، ولن يكون بوسعهم أن يكونوا أغنياء، إلاّ إذا

كان الشعب الكردي غنياً.

هذه الحقيقة دفعت بعض أهل الحقد أن يوجهوا ضربة أليمة إلى مكمن هذه القوة التي يستند إليها الكرد في الإقليم.

قالت وهي تصغي بإنصات جم: تقصد مبنى البرلمان؟

قال: كانت رسالة بيّنة، ولذلك كان جواب الإقليم بيّناً كذلك على تلك الرسالة، فأصبح البرلمان بمثابة القلب الذي يضخ الدماء إلى شرايين عامة الشعب، تلك الرسالة التي تلقيناها، زادتنا ثقة بأن الإقليم يكون قوياً على قدر ما يتمتع به البرلمان من قوة، يكون غنياً على قدر ما يحتوي البرلمان من تنوع.

التفاؤل يا سيدتي هو الذي يكون مجدياً في واقع كهذا، هذا التفاؤل الذي يتكامل بمقدار ما يكنه بعضنا من الحب لبعض.

لا أستطيع أن أنسى منظر ذاك الرجل الذي دخل إلى مكتبي منذ نحو عشر سنوات، وشرح لي كيف أنه كان جندياً يقاتل الكرد مع بقية الجنود في هولير، وعندما سيطر الكرد على الإقليم واضطر الجيش للخروج، تم أسره مع أعداد كبيرة من الجنود، عندها رأى كيف أن الكرد أدخلوهم إلى المساجد، والبيوت ليحققوا لهم

الأمن، ولايسمحوا لأحد أن يوجهوا إليهم كلمة بذيئة، كانوا يطبخون لهم الطعام ويقدمونه لهم، وعندما هدأت الأمور، تركوهم يعودون إلى ديارهم في العراق وهم يقولون لهم بأن الأنظمة الجائرة ستذهب، ونبقى نحن الشعوب أخوة.

كان الرجل يبكي بحرقة وهو يتحدّث ويخبرني بأنه عاد مجدّدا لزيارة ابنه الذي يقيم مع زوجته وأولاده في الإقليم بحثاً عن أمن حققه الكرد بانتفاضتهم المليونية سنة 1991.

مانزال في بداية عهدنا في إدارة الدولة الحديثة يا سيدتي، وما يسندنا هو إقبال الكرد من كل الأنحاء كي يمنحوننا خبراتهم، ويستثمروا عقولهم في الإقليم.

كل الكرد يعملون بدأب من أجل كردستان، يعملون دون كلل أو ملل في سبيل كردستانهم، إنهم ينتشرون في كل بقاع العالم من مختلف إمكاناتهم وكل واحد منهم يسعى إلى تقديم وردة لكردستان.

صمت، ثم تسرّبت منه نظرة إلى ساعته وقال: إنه موعد الغداء جيانه كه م، ما رأيك أن نذهب إلى مطعم خارج الجريدة بهذه

المناسبة؟

قالت: الرأي ما تراه يا أستاذي؟

خرجا معاً، وعندما رأت السكرتيرة، راحت تودعها.

أمام الباب فوجئ بأن سيارتها تقف إلى جانب سيارته، فاقترح أن يتركا سيارة واقفة، ويذهبا بواحدة، وعندما وافقت، قال: لنصعد سيارتك.

ابتسمت وهي تقول وتفتح له الباب كي يصعد بجانبها: هذا شرف لي عزيزم، أن أقود سيارة تجلس أنت فيها بجواري.

قالتها ثم راحت تجلس على مقعد القيادة، وأدارت السيارة باتجاه المدينة.

قال: هل من مطعم تفضلين الذهاب إليه؟

قالت: بالنسبة لي، أنا سيدة بيتوتية، لا أتناول الطعام في المطاعم إلاّ نادراً.

قال: مادام الأمر كذلك، سنأخذ معنا الطعام ونتجه إلى طبيعة هولير.

قالت: ذلك أفضل من الجلوس في المطعم.

عندئذ طلب منها أن تتجه إلى أحد المطاعم، بعد قليل من الصمت قال: هولير جميلة في كل الأوقات، ثم استأنف وكأنه استدرك سؤالاً خطر له من قبل: هل تتبعين برنامجاً ينظّم لك الحياة سيدة سورين خان ؟

ضحكت قائلة: كل ما هنالك أنني أتحاشى الفوضى في قضاء الوقت، وهذا يجعلني أشعر بملئه دون أن ينتابني إحساس بالضجر، لكن دوما أترك وقتاً للفراغ حتى أتمكن فيه من إعادة ترتيب ما طرأ من تشتت، أو ما بدر مني من مواقف، أو ما اتخذت من قرارات.

يمتلك الإنسان مقدرة على ملء وقته حتى لو عاش في زنزانة.

على الدوام هناك ما يمكن للإنسان أن يقوم به، لكن يوجد إنسان يركن إلى التكاسل في البحث عمّا يقوم به.

عملية البحث هذه، وإن لم تعثرعلى الفعل، هي بذاتها اشتغال، لكنني بطبيعتي أركن إلى صفاء الهدوء، والاستمتاع بسماع موسيقى هادئة، وتناول كأس من شاينا الذي يتفوّح عطراً، ثم كأس من عصير التفاح، هذه ساعات ذهبية بالنسبة لي.

لبث في حالة إصغاء إليها، فأردفت تقول: في اعتقادي أن الإنسان يستمدّ شيئاً من توازنه أيضاً من ثنايا ساعات الاسترخاء الروحي والعضلي معاً، وهو مستلقٍ على ضفة سجادة صفاء النفس.

ساد صمت لم يدم طويلاً، ففضّت شفافيته مدندنة: القراءة تأخذ حصة جيدة من وقتي، استطعت من خلالها أن أعقد علاقات روحية معرفية مع علامات مضيئة في تاريخ المعرفة الإنسانية، استطاعت أن تنير جوانب مظلمة من نفسي.

توقفت أمام باب مطعم، فنزل على الفور، وأوصى على طعام، ثم عاد قائلاً بأنهما يحتاجان إلى نحو نصف ساعة حتى يكون الطعام جاهزاً.

هزّت رأسها، وبعد قليل من السكون الذي خيّم عليهما قالت: إن لم أكن مخطئة يا أستاذ أنت كنت منتسباً إلى حركة الأخوان المسلمين في كردستان.

التفت إليها مندهشاً وقال: يبدو بأنك تعرفين أموراً كثيرة عني.

قالت: معلومات لا بأس بها شكّلتها من خلال قراءتي لمقالاتك، وكذلك مما كتبه البعض عن مسيرتك الثقافية في إقليم

كردستان.

قال: كان ذلك منذ زمن بعيد، الذين قاموا بتأسيس فكرة إنشاء جماعة أخوانية كردية في إقليم كردستان، انطلقوا من قاعدة ضبط الشباب الكرد وتوجيههم بشكل صحيح لأن ذلك من شأنه أن يجنّبهم الشتات الفكري، والشتات السياسي، بذل المؤسسون قصارى جهدهم مخلصين لهذه الفكرة كي يحصنوا شباب الكرد من الميل إلى الغلو، هؤلاء عملوابإخلاص، وقد قدّموا منجزات اجتماعية وفكرية جيدة في تشكيل الوعي الإسلامي الكردي، ولم يكونوا لوحدهم فحسب، بل آزرتهم فعاليات وشخصيات كردية شتّى من منطلق التآزر في سبيل كردستان مستنيرة، لكنني فيما بعد، آثرتُ الانفصال عن الجماعة.

ساد صمت ليس بالطويل، فأردف يقول وهي تنظر إليه: بقيت الأمور تمضي حتى وقعت الجماعة في أعظم فخ نُصب لها خلال مسيرتها؟

قالت: تقصد في مصر؟

قال: عندما فاز مرشحهم، كان ذلك في حقيقته علامة كبرى

من علامات الوقوع في المصيدة.

كان الوقت مازال مبكراً لمرحلة قيادية كبرى كهذه بالنسبة للجماعة التي لم تكن قد هيأت نفسها جيداً لهذه الانعطافة الكبرى التي أتت بشكل مفاجئ نتيجة لظروف إقليمية مستجدّة، كانت الأمور في ذروة اضطرابها، وتحتاج إلى زمن كي تستقر قليلاً، حتى تغدو القيادة على بيّنة بعض الشيء.

أدرك الطرف الآخر هذه العلامات، فارتأى التجنّب وترك الساحة للإخوان كي يقودوا هذه المرحلة المضطربة التي ستعطي انطباعاً عاماً بعدم أهليتهم لقيادة البلاد قيادة سياسية، ويفضي بهم الأمر إلى تحمّل وزرها، ولو تأنّت الجماعة، وتركت تلك السنة للطرف الآخر، كان سيُمنى بما منيت به الجماعة، وإذ ذاك كانت كل الأصوات ستستجدي الجماعة كي تأتي وتقود البلاد خاصة وقد حصلت في الانتخابات على أصوات عالية، بيد أنها رأت أن تنسحب بحكمة حتى تجنّب البلاد والعباد عراكاً لا أحد يمكن أن يضع تكهناً بما سيؤول إليه.

مضت الجماعة بكثير من الاندفاع والتسرع لتلقي الطعم،

فأعلنت بأنها إن لم تفز، ستخرج إلى الشوارع.

هنا انسحب الطرف الآخر الذي كان يتقاسم مع الجماعة تقارباً في تلك النسبة المرتفعة من الأصوات، وهو يدرك بأنها ستمهّد له الطريق، وتمهّد له الزمن كي يعود أكثر قوة بعد أن تصبح الجماعة وهي تخوض غمار قيادة أكثر المراحل اضطراباً وشتاتاً عرضة للفشل، وما جعل الأمور أكثر تفاقماً أن الاختيار على شخص قائد المرحلة، كان اختياراً مدروساً من الجماعة حتى تتمكن من بسط نفوذها إلى مفاصل الدولة من خلال رجل طيب يمتاز بالبساطة، كان يمكن له أن يكون مدرّساً ناجحاً لمادة التربية الاجتماعية في إحدى المدارس الابتدائية.

لبث هذا الرجل واجهة للجماعة التي استمرّت في عمليات الإقصاء، وكيل التهم لكبار الشخصيات السياسية، والإعلامية، والثقافية، والاقتصادية، وتوقيف شخصيات مختلفة وزجها في السجون، وصرف الكثيرين من مناصبهم وقد أشاعت فيهم مصطلح /الفلول/ هذا المصطلح الذي ألّب على الجماعة ردّات فعل شعبية واسعة، وبين ليلة وضحاها رأت هذه النسبة المرتفعة من

أصوات الطرف الآخر نفسها في دائرة اتهام وأنها باتت توصَم بالفلول، فكان من الطبيعي أن تقاوم تهمة كهذه خاصة أنها ما تزال تدير الجانب الأكبر من المؤسسات، وتوقيف شخص هو إشارة جلية لتوقيف آخر.

كانت الجماعة بحاجة إلى عمل قيادي جماعي معهم من أجل تقاسم ما ينجم عن مسؤولية لدى إظهار مواضع المؤاخذات، بيد أنها رأت تفرّدها بالقيادة والإقصاء، والتعيينات الإخوانية الجديدة في مختلف مفاصل الدولة.

عندما بدأ العدّ التنازلي في رصيد الجماعة، بث ذلك المزيد من القوة في الطرف الآخر، ولبث الإعلام مدافعاً عن نفسه من جهة، ومخلصاً له من جهة أخرى، فأظهر الرجل لدى تسلّم الكرسي بتلك المقاطع التي تشير إلى مساحة الكفاءة التي تفصل بينه وبين هذا الكرسي في إدارة دولة كبيرة وعريقة وتعددية كهذه.

ثم تداعت اللقطات في إظهار رجل عجوز قاد البلاد سنوات طويلة، وهو مستلق على سرير المرض، يأتوا به في مشاهد لا تمت إلى روح الإسلام الذي يقضي أن يتماثل هذا الرجل للشفاء، ثم يأتي

إلى جلسات المحاكمة.

كان ذلك بمثابة فرصة ذهبية للإخوان في إعلان العفو عن رجل كهذا، وقد شهدت ولايته الكثير من مواقف التسامح والعفو واللين مع قيادات الأخوان، ولكنهم عندما تمكنوا من الحكم كانوا أشدّ قسوة عليه حتى من خلال عباراتهم القاسية بحقه وهو رهن المرض، والشيخوخة، والسجن.

كانت بادرة العفو عن الرجل من شأنها أن تُسجَّل للجماعة، بدل أن يُسجلها الطرف الآخر لنفسه وهو يقدم عليها.

ثم استأنف كلامه بمرارة وهو يتنهد قائلاً: أقول هذا الكلام وأنا كنت من كوادر الأخوان في هذه البقعة الكردية من العالم، وتتبّعتُ ما يدور، لكن سحر قيادة البلاد جعلهم لا يلتفتون إلى صوت الحكمة والتأني، ويؤثروا الكرسي على كل شيء، حيث لايعلو صوت على صوت الظفر بهذا الكرسي، كما لو أنها فرصة سانحة لاتُعوّض.

أجل عزيزتي، كانت جماعتنا أمام فرصة ذهبية نادرة لحكم طويل الأمد لو لم تذعن لنزعات سلطوية بدأت تتفاعل في كوامنها،

كانت هناك عقول كبيرة في الجماعة يمكنها أن تتولى إدارة الأمر بكثير من النضج والحكمة والخبرة المتراكمة، حتى لو قررت الجماعة القيادة في تلك السنة المضطربة الأولى، وكان بوسع تلك العقول أن تقدم شيئاً مجدياً لجماعتها من جهة، ولسائر البلاد والعباد من جهة أخرى، بيد أن تلك العقول كانت ستعمل وفق ما تتمتع به من روح الحكمة، وقوة الشخصية، والامتلاء بالحياة والتجربة، وبُعد النظر، في منهج توافقي، غير راضخة لأي أوامر تتلقاها من زعماء الجماعة.

كان بوسع هذه الشخصية أن تستعين بكل تلك الطاقات والمهارات وتجعلها شريكة في المسؤولية، وعند ذاك كان الجميع سيفعل ما باستطاعته من أجل استمرار العهد الجديد التوافقي الذي تمخّض عن الثورة.

هكذا انتهى الرجل المغلوب على أمره بأن تسبب دون قصد بإلحاق أكبر هزيمة، وأكبر أذى بمؤسسة الجماعة التي تلقت الضربة من أهليها تارة، ومن الطرف الآخر تارة أخرى.

بدأتُ أراقب الأمر من هولير، وأنا أشهد بألم أن ما ألحقه الأخوان بأنفسهم من ويل فاق بكثير ما ألحقه خصوم الأخوان

بهم على مدى تاريخ المؤسسة الإخوانية.

قالت: قرأت لك مقالاً تقول فيه: تمتاز كواليس السياسة دون غيرها بفيض التهابات الازدواجية، كلما هوى مديرها في حلكة براثنها، بدا لمعاونيه مصيباً كبد الظفر، وإذ لمسوا منه جنوحاً إلى عذوبة النقاء الإنساني، بدا لهم بأنه أخفق في وظيفته.

مع تراكم خبرة السنوات، يتحوّل المدير إلى ممثل بارع، يمضي جل أوقاته في ديمومة تمثيل حتى يغدو التمثيل نصب عينيه حقيقة، وتمسي الحقيقة تمثيلاً.

نظر إليها وللتو أدرك كم أنها تتابع قراءة مقالاته بجدّية، فقال: لم أكن أعلم أن إعجابك بمقالاتي يجعلك تحفظين هذه الكتابات.

قالت: بعض المقالات أعيد قراءتها مرات عديدة حتى أحفظها، وهذا يتيح لي كي أتعمّق فيها أكثر، لأن كل قراءة تكشف لي ما لم تكشفه القراءة السابقة، لذلك أقوم بقص أعمدتك، وألصقها على دفتر كبير، أعود إلى قراءتها في أوقات مختلفة.

أذكر بأنك قلت في تلك المقالة أيضاً يا أستاذ عن ذاك الشخص بأنه عند ذاك يرى كل فعل أمامه مبرراً، حتى وهو يشرع

بنفسه في تصفية الآخرين، أو يقدم على إصدار تلك الأوامر.

كل مهنة يمتهنها المرء، في ألق توهجها تودي به إلى روح التنافس، بيد أن السياسة في ألق توهجها تودي إلى مزيد من الانتهاكات بحق الآخرين حتى يغدو السياسي البارع، منتهكاً بارعاً بامتياز.

لذلك يمكن أن تنتهي تلك المهن بأصحابها في ذروة الإخفاق إلى الإفلاس، لكن السياسة على الأغلب تتوّج أصحابها بما توجوه للآخرين.

قال: إنها مهنة التشويه يا عزيزتي، حتى الذين يتقرّبون من هؤلاء، أو يعملون معهم، لا ينجون من هذا التشويه، فلا يغدو بوسعهم أن يكونوا طبيعيين ليس مع الآخرين فحسب، بل حتى مع أنفسهم.

ثم استأنف يقول: إذا نظرتي إلى ما يحدث في بلاد المسلمين، يمكنك أن تلمسي الخيط الممتد بينها وبين أحداث سبتمبر، وبذلك يمكنني أن أقول لك أن المسلمين مايزالون حتى الآن يدفعون ضريبة أحداث سبتمبر.

إذن، الآن لم يعد أحد يكيل كل تلك التهم لأمريكا، أو لإسرائيل بأنهما يشكلان العداوة المشتركة لأمة العرب والمسلمين، بل من منجزات هذه الثورات بالنسبة لإسرائيل أنه تبيّن للكثيرين بأن إسرائيل هي أكثر رحمة مما يفعله حكّام المسلمين بشعوبهم، ومن منجزاتها أن المسلمين باتوا يستجدون أمريكا كي تأتي وتخلّصهم من جور حكامهم.

تقدّم عامل من المطعم إلى السيارة وهو يحمل الطعام، ففتح له الباب الخلفي ليضعه، ثم انطلقا إلى ركن هادئ من طبيعة هولير.

* * *

عندما فاحت رائحة الطعام في السيارة، قالت: طعام البيت بالنسبة لي هو الأفضل، لكن من باب التغيير أحياناً ألجأ إلى المطاعم.

بدأت تقود وهي تنظر أمامها قائلة: مطبخنا الكردي العريق يتمتع بكل أسباب الصحة واللياقة، وكأنه أتى بشكل مدروس متكامل:

برنج شير، كولاي، كشك، ترخينة، نيسك، كولندي، كيشكه لي، زرنجك.

قال: هذه هي ضريبة الحياة المدنية عزيزتي.

قالت: طبيعة إيقاع الحياة المدنية المتسرعة، حرمتنا ألوانا كثيرة من مأكولاتنا الكردية التقليدية، لكنني أحرص ألاّ أنقطع عنها.

اكتشفتُ أن الحياة مع تلك التقاليد، تعزز حالة الصبر، هذا النمط يعلّمً الإنسان ويدرّبه على الصبر بشكل تلقائي.

كانت صناعة أكلة /الدونية/ تحتاج إلى مراحل، يتعلم فيها الناس كيف يتدرجوا في الصبر حتى يؤتى طعامهم أُكله.

كان القمح يُنقع لعدة أيام، بعد ذلك يتم فرشه في الهواء حتى يجف، ثم يقومون بجرشه، عندها يقومون بصناعة الرائب الذي يؤخَذ منه الزبد بواسطة المطارة المصنوعة من جلد الحيوان، بعد ذلك يضيفون هذا الرائب إلى الجريش في طنجرة كبيرة، وبعد مزجهما جيداً، يقومون بغلي الخليط.

قال: والله هذه عملية تُدرّب على الصبر.

قالت: إنها فرصة كي يتعاون الجميع في صناعتها، نساءً ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً، كل واحد توكل إليه مهمة في هذه الأطعمة.

ثم استأنفت تقول: بعد أن يتم الغلي، يضعون هذا المزيج تحت الشمس حتى يتعرض للجفاف ويأخذ شكل المعحون.

هنا تأتي مرحلة تحويل هذا المعجون إلى كرات صغيرة تُفرش بشكل جيد حتى تتخلص من الرطوبة، وتزداد صلابة، بعد ذلك يتم خزنها في صناديق خشبية تقيها التعفن.

ابتسمت قليلاً، ثم أردفت: بعد كل هذه المراحل، لا يتناولون نتيجة جهدهم هذا بشكل فوري، إذ يتم خزنه حتى الشتاء، حينها يضعون مقدار الوجبة من هذه الكرات في ماء ساخن حتى تطرى قليلاً، ثم يقومون بغليها حتى تتحول إلى حساء، عندئذ يضيفون إلى هذا الحساء الملح والتوابل والبصل المقلي بالسمن، ويتم تناولها كوجبة غذائية تصلح سواء للفطار، أو الغداء، أو العشاء.

من أجل صناعة وجبة الـ/كتلك/، كانت تقوم بجرش الرز والبرغل، ثم تنقع المجروش عدة ساعات، بعد ذلك تمزجه باللحم المفروم، وتضع الخليط في الهاون النحاسي، تدقه حتى يتمازج مع بعضه بشكل جيد، ثم تعجنه لتصنع به غلاف وجبة الـ/كتلك/.

تدع ذلك جانباً، ثم تبدأ في تحضير الحشوة التي تتكوّن من لحم تقوم بفرمه على شكل حبة الحمص، ثم تقوم بقلي البصل، تضيف

إليه اللحم، تحمّصه قليلا مع البصل، ثم تضيف الملح، والتوابل، واللوز المقشر، والحامض، والكراوس، والثوم، والكشمش. بعد قلي هذا المزيج، يصبح جاهزاً، فتحشو به الوجبة، ثم تغلي حبات الكٌلك وتقدّمه وجبة في اليوم الذي تقرر فيه هذه الوجبة لأهل بيتها، أو لضيوف.

أكلة /الكشك/، كانت تصنعها بجهد أقل من ذلك، قبل كل شيء تقوم بتجفيف اللبن الرائب تحت أشعة الشمس، حتى يتماسك، ثم بعصره وجعله على شكل أصابع، بعد ذلك تقدمه على شكل حساء، يمكن أن يُفرد فيه الخبز، أو يُقلى بالزيت مع البيض والبصل.

حتى عندما يذهب الفلاح إلى حقله، لم تدعه المرأة دون أن يأخذ شيئاً معه ليأكله، فكانت تصنع له /دورك/ وهي تقوم بصناعة رقائق الخبز الخاص بذلك، ثم تمزج الطحينة بالدبس، وتلف به خبز الدورك عدة لفات، فيكون جاهزاً للاستخدام في أي وقت.

كانت المرأة الكردية تجد وقتاً كافياً إلى جانب ذلك لتصنع أصناف الحلويات، مثل الكليجة، ويتريجوك، والبورك.

من أجل تقديم طبق من السجق، كانت تأتي بقوالب أنبوبية طويلة، تدس فيها لب الجوز، وتضغطها جيداً، بعد ذلك تغمسها بالدبس، وتعرضها لأشعة الشمس حتى تجف، وتقدمها كطبق شهي من الحلويات.

رأى دشتي نفسه أمام فرصة جديدة يكتشف فيها ملامح شخصيتها، فقال: لكن مالذي يجعلك تكتشفين أبطالك في الحياة، ألا يمكن أن يتزيّا البعض بثياب الأبطال، وقد تكتشفي، أولا تكتشفي بأنك إزاء الظواهر، لا الجواهر.

قالت: أعوّل - حياتم - في هذه المسألة على الحدس بشكل جيد، لأنه يمكن أن يقدّم لي كثيراً مما هوهام.

ركنت إلى قليل من الصمت، ثم شرعت تقول وهي تستأنف قيادة السيارة على مهل: لايصيب الإنسان كثيراً في موارة علامات الرياء التي تكون أعلى مما أوتي من طاقات لمواراتها، مهما أوتي من ذكاء، وحنكة، لأنها تبدو جلية في مواقفه، في نبرات صوته، في نظراته، في قسمات وجهه، لكن الذي يكون على تواضع في ملكة إمكانية النفاذ إلى رؤية هذه العلامات، هو الذي يصيبه أكبر قدر

من الخداع.

عندما جلسا في ركن من طبيعة هولير الخلاّبة وشرعا في تناول الطعام قال: إذن هناك ما يلفت نظرك من مزايا في هؤلاء الأشخاص.

قالت وهي تهزّ رأسها: هكذا هي المعادلة التي يمكن قلبها أيضاً يا أستاذي، فنصبح أمام أن المرء لا يملك ملكات تمكّنه كي يواري علامات خصاله الحميدة مهما سعى إلى حجبها.

ثم أردفت وهي تصبّ كأسين من اللبن الرائب: المتعة هنا لا تتحقق بقدر ما يقدّم لك هذا الشخص خصاله الحميدة، بل بمقدار ما تتمكن أنت من اكتشاف هذه الخصال فيه واستنتاجها من صميم علاقتك به.

كما أن الشعور بمتعة الاكتشاف، لايتحقق عندما يقدّم الآخر نفسه لك بأنه مخادع، بل بقدر ما تتمكن أنت من استخلاص هذا الخداع من مقومات شديدة الغموض، لأن المخادع الذكي دوماً يجنح خلف حركات مبهمة، ويتقصد مواقف غامضة ومتناقضة حتى يجنّب عن شخصيته معالم الوضوح ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

قال: ما أكثر ما يلفت نظرك في الأشخاص يا سيدتي؟

قالت: الصدق

قال: ثم؟

قالت: الأمانـــة

قال: ثم؟

قالت: الكرم

قال: ثم؟

قالت: الوضوح

قال: ثم؟

قالت: خصلة كظم الغيظ التي هي مزيج من مسك شجرة الحكمة، وأريج زهرة الصبر.

راوده إحساس بأنه أمام امرأة يتعلّم منها رغم أنها تصغره بثلاثين سنة، وخبرتها في الحياة لا تتجاوز خبرته، فزاد ذلك لديه من اليقين بأن لا سبيل إلى معرفة الإنسان سوى الإنسان، وهو خير دليل إلى معرفة الإنسان.

إذ ذاك: همهم في سرّه وهو ينظر إليها نظرات إعجاب: لا يكتفي

الإنسان أن يعرّفني على نفسه فقط، أو يعرّفني على الآخرين، بل يتجاوز ذلك كي يعرّفني على ما كنتُ أجهله عن نفسي أيضاً.

لبث يصوّب نظره إليها ويخال له أنها مرآة ينظر فيها إلى ما لم يسبق له أن رآه في نفسه. آنئذ لم يملك نفسه من مساءلتها: لكن ياسيدتي، ما هي الخصال السلبية التي تلفت نظرك في الأشخاص؟

قالت وهي تلتفت إليه وتحدّجه بنظرة سريعة: الزنا، ثم بعد قليل من الصمت أردفت: خاصة عندما يكون بين رجل متأهل، وامرأة متأهلة.

ذلك لايلفت نظري فحسب، بل يُشعرني بحالة من الغثيان مما اقترفه هذان الشخصان، وقد خرجا من منظومتهما الأخلاقية، والقيمية، والإنسانية في ذات اللحظة التي أقدما فيها على فعلهما الشائن ذاك، هذا الخروج فحسب، يتيح لهما مزية تجاهل أن ما قاما به إنما هو اعتداء وانتهاك لحرمات عائلتين قائمتين، إنه انتهاك لحرمات أطفال صغار يقولان له: أبي.

ويقولان لها: أمي.

إنه عمل غير محترم يبدر من زوج تجاه زوجته، ومن زوجة تجاه

زوجها.

الرجل الذي يحترم امرأة أو يبدر نحوها مشاعر الاستلطاف والتقدير، يتردد من الإقدام على فعل كهذا بحقها قبل أن يُسقطها أولاً في عينيه من منظومتها الأخلاقية والقيمية والإنسانية، وكذلك يُسقطها في نظر نفسها، وفي أنظار الآخرين إليها حتى لو لم يكتشفوا فعلها، بيد أنها تقرأ هذه الإدانة من خلال نظراتهم إليها، ومن خلال علاقتهم بها.

إنهما بفعلهما هذا يزلزلان أركان بيتين، ويزرعان بذرة العداوة والبغضاء بين عائلتين متحابتين.

لذلك أنظر إلى هذا الفعل بأنه ممارسة عملية لذروة مشاعر العدوانية الإنسانية، والحقد البشري الذي يبدر من البعض تجاه بعض آخر.

قال: ثم ؟

قالت: الكذب، لأنه يطفئ في الإنسان منارته الإنسانية

قال: ثم ؟

قالت: البخل، لأن لاشيء يبرره سوى تفاقم نزعة الأنانية

قال: ثم؟

قالت: النفاق، لأنه يجعل الإنسان مزدوجاً، ويحرمه من صفائه الذاتي.

* * *

عندما عادت إلى البيت، كانت الساعة تشارف على الثانية والنصف، توقعت أن الجميع في حالة القيلولة، لذلك لم ترنّ الجرس، بل أخرجت مفتاح الباب من حقيبتها، وفتحته لتدخل إلى البيت الغارق في هيبة صمت.

اندفعت على الفور إلى غرفة ابنيها ريوان، وديلمان، فرأتهما يستلقيان على سريريهما وقد غفيا، ثم راحت صوب غرفته، مدّت كفها إلى قبضة الباب، وأدارتها، فألفته نائماً على سريره بعينيه المفتوحتين قليلاً، حيث اعتادت على رؤية عينيه على ذلك وهو نائم، ثم راحت صوب غرفة الخادمة، فرأتها مستلقية على سريرها.

راودها إحساس بأنها تفقدتْ كل مَن في البيت، واطمأنت

عليهم، آنئذ راحت تلج حجرة نومها، وتستسلم لغفوة القيلولة باسترخاء.

عندما بلغت الساعة الخامسة، استفاقت على صوت الخادمة التي تمتمت: صح النوم سيدتي.

شكراً لك يا روزة. قالتها وهي تمطط تحت البطانية في دفء فراشها.

هل تشربين الشاي لوحدك هنا، أم ستجلسون معاً؟

قالتها وهي تدرك أن سيدتها أحياناً تصدر لها أوامرها كي تذهب وتيقظ مَن في البيت، حتى يستمتعوا بهذا الطقس معاً، وفي بعض الأحيان، تطلب منها أن تستمتع بمفردها باحتساء كأس كبيرة من الشاي مع قطعة كاتو، مع سماع الموسيقى من جهاز اللابتوب.

حينها تأخذ إلى كل شخص كأس شايه، وتقول بأن سيدتها موجودة في حجرتها.

عندما أخبرتها بأنهم سيجلسون معاً لاحتساء الشاي، فرحت الخادمة بسماع ذلك لأنها فرصة بالنسبة لها كي تشاركهم الجلوس

وينتابها إحساس بأنها باتت جزءاً من هذه العائلة التي أحبتها وتعلقت بها، وهي تداوم على عملها في خدمتهم منذ عشر سنوات متواصلة.

عندما بلغت صالون الجلوس، رأت ابنيها يتقدمان إليها ويقبلان يدها، قبّلتهما ثم أشارت للخادمة أن تذهب إلى غرفة (نورس) وتأتي به، فسارعت انحطا إليه، وبعد قليل عادت ما سكة بيده، عندذاك نهض الجميع، حتى أجلسته في موضعه على الكنبة، واتجهت إثر ذلك إلى المطبخ، أحضرت إبريق الشاي، وقالب الكاتو، وشرعت في صب كاسات الشاي الكبيرة، وشطر الكاتو بالسكّين وتقديمه في صحون صغيرة، عندئذ تلقت إيماءة من سيدتها كي تشاركهم الجلوس.

بعد نحو ساعة، راحت تصنع لهم أكواباً من عصير البرتقال، وتقدمه مع صحون صغيرة من /الجرزات/ المكوّنة من فستق عجمي، وبندق، ولوز.

حين فرغوا من ذلك، قامت روزة بأخذ نورس إلى غرفته بعد أن تلقت إشارة من سيدتها، ثم اتجه الشابان إلى غرفتهما للدراسة،

في حين لبثت السيدة في الصالون وقد استلقت على الكنبة، وراحت تقلّب القنوات الفضائية.

عندذاك، دخلت روزة المطبخ وبدأت تعدّ العشاء، ثم ما لبثت أن ارتدت ثياب الخروج واستأذنت سيدتها بالانصراف قائلة: العشاء جاهز في الأطباق يا سيدتي، هل تأذني لي بالانصراف.

طلبت إليها أن تكسر لها حبة جوز الهند، وتقدم لها كاساً من مائه، فمالبثت المرأة أن قامت بما أمرتها سيدتها، وبعد أن وضعت الكأس مع صحن صغير من شرائح جوز الهند الناصعة البياض على الطاولة أمامها، طلبت الإذن بالانصراف.

هزّت رأسها قائلة: تفضلي ياروزة.

بعد قليل تناولت المرأة ديواناً من شعر جلال الدين الرومي وشرعت تقرأ فيه مستمتعة برشفات من ماء جوز الهند وتناول بعض شرائحه، حتى بلغ موعد تناول العشاء.

حينها نهضت من مجلسها، ودخلت المطبخ، أعدّت مائدة العشاء، ثم راحت تنادي ابنها، ومن هناك ولجت إلى غرفته، رأته مستلقياً على السرير يلفه صمت، عندما وقعت نظراته عليها، بدأ يتمتم

ويضحك دون أن يتمكّن من لفظ كلمة واحدة، لا تدري لماذا أحسّت برغبة جامحة كي تطبع قبلة على ظاهر كفه.

اغرورقت عيناها بالدموع، فأخذت كفه براحة كفها، وطبعت قبلتها، ثم رفعت الكف إلى جبهتها، وأتت به إلى المطبخ حيث مائدة الطعام.

عندما وقعت أنظار الصبيين على أبيهما، هبّا واقفَين حتى أجلسته على كرسيه.

قشّرت له بيضة، وأخذت تطعمه وهي تتخيّل أنه كان يحب العسل واللبن، ويتجنّب صفار البيض، تقلّد ما كان يفعله عندما كان يتناول الطعام بنفسه، تحاول أن تجعله متواصلاً مع الطقوس التي كان يمارسها.

في الصباح عندما تأتي روزة، تيقظه، وتغسل له يديه ووجهه، تحلق ذقنه كل يومين، ثم تدخلانه معاً الحمّام في الصيف كل يوم، وفي الشتاء كل يومين.

عندما يكون الدجاج على مائدة الغداء، تقطع له شريحة كبيرة من الصدر، وتضعها في طبق أمامه وهي تتذكر أنه كان يفضل

تناول صدر الدجاج، بعد ذلك تقشر له الفاكهة وتقدمها له، ثم تجعل الخادمة تأخذه إلى غرفته كي يستريح قليلاً بعد تناول الغداء.

تحرص أن تأخذه إلى الحدائق، إلى النزهات، إلى أماكن كانوا يتناولون فيها الطعام في أوقات متقطعة.

انتبهت بغتة بأن ريوان، وديلمان، لايأكلان وهما ينظران إلى شرودها.

استدركت الأمر، ماسحة دموعها وشرعت تتناول لقمة، وتضع لقمة في فيه.

عندئذ بدأ ينتابها ذات الشعور الذي أحسّت به بالأمومة نحوه لأول مرة منذ نحو عشر سنوات عندما أحضرته من المشفى إلى البيت، وبعد نحو شهرين من وجوده بينما كان جالساً مع ابنَيه، أتت من الخلف والتبس عليها التمييز بينه وبينهما، فاضطرت أن تأتي قبالتهم كي تميزه عنهما، عند ذاك قفز شعور مباغت بالأمومة نحوه إلى صدرها وهي تحدّق ملياً في ذاك الشبه الكبير بين فلذتَي كبدها وبينه، ولم يلفت نظرها آنذاك شبه البشرة فحسب، بل شبه الأعضاء، ونبرات الصوت، وحتى تسريحة الشعر.

في تلك اللحظات لا تدري لماذا راحت تقلّب ألبومات الصور القديمة حتى وقعت على صور له عندما كان شاباً، وجرت بها قائلة لهما: بربكما ألا تشبهانه كثيراً عندما كان شاباً.

تناول الصبيان الصور وراحا يقارنان بينها وبين ملامحهما، ثم يقعان بالقبلات على أبيهما الذي مافتئ يتمتم ويحرّك ساعدَيه ويضحك دون أن يعينه لسانه كي ينطق بكلمة واحدة، أو تسعفه ذاكرته كي يدرك بأنه عندما كان يجلس مع ابنيَه، كان يحتضنهما، يقبّلهما، وهو الذي اعتاد على تقبيلهما بكثرة.

هاهو عقد من الزمن يمضي، وحتى في مناسبات الأعياد لا يحظيان منه بقبلة واحدة، وهما يقعان بالقبلات على وجهه ويدَيه، لكنهما يرضيان نفسيهما، وهما يلصقان خدّيهما بفمه ويقولان: هذه قبلة من أبينا.

تستغرق مرة أخرى في شرودها، وهي تمتلئ شعوراً بالأمومة نحوه، عندما اتخذت قرارها الجازم بحضوره إلى البيت، بدأت للتو تكتشف قوة علاقة المرأة بزوجها، تكتشف مزايا ما يمثله الرجل الزوج وما يتفرّد به دون غيره بالنسبة لزوجته.

إنه لوحده دون غيره يتمتع بكل ما يمكن للزوجة أن تحتاجه في الرجل، مزايا الأب، مزايا الأخ، مزايا الأبناء، مزايا الأقرباء.

يمتلك أن يجمع في نفسه كل المزايا، لذلك تتخذ المرأة قرارها التاريخي بأن تتخلى عن الجميع، وتذهب لتعيش معه في أي بقعة يكون فيها حتى لو أقامت معه في خيمة بمعزل عن العالم برمته، ولم يرزقها الله منه بأبناء.

في تلك اللحظات الرهيبة التي بلغها نبأ سقوطه من البناء الذي كان يشرف على مخططه الهندسي، هرعت فاقدة صوابها حتى بلغت المشفى وهي تتخيّل لأول مرة بأنه حتى وإن طلّقها، بيد أنها كانت تأنس بوجوده في المدينة على مقربة منها، وأنها في أي وقت يمكن لها أن تستدعيه، أو تذهب لرؤيته، لكن الآن وقد وقع الحادث الأليم، انتابها إحساس عميق بقوة الخسارة التي لا تجاريها خسارة، لذلك انبثق اتخاذ القرار فور رؤيتها له، ويقينها أنه مازال على قيد الحياة، اتخذت بينها وبين نفسها عهداً بأنها لن تتخلى عنه تحت أي ظرف، إنه الرجل الأوحد في حياتها الذي لا مثيل له، ولا يمكن لأي رجل بعده أن يرتقي إلى منزلته في نظرها وفي مشاعرها.

هكذا رأت نفسها تتحدى حتى قرار أخيها /سوران/ الذي تذرّع تحت حجة الدين بأن ذلك لا يجوز من منطلق ديني، كونه قام بتطليقها، وهو الآن غريب عنها، ولا يجوز له أن يعيش معها في بيت واحد، عند ذاك واجهته بفتوى من أحد فقهاء هولير المستنيرين الذي جاء إلى الطبيب قبل أن يصدر فتواه، فأخبره الطبيب بأن هذا الرجل قد فقد ذاكرته، وأنه يرى، بيد أنه لا يميّز وجهاً عن آخر، وسمعه جيد، لكن ذاكرته غير قادرة على استيعاب الكلمات التي يسمعها وهي تصله بشكل متداخل كما لو أنها دندنات، وليس بمقدوره أن ينطق كلمة لأن ذاكرته تفشل في صياغة الحروف وتحويلها إلى كلمات للنطق بها، كما أن قدراته الجنسية مصابة بالعطب.

ثم وجّه كلامه إليها قائلاً: لذلك أنصحك يا سيدتي ألاّ تدعي النوافذ دون أشباك حديدية لأنه مثل الطفل الذي يتعلم المشي للتو، يمكن له أن يرمي نفسه من أي نافذة مفتوحة، كما أنصحك أن تستخدمي له الحافظات لأنه لايميّز بين الأماكن، ولايميز ماتبدر منه من أفعال.

ثم أردف يقول: إن كانت إمكاناتكم المادية جيدة، أرى أن تستعيني بامرأة تقوم على خدمته وتكون عوناً لك.

عندها أصدر الفقيه فتواه بأن الحكم على رجل كهذا هو كالحكم على طفل صغير، ولا حرج إن عاش مع مطلقته وطفلّيه منها في بيت واحد كي تقوم برعايته، فلم يملك سوران إزاء ذلك غير أن يذعن لفتوى الفقيه.

مسحت دموعها كرة أخرى، وشرعت تضع لقمة في فمه، ثم لقمة في فمها، وعندما فرغت، أمسكت بيده، أجلسته في الصالون، وما لبث الصبيان أن جاءا يستمتعان بالجلوس مع أبويهما.

الفصل السابع
مهاجرون وأنصار

يتجاوز الزمن عامه الثالث والنصف من هَول المأساة التي لم تدع شيئاً من إنسان ونبات وجماد، إلاّ طالته.

للتو أدرك الناس بأن الأمر ليس كما توقعوا، وأنهم ضحية حسابات سياسية، وقد تحولوا إلى أوراق مساومة بأيدي الدول التي تملك مقدرة إيقاف هذه الحرب، بيد أنها لاتقدم على ذلك، وحتى لا تنطفئ النيران ويلوي النظام ذراع الثورة ويلقيها أرضاً، ويجهضها، فإن هناك مَن يمدّها بما يكفل لها استمرار المواجهة المسلحة.

بلغت النظام إشارة قوية بأن هؤلاء الذين يطالبون بكرسيه، لاشيء يؤهلهم لذلك، حتى الدول العظمى تتردد من ثقتها بهم، لأنها ترى كما يرى الشعب الذي بدأ انتفاضته بالشعارات، أن هؤلاء ربيبة النظام الذين عندما رأوا مصالحهم تتزحزح مع تصاعد الثورة، وتصاعد لهجات التدخل الأجنبي لحسم الأمر عسكرياً،

خرجوا عن النظام، وأعلنوا انشقاقهم، فكان ذلك بمثابة أوراق رابحة حقيقية للنظام لأنهم لايكونون موضع ثقة بالنسبة للمنتفضين الحقيقيين على الأرض، وهم على معرفة وطيدة بتاريخهم.

بدأ هؤلاء يحتلون شاشات التلفاز، مواقع التواصل الاجتماعي، شتى وسائل الإعلام، ونتيجة لذلك، بدأت خلافات تنشب بينهم، لتكون فرصة يكشفوا من خلالها أوراق بعضهم البعض على الملأ، ما أدى إلى تشكيل أحزاب، وهيئات متناقضة في توجهاتها، ليلبث الباب مشرعاً أمام دخول ميليشيات مسلحة للقتال على الأرض في تحّول جديد بث شيئاً من الاستقرار إلى النظام الذي لبث الوحيد بنظر العالم لمواجهة قوات متطرفة، ثم ما لبث أن خطا خطوة أخرى نحو الاستقرار حينما أعلن التخلي عن سلاحه الكيماوي، وهو يعتقد أن ذلك بمثابة نجاة من ضربة أمريكية أوشكت لاقتلاعه بالقوة العسكرية.

لكن ذلك لم يكن ليحدث حتى لو لم يتخل عن سلاحه الكيماوي، لأن فكرة إزاحته بالقوة العسكرية في هذه المرحلة مستبعدة، إلاّ أن ذلك من شأنه أن يمدّ أمد الحرب الداخلية،

ويكون بمثابة استقطاب للمقاتلين من كل مكان إلى ساحة خلت من أسلحة كيماوية يمكن أن تسحقهم في لحظات.

عندذاك انهال المقاتلون من كل مكان للقتال على الأرض دون هدف بعينه سوى هدف القتال، قتال النظام، قتل ميليشيات أخرى، قتال الجيش الحر، قتال المنتفضين السلميين، قتال بعضهم البعض، الأمر الذي مكّن النظام استعادة أجزاء كبرى من المساحات التي كان المسلحون سيطروا عليها.

أمام هذه التناحرات، لم يبق أمام الأكراد سوى أن يعلنوا إدارة مركزية للمناطق التي يعيشون فيها بكثافة لتعود الخلافات كرة أخرى إلى الكرد والكرد أنفسهم على إدارة المركز، وكذلك بين الكرد وميليشيات عسكرية على فكرة إدارة المركز، وهذا ما أكسب النظام قوة أكثر مما لو دخل في صراع مسلّح مباشر مع الكرد.

بدأ ت فكرة الهدوء تبتعد عن حسابات الناس الذين تدفقوا في اللجوء بشكل أكثر كثافة، وقد أخذ يتضح أن التغييرات الكبرى لا تبدأ إلاً من الداخل، التغييرات التي من شأنها أن تستبدل نظاما بنظام، وواقعاً اجتماعياً بواقع اجتماعي جديد.

بلغت إشارة إلى الناس بأن القوى العظمى يمكن لها أن تستبدل نظاماً بنظام بيد أنها لا تمتلك أن تحقق الأمن في النظام الجديد.

الانقلابات العسكرية التي تمخضت من الداخل استطاعت أن تحقق الأمن، بيد أنها لبثت على جناح قلق من أي محاولة للانقلاب عليها، مما جعلها في حالة طغيان مستمر، لكنها كانت تمنّ على الناس بأنها تحقق لهم الأمن، وأن لا أحد بوسعه أن يتطاول ويتجرأ ليطلق عياراً نارياً حتى ابتهاجاً في حفلة زفاف.

رأى الناس اللجوء إلى الحل الوسط بين التدخل الخارجي، وبين الانقلاب العسكري، فكانت فكرة الثورة السلمية التي ما لبثت أن اصطدمت بثورة المعارضين المنشقين الذين يعطون صورة للعالم عن عدم توحّد الصفوف من أجل قيادة البلاد، فلبث الذين ينتفضون سلمياً بالداخل لا يهمهم سوى تقوية صفوفهم بالمزيد من الانتفاضات السلمية واستقطاب شرائح أوسع، وهم ينظرون إلى هؤلاء الذين يظهرون في وسائل الإعلام وينشقون عن بعضهم البعض بعد أن انشقوا عن النظام، ويسعون إلى طرق أبواب الدول

للحسم العسكري.

باتت أوضاع الأكراد أكثر اضطرابا وهم يعلنون حالات حماية شعبية للمناطق التي يعيشون فيها بأغلبية.

عندما تولى عناصر حزب العمال الكردستاني زمام الإدارة، لم ترق الفكرة لوحدات معارضة في ميدان الحرب، إذ كيف بموضع جغرافي أن يكون بمنأى عن الدمار، الأمر الذي أشعل فتيل حرب بينهم من أجل أن يوقفوهم عن ذلك الذي بدأ يشير إلى فكرة إنشاء إقليم كردي ثان على غرار الإقليم الأول.

أخذت الميليشيات تنسحب من مواقعها لتقاتل الأكراد، حتى بدأت الثورة تنحرف عن مسارها كثورة شعبية، وانتفاضة جماهيرية وفق مسار محدّد وغاية مرجوة، لتمتد عمليات القتال وخطف الأبرياء حتى إلى أعماق قرى نائية

في الوجه الآخر، لم ترق الخطوة لأحزاب كردية أخرى وهي ترى أن هذا الحزب يتولى زمام الإدارة، مما زاد الأمر تعقيداً وتداخلاً وتصعيداً.

من جانبها، بدأت الأحزاب المعارضة خارج البلاد تعاني ذات

الاضطراب الذي أدّى إلى انشقاقات أظهرت للعالم بأنها غير مؤهلة لقيادة دولة، وهي التي لا تفلح في قيادة فكرة التوجّه الجديد، فأدى هذا إلى وقوف العالم إزاء حقيقة أنه يقف أمام طفولية المعارضة الناضجة، وهذه الطفولة لا تحتاج شيئاً قدر حاجتها إلى وقت كي تنمو، وتدخل مرحلة المراهقة، ثم تلج سن الرشد.

رأى الكرد في واقع كهذا أنهم يتحولون إلى رهائن من أجل المفاوضات، وهي إضافة أخرى إلى جملة ما لحقهم من ويل، فبدأت الحشود البشرية تنهال إلى الإقليم وهي تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتواجه حالات المنع من أطراف متعددة كي تحول بينها وبين اللجوء حتى يلبث الناس كأوراق للمفاوضات بين المقاتلين على الأرض، وما زاد الأمر تفاقماً أن هؤلاء بدأوا يرسلوا رسائل إلى الإقليم كي لا يستقبل اللاجئين حتى يلبثوا قوة تسندهم على الأرض، يطلقون من خلالها نداءات إنسانية إلى العالم.

ثم بدأت محاولاتهم تطارد اللاجئين لتستكثر عليهم لجوءهم، وتسعى إلى إحداث شروخ بين الأكراد اللاذين، والأكراد المحتضنين لهم في الإقليم، بيد أن الاهتمام الشعبي بهم تضاعف، ومتن الأزر

في مواجهة لعبة السياسة التي جرعوا مرارتها، واكتووا بنيرانها، ودفعوا ضريبتها من قبل، وهم الأعلم بدواعيها.

بعد بقاء الأفواج لأيام في العراء، استقبلتهم الحشود البشرية وهي تفتح لهم الحدود، وتقدم لهم مستلزمات الحياة.

حيث تم تجهيز كل شيء لهم، غدت أفواج السيارات تأخذ لهم حاجاتهم إلى المخيمات، أوإلى البيوت التي شاؤوا الإقامة فيها.

بدأت سيارات سكان الإقليم وهي حاملة المساعدات الإنسانية تدور في الأحياء بحثاً عن بيوت اللاجئين كي تمدّهم بهذه المعونات ولسان حالهم يقول: إمّا أن نعيش معاً، وإمّا أن نموت معاً... فكان ذاك بمثابة رسالة بأن إرادات الشعوب تعلو إرادات أهل السياسة، ومشاعر الشعوب الإنسانية، في سطوع تلقائيتها، وقوة براءتها تفوق حساباتهم.

رأى سواد الناس في الإقليم أن ذلك أبقى أمتهم واقفة على قدميها وهي تواجه أشكال الإبادة سواء أكانت في حظر اللغة، أوحظر المظاهر القومية من فلكلور ودبكات وآداب وفنون، أو عمليات إبادة جماعية مباشرة.

عندما ينظر إلى حميمية استقبال الناس هنا لإخوانهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأعمالهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وذكرياتهم، قسراً تحت وطأة الكارثة الأكبر التي تعرضت لها بلادهم عبر تاريخها الطويل، لايسعه أن يرى مثيلاً لهذا الحدث الإنساني عبر التاريخ البشري برمته، حيث فتحوا لهم بيوتهم، قاسموهم طعامهم وشرابهم وأموالهم.

حتى أولئك الذين يعيشون في أحوال معيشية متواضعة، قاسموهم لقمة عيشهم، وأبوا أن يلبثوا في معزل عن المشاركة.

أصحاب المصانع والمعامل والشركات، خصصوا مبالغ شهرية لهم، ومنهم مَن أنشأ المشاريع الجديدة كي يعود دخلها إلى هؤلاء.

كذلك الذين يعيشون في الاغتراب، أبوا البقاء دون المشاركة، فغدوا يرسلون الأموال كي يتم توزيعها على العائلات الكردية المنكوبة بما أصابها من هول حرب فتاكة طال أمدها.

حينها فقط تتقافز إلى ذهنه واقعة المهاجرين والأنصار التي سجلت صفحة ناصعة في السجل الإنساني، عندما استقبل الأنصار، المهاجرين الذين تركوا مكة ولجأوا إلى المدينة، فاستقبلهم الأنصار

بحميمية إنسانية لم يسجل لها التاريخ البشري شبيهاً من قبل، بلغ الأمر أن استشهد الله بمواقفهم الإنسانية حينما قال : ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[1].

تعددت المواقف الإنسانية التآزرية الإستغاثية في السجل الإنساني، إلاّ أنها لم ترتق إلى ذروة ما بلغه الأنصار مع المهاجرين من قوة العطاء، وقوة التآزر.

هاهو موقف الكرد في الإقليم يعيد إلى ذاكرته تلك الواقعة الإنسانية وهو يشهد الناس يقدمون على بذل ما بوسعهم كي يستقبلوا الكرد في هذا الحدث التاريخي، وهم يجنّبونهم وقوع كارثة إنسانية، وقد دنا عددهم من نصف مليون لاجئ غالبيتهم العظمى أطفال ونساء وشيوخ ومرضى، لم ترحم الحرب أحداً.

بدأت الأزمة تجعلهم يقتربون من بعضهم البعض أكثر، يحبون بعضهم البعض أكثر، يتآزرون مع بعضهم البعض أكثر.

---

(1) سورة الحشر، الآية: 9 .

في ذروة هذا التعاضد، باتت كلمة كردستان بالنسبة لعامة الكرد ترتقي إلى مقام المقدسات التي لايُبرر أي مساس بها من قبل أي شخص، إذ يمكن لهم أن يختلفوا ويتحاوروا حول أي شيء باستثناء هذه الكلمة التي لا يختلف عليها اثنان، وأي خلاف بشأنها يشكّل مأخذاً عميقاً يمس جوهر الانتماء القومي، وجوهر نقاء الدم الكردي الذي يجري في العروق.

أيقنوا أن هذه الثوابت وحدها قد جعلت الكرد يحققون هذه المعجزة البشرية الكبرى في حفاظهم على لغتهم، وكذلك حفاظهم على إحساسهم العميق بالمسؤولية العظمى تجاه كرديتهم.

حينها بدأت المشاعر القومية تترسخ في كينونة الإنسان الكردي أكثر من أي وقت مضى حتى غدتْ مذهباً يتمذهب به حيثما كان، وهو يدرك أن هذه المشاعر جعلت كردستان محجاً لعامة الكرد عبر التاريخ، مهما تغرّب الكردي، تبقى عينه على كردستان، ويبقى شوقه دائماً لزيارة كردستان.

الفصل الثامن

كمثل نفاثات فـــي عُقَد

خطرت له أفكار كثيرة، عندما اتصل به صديقه سيفان وأخبره بأنه وصل للتو مع عائلته إلى هولير، وقد حصل على رقم هاتفه من أحد الأصدقاء، ويحتاج إلى مساعدته.

عندئذ طلب إليه أن يبقى في مكانه ريثما يرى طريقة كي يلتقيا، حين أغلق الخط، سرعان ما خطر له /جنكدار/.

- : والله هذا وقت مناسب لتساعدني يا صديقي جنكدار. همهم بهذه الجملة وراح يبحث في ذاكرة هاتفه عن الاسم حتى عثر عليه، وعلى الفور أجرى به الاتصال.

لبث يرن على هاتفه حتى انفصل الخط دون إجابة.

عندئذ أخبر آفان بالأمر، فطلبت إليه أن يخرج ويستأجر سيارة كي يذهب ويستضيف صديقه إلى البيت ريثما يجد له بيتاً.

- : معك حق عزيزتي. قالها وراح يرتدي ثياب الخروج، وفي أثناء ذلك، أصدر هاتفه رنيناً، فحملته آفان

قائلة وهي ترنو إلى الشاشة: إنه من جنكدار.

فتح الخط، ليسمع صوت جنكدار معتذراً بأنه عندما اتصل، كان يعين أحد الركاب في إيصال بعض حاجاته إلى داخل البيت، وكان الهاتف إذ ذاك في السيارة ولم يسمع الرنين.

قال: صحيح ياصديقي، أحد معارفي وصل للتو مع عائلته من سورية، أريدك أن تذهب وتجلبه إلى بيتي.

قال: بسيطة، حالاً، لكن أين هو؟

قال: سأرسل لك رقم هاتفه برسالة، لتتصل به كي يرشدك.

بعد نحو ساعة، رأى السيارة تدخل الشارع، وتقف بمحاذاة الباب.

تقدم مع زوجته يستقبلهم، كان سيفان برفقة زوجته وابنين صبيين، وأمه العجوز.

دعاهم إلى الدخول، وطلب من جنكدار أن يتفضل أيضا، فدخل قائلاً: أريد أن أسمع آخر أخبار البلد من أخينا.

جلسوا جميعاً في غرفة الاستقبال، وبعد قليل، طلبت آفان من المرأتين أن تستريحا في الغرفة التي أعدتها لاقامتهم، فخرجتا، ولبث

مع صديقه وابنيه، وجنكدار.

قال: ما هي أخبارك ياجنكدار؟

قال: والله ياصديقي أحياناً أفكر بترك مهنة السواقة حتى لا أرى مزيداً مما رأيت، ربما عملي كسائق تكسي يُريني ما لايراه غيري، ويُسمعني ما لايسمعه غيري.

بدأ يصغي إلى ما يقول ويشرد بما آل إليه أمر الكرد نتيجة هذه الحرب، وكأن التاريخ الكردي يعيد نفسه ويتجدد بذات العجلة على رأس كل كارثة تحل بهم، هكذا عندما تتاح للكرد فرصة واحدة كي يتآزروا للم الشمل، تبدر المحاولات والمساعي بقوة كي تفتت قواعد هذا الشمل وتنال منه، هكذا دوماً يتم دس السم في صفوة العسل الكردي.

عندما رأى العالم كله قوة التآزر التي بدرت من شعب إقليم كردستان تجاه أكراد سورية الذين أجبرتهم فتاكة الحرب أن يهجروا ممتلكاتهم، وبيوتهم، وذكرياتهم، وبلادهم، وبنية علاقاتهم الاجتماعية كي ينجوا بأطفالهم ونسائهم وشيوخهم، ويلوذوا بالإقليم، لم يرق هذا التآزر للبعض الذين رأوا أن يفعلوا شيئاً يمكن له أن

يفسد روح صلة الرحم القومية بين أبناء الجلدة الواحدة.

قال جنكدار: فجأة رأيت الطرقات تمتلئ بأفواج من المتسولين، رجالاً ونساءً وأطفالاً.

ثم قال وهو يحّحظ عينيه: تمنيت لو عرفتُ أحداً منهم، إذا لا يعقل ألاّ أعرف كردياً واحداً من كل هذه الحشود، وتبيّن لي فيما بعد أن هناك مَن أتى بهؤلاء من أجل القيام بهذا الدور فحسب، لا أعرف كيف استطاعوا أن يجمعوا كل هذه الحشود من الغجر، وأبناء القاع، وبعض ذوي السوابق، ليرسلوهم إلى الإقليم على أنهم لاجئين، وقد حصلوا على فورمات، و إقامات، وانتشر قسم منهم في مخيمات اللجوء، وقسم آخر في مدن وضواحي الإقليم.

لم يكن من السهولة على الأسايش أن يميزوا بين الكردي وغير الكردي، فكلاهما يتحدّث الكردية بطلاقة، وليس بوسع أحد أن يميز بينهما، لم تكن هذه هي المعضلة لأن لا مشكلة في دخول غير الأكراد إلى الإقليم كحالة لجوء كما قال لي بعض الأسايش الذين كانوا يصعدون معي في بعض التوصيلات، وكذلك ما رأيت من خلال عملي الذين يقيمون مشاريع استثمارية كبرى في الإقليم من

غير الكرد، ومن مختلف الجنسيات، وقد رأيت العمّال الذين يعملون في الإقليم من غير الكرد بأعداد كبيرة، لكن كمنت المشكلة في الذين تم تجنيدهم لأداء هذا الدور المخزي، وإحداث شرخ بين الكرد والكرد.

أردف جنكدار بعد قيل من الصمت: تبيّن لهؤلاء أن نسبة النساء والأطفال والشيوخ والمعاقين من اللاجئين تزيد عن 85 بالمئة، وما تبقى من نسبة الشباب تعمل على الأرض في المناطق الكردية، وتلك إشارة إلى قيام إقليم كردي ثان لا يقل قوة عن الأول، وبالتالي يقوى أحدهما بالآخر.

لقد اتحدت مصالح عديدة لهذه الغاية في سبيل إحداث شروخات قوية في بنية هذه العلاقة بين الكرد في هذه المحنة التي سوف يخرجون منها بإقامة إقليم كردي، وهم يدفعون أثماناً باهظة في سبيل ذلك، حيث يتعرض مدنيوهم العزّل لعمليات خطف جماعية، وتتعرض قراهم لعمليات نهب وقصف ومداهمة، وبالتالي تُطلب منهم المقايضات والتنازلات في سبيل تحرير رهائنهم، حتى رأوا أن يجنّبوا الفئات الضعيفة نتائج هذه المخططات فتلجأ إلى

الإقليم.

بعد أن اتضحت مصادر هذه الظاهرة التسولية التي لم تكن لها أي مبرر، لأن المخيمات تقدم كل مستلزمات المعيشة للنازحين، والذين لديهم أموال ويريدون استثمارها، يمكن لهم أن يقيموا في بيوت سواء اشتروها، أم استأجروها، كذلك أصحاب المهن، وأصحاب الخبرات، وأهل النخبة في سائر المجالات.

أشعل سيجارة، ثم استأنف يقول: أذكر لكم حادثة وقعت معي منذ نحو شهرين عندما كنت أمضي في البازار، وأشار لي شخص للوقوف، وكان معه شخص آخر.

عندما توقفت، وتقدما ليصعدا في السيارة، فجأة رأيتني أنظر إلى شخص أنا على معرفة جيدة به، فنزلت، وبدأت أتبادل معه القبلات، لكنني فوجئتُ بأنه لا يحدّثني بلغته التي أحدّثه بها، بل يحدّثني باللغة الكردية.

استغربت لذلك، وكاد الأمر يلتبس علي، لكنه صعد مع صديقه وطلب أن أوصلهما، عندئذ ومع قيادة السيارة، قلت له بلغته: منذ متى أتيت من سوريا إلى الإقليم؟

قال: منذ ستة أشهر.

قلت: أنت ضيفنا، والواجب يقضي أن نستضيفك أنت ومَن معك على الغداء.

قال: شكراً، أتيتُ بمفردي إلى الإقليم أهلي مازالوا في سورية.

قلت: لماذا لا تجيبني بلغتك، لم يسبق لنا أن تحدثنا معاً اللغة الكردية لمعرفتي بأنك لست كردياً.

قال: بل أنا كردي، لكن يبدو بأنك نسيت، وقد تحدثنا معاً في سورية بالكردية.

قلت ضاحكاً: مادمت كردياً، إذن فقد وفّرت علي وجبة الغداء، مثلك مثلي هنا.

بعد أن اتضحت هذه الحقيقة في الإقليم، لم يكف هؤلاء عن سعيهم، بل باتوا يتربصون أي ثقب كي ينفذوا منه للنيل من هذا التكاتف ، فبدأوا يعولون في مسعاهم على الذين يجيدون الكردية بطلاقة كي يندسوا في الصفوف لعلّ الإقليم يغلق أبوابه أمام هؤلاء حتى يلبثوا أوراقاً للرهن والمقايضة، من جهة أخرى حتى يقول كرد الإقليم: هؤلاء الذين استضفناهم، ليتهم اكتفوا بعضّ اليد التي

احتضنتهم، بل يسعون إلى بترها.

ثم بعد أن تتحقق هذه الغاية، يشيعون في الناس بأن كرد الإقليم تخلوا عن أخوتهم وبني جلدتهم في محنتهم الكبرى، حيث أساؤوا معاملة أطفالهم ونسائهم وشيوخهم، بل طردوهم من الإقليم، وأغلقوا أبوابهم في وجوههم، تركوهم يموتون على الحدود برداً وجوعاً دون أن يرأفوا بحال إنسان لجأ بأطفاله الصغار من بطش الحرب، حاله كحال قطة حملت بأسنانها فراخها ولبثت تجري في العراء مذعورة كي لا تنهشها ذئاب تطاردها، وعندما رأت باباً مفتوحاً، فرحت لذلك وسارعت إليه، بيد أنها عندما بلغته، أُغلق في وجهها.

بعد قليل من الصمت، ارتسمت بسمة على محياه وقال: لكن الوقائع الطيبة التي أراها أيضاً تخفف عني.

ثم بدأ يسرد لهم الحادثة التي وقعت مع ابنته عندما طلبت إليه أن يأخذها إلى البازار لتبتاع بعض مستلزمات عملها في الخياطة، وهناك طلبت إليه أن يذهب، وعندما تفرغ من شراء احتياجاتها، سوف تتصل به كي يأتي ويعيدها إلى البيت.

بعد نحو ساعتين نصف، اتصلت به، وبدل أن يسمع صوتها، تناهت إلى سمعه نبرات مثقلة بالبكاء، اعتراه ذعر وعلى الفور أوقف السيارة وقال: ماذا حدث يا بنتي ؟

لم تستطع ابنته أن ترد سوى أن طلبت إليه كي يستعجل بالحضور إلى ذات الموضع الذي أنزلها فيه.

اتجه جنكدار بسرعة إلى الموضع، فألفى ابنته تقبع بيأس على رصيف والدموع تترقرق في عينيها.

تقدّم إليها وقد علا الشحوب وجهه: ما بك يا جين؟!

صيغة أمي. . ثم انفجرت ببكاء عميق

عندما أنهضها، أردفت: أضعت الصيغة يا أبي. . لستُ حزينة عليها لأنك تستطيع أن تشتري لي بدلاً عنها، لكنني حزينة لأنها كانت هدية أمي وتحمل رائحتها.

ليتني تركتها في البيت، ولم أضعها في حقيبتي، كنتُ ماسكة بها في يدي، لا أعرف أين سقطت مني، درتُ على كل الدكاكين التي دخلتها، بحثت في كل الشوارع ولم أجدها.

تذكر جنكدار ذاك اليوم الذي رأى فيه زوجته تقدم صيغتها إلى ابنتها قائلة: هذه أصبحت لك يا جين، لم تعد تلزمني، هذا كل ما

يمكنني أن أهديه لك يا بنتي وقد غدوتي صبية.

انهمرت دموع من عينيه، وقد غلبته نوبة بكاء، ثم أمسك بيد ابنته وأعانها في الصعود إلى السيارة، متجهاً إلى البيت.

بعد خمسة أيام بينما كان جنكدار يمضي بسيارته في البازار، لفتت نظره صفحة بيضاء معلقة على جدار مكتوب عليها باللغتين الكردية، والعربية تفيد بأن الذي فقد صيغة، عليه أن يتصل برقم هاتف تم كتابته في أسفل الصفحة.

أوقف السيارة في ركن، وجرى إلى الصفحة يعيد قراءتها، راوده شعور مباغت بأنه طوال كل تلك الأعوام لم يقدم لابنته خبراً ساراً بحجم هذا الخبر، خطا نحو سيارته، وامتدّت كفه بحركة أوتوماتيكية إلى جهازه الخلوي، ثم عاد يقف قبالة الصفحة، وبدأ ينقل رقم الهاتف المدوّن.

في تلك اللحظة خطر له خاطر جعله يتردد من الاتصال، وعلى جناح سرعة صعد سيارته ومضى بها نحو البيت وعلامات الحبور بادية على سحنته.

بدخوله البيت، رأى ابنته مع جارتين لها، فلفتت نظره الكآبة التي بدأت تأكل من رونق وجهها، عندما رأته، نهضت إليه، إذ

ذاك قال بذات البسمة التي دخل بها: لك عندي يا بنتي خبر سوف يسرّك.

هزّت رأسها باستفسار؟

عندئذ، طلب منها أن تصطحبه لأمر يتعلق بهذا الخبر السار.

تقدمت إلى جارتيها، واستأذنتهما بأنها مضطرة للخروج مع أبيها، طالبة منهما أن تبقيا في البيت ريثما تعود بعد قليل، بيد أنهما نهضتا وقالتا بأنهما سترجعان في وقت آخر، حينها قالت لهما جين بأنهما لو خرجتا، فلن تذهب مع أبيها، فبقيت المرأتان في البيت.

عندما صعدت السيارة، ألحّت عليه كي يخبرها بهذه المفاجأة، لكنه تمالك نفسه دون أن يقول شيئاً حتى أوقف عجلات السيارة بالقرب من تلك الصفحة، ثم طلب منها أن تنزل.

مضى معها بالقرب من تلك الصفحة وهو يقول: انظري جيداً، لعلّ أمراً ما يلفت نظركِ.

بدأت توزع نظراتها يمنة ويسرة، وبغتة تجحظتْ عيناها، ولمعت إشراقة على سحنتها، ثم خرجت من فمها كلمات: شكراً لك أيها الرب الرحيم. . شكراً لك.

عندئذ بدأ ينقل الرقم من جديد على الجهاز الذي كان يحمله بيده، وبعد نحو ساعة كانا في بيت الرجل الذي أعاد إليهما الصيغة بعد أن تأكد بأنها تعود إليهما.

في المساء قال له سيفان الذي كان يعمل مديراً لمدرسة ابتدائية: منذ نحو أربع سنوات يا صديقي ونحن نعيش يوميات الرعب، ننام على وقع الرعب، نستيقظ على وقع الرعب، لاشيء في حياتنا يفوق الرعب الذي بات يلازم كل لحظة من حياتنا.

عندما يُطرق الباب، ننتفض جميعاً برعب، عندما نسمع عياراً نارياً، تتجه إلينا شظايا الرعب، حتى رغيف الخبز، نخرج من أجله برعب، ونعود به برعب.

مع حلول الغروب، لاترى أحداً في الطرقات في عمق عتمة بلا كهرباء، وأجهزة هواتف مفصولة، وتكاثر ملثمين في الشوارع، فقد بدأ النظام يستقطب هؤلاء الذين كانوا عاطلين عن العمل، أو الذين أخرجهم من السجون للعمل معه نظير رواتب مرتفعة، ينتشرون في الطرقات كما لو أنهم أشباح، يمتلكون صلاحيات فعل أي شيء بحق الناس دون أن يردعهم أحد، أو يحدّ من

صلاحياتهم، يتلثمون لأن الناس جميعاً على معرفة وطيدة بهم، كونهم من أبناء الأحياء الشعبية، الأمر الذي أدى إلى مداهمات من قبل ميليشيات مسلحة لقتل هؤلاء في بيوتهم، أو في الطرقات، لأنهم باتوا يشكلون قوة للنظام، وترشد ه إلى حيث تواجدهم، كذلك ترشد إلى مؤيديهم الذين يمدّونهم بمال وأسلحة وملاذ.

هكذا بدأنا نموت طفلاً، طفلاً، رجلاً رجلاً، امرأة امرأة، شيخاً شيخاً، هكذا بدأت بيوتنا تتعرض للهدم بيتاً بيتاً، في ظل موت بطيء، ودمار شامل.

بتنا نعيش في جحيم حرب فتاكة هي أشد هولاً من استخدام أبشع الأسلحة الكيماوية، ذلك أن الأسلحة الكيماوية تفعل فعلها وتأتي بنتيجتها في وقت محدد، ثم يتم العمل كي يلتئم الجرح، كذلك أكثر رعباً من أي عملية إبادة جماعية، لأن أي إبادة تستغرق وقتاً محدداً، ثم تشرق شمس يوم جديد، أربع سنوات مضت، وما نزال ننتظر عودة الهدوء، ولم يعد.

كان قيام ثورة شعبية في سورية شبيهاً بالمعجزة، ولم يكن أحد يصدّق أن المسيرات المناهضة سوف تنطلق في شوارع مدن

سورية، لكن التدخل العسكري، وحسم المعركة لصالح الثوار في ليبيا كان بمثابة الدافع الأقوى، والطعم الأكثر جدوى للشعوب العربية المقهورة كي تنتفض على حكّامها لأن الحاكم لن يجد سوى ثلاثة خيارات أفرزها الواقع الجديد، فإما التنحي عن طوع، أو إبرام صفقة معه كي يتنازل عن مقاليد الحكم، أو الخلع بقوة عسكرية خارجية.

اكتظت طرقات العواصم العربية برمتها بأفواج المتظاهرين بوتائر عالية وهم يحملون شعائر حاسمة واضعين نصب أعينهم الخيارات الثلاثة لحكّامهم، فكان لابد من موضع يمتص فورة الاحتقان هذه، وباتت سورية الموضع الأكثر ملاءمة لذلك في أطول فترة زمنية ممكنة، وشيئاً فشيئاً سوف يهدن الفوران في أرجاء العالم كلما زادت حدّة المعارك على الأرض السورية التي تملك مقومات عالية أكثر من أي أرض أخرى لامتصاص هذا الاحتقان الكوني.

أمام هول الصدمة، انتبه النظام إلى هذه الحقيقة التي تجلّت له، فبات يصرّح منذ البدء بأنه يتعرّض لحرب كونية.

كل الأطراف باتت تفعل ما بوسعها قاصدة، أو غير قاصدة

حتى تستمر الثورة كي تجد لها استقراراً في الأرض.

القنوات الفضائية في العالم، بما فيها قنوات النظام وتلك التي تواليه، أفواج المحللين والصحفيين والإعلاميين، مواقع التواصل الاجتماعي، فعندما يتحدّث محلل معارض، يوازيه محلل مؤيّد، وعندما تبث قناة مشاهد تدين النظام، تبث قناة للنظام مشاهد تدين الثوار، وعندما يتم التفاعل مع قنوات التواصل الاجتماعي، يجنّد النظام جيشاً موازياً يعمل ليل نهار في المواجهة.

كل شيء بات بشكل تلقائي يساند استمرار الحرب، حتى أفواج النازحين الذين لجأوا إلى مخيمات دول مجاورة، الذين انتشروا في بقاع الأرض لاجئين، أعداد الضحايا بين الجيش، والمدنيين، أفواج المعتقلين.

الكل يمضي وفق منهج الديمومة، حتى فقهاء وأئمة الطرفين باتوا جنوداً في دفع التصعيد وحدّة المواجهة.

بتنا في واقع كل شيء فيه غدا مجنّدا سواء شاء أم أبى من أجل أن يستمرّ القتال وتبقى الأبواب كلها مشرعة لاجتذاب أكبر عدد من متطرفي العالم ليجتمعوا في هذه الدائرة. عندما يُقتل طفل، يزيد ذلك

في التصعيد، وعندما يُقتل ضابط في الجيش، يزيد ذلك في التصعيد، عندما يتم تفجير بناء سكني، يلهب ذلك حدّة التصعيد، وعندما يتم تفجير بناء عسكري، يؤجج ذلك من سعير التصعيد، عندما يتلقى النظام أسلحة جديدة، يفاقم ذلك في التصعيد، وعندما يتلقى الثوار أسلحة جديدة، يزيد ذلك في التصعيد، عندما يستعين النظام بمقاتلين من خارج البلاد، يزيد ذلك في التصعيد، وعندما يستعين الثوار بمقاتلين من خارج البلاد، يزيد ذلك في التصعيد.

إنها براثن الحرب التي اجتمعت في ديمومتها مصالح الكون برمته، حتى بات وقوفها يوحي برياح التهديد على الكون برمته.

استطاعت تركيا بما يشبه المعجزة أن تخفف عن ذاتها وطأة الحزب الكردي الذي يشكل تهديداً مستمراً لها، وهي تراه يتحوّل من تلقاء نفسه للعمل في سورية، وأن تحظى برعاية العالم من خلال استضافتها أفواج اللاجئين اللاذين بأراضيها.

استطاعت إيران أن تجنّب نفسها تهديدات الغرب بسبب أسلحتها النووية، وباتت مشاهد الحرب المروعة تبث الفزع في نفوس شعوب المنطقة التي كانت تريد أن تثور على حكامها، فبات

كل برميل محمّل بالمتفجرات يسقط على حي سوري، يزيد الحكّام ثباتاً في كراسيهم، ويبعد عن الشعب فكرة إزاحة الحاكم عن ذاك الكرسي، وبات يفضل أن يقوم بتحنيط الحاكم في كرسيه ليبقى يحكم على أن يثور عليه، ويعرّض البلاد والعباد لما يجري في مناكب تلك الأرض الملتهبة بالحريق. باتت فكرة القيام بالثورة ترعب كبار الناس وصغارهم، علماء الناس وجهّالهم.

أتت روسيا لتجد بأن ديمومة هذه الحرب تحقق لها حضوراً نافذاً في إدارة سياسة العالم، وتحقق لها المكاسب من خلال بيع كميات هائلة من الأسلحة.

أمام ذلك رأت بلاد الغرب بما فيهم الأمريكان أن اشتداد المعارك في سورية يحقق لبلادهم الأمن حيث انخفضت نسبة الاعتداءات الإرهابية في بلادهم خلال سنوات الحرب هذه، كما أن المقاتلين الذين كانوا يخططون للقيام بعمليات في أراضيهم، تحوّلوا للقتال في سورية، إضافة إلى بعض العناصر من أبناء الغرب الذين يميلون إلى فكرة التطرف وقد تسرّبوا للقتال في سورية، إلى جانب الدول العربية التي باتت تنفض عن نفسها هؤلاء حتى باتت سورية

كالجسد الذي يجذب كل احتقانات العالم ونزوعات أبنائه العدوانية، حيث تطهّرت بلاد العالم كلها من هؤلاء ليفتكوا بعضهم بعضاً في هذه البقعة المحصورة، وهنا رأى العالم أن يتقاسم إمداد أطراف النزاع كي يبقى مستمراً، فإلى جانب دعم النظام، كان لابد من وجود مَن يدعم الجيش الحر، وإلى جانبهما كان لابد من وجود مَن يدعم الميليشيات المتطرفة سواء بتيسير دخولهم إلى البلاد، أو مدّهم بالسلاح، ثم لابد من وجود مَن يتمكن من إدخال ميليشيات أخرى متناقضة لتلك الميليشيات كي تتناحر معها على الأرض، ثم يتناحر الجميع مع بعضهم البعض، وتتداخل النزاعات حتى تتشابك الخيوط مع الخيوط، وتكمن الضمانة في استمرارية الحرب حتى لو توقف الناس عن فكرة الثورة، وكف الجيش الحر أيديه عن القتال، وارتضى الجميع بذات القيادة لحكم البلاد كي تعود الأمور إلى نصابها.

بدأ العمل بجدية في خطة كي يتطهّر العالم من رجس الذين يزحزحون أمنه، لينحصروا في بقعة واحدة ويريحوا العالم كله من شرّهم، هكذا رأى العالم نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما في علاج

كوني كبير كهذا لآفة الإرهاب التي أخذت تنخر في جسد الحضارة الإنسانية، فإما أن يبقى مستشرياً في جنبات العالم، وأما أن ينحصر في بقعة جغرافية حتى تُطفئ نفسها بنفسها، وعلى الجميع أن يعمل جاهداً كي تبقى مستمرة دون أن يتمكن طرف من الانتصار على الطرف الآخر.

من الوجه الاقتصادي الموازي، بدأت المكاسب تطال الجميع، فانظر إلى الذين باعوا كل تلك الخيم التي تأوي ملايين اللاجئين، إلى تجار اللحوم، والبيض، والحليب، والخبز، وأصناف المأكولات المعلبة، والمجففة لأن هؤلاء جميعهم يستهلكون الطعام دون أن ينتجوا.

ثم انظر إلى الميسورين الذين لم يرتضوا بالعيش في المخيمات، فاستأجروا بيوتاً، أو اشتروها، أقاموا مصانع وشركات تجارية في دول الجوار، هؤلاء الذين أغنوا تلك الدول بأموالهم وخبراتهم، كما أن دول العالم أخذت تستصفي وتستقطب المبدعين من ذوي المهارات المتميزة لتنتج فيها.

إن ما يحدث لنا ياصديقي هو تصفية جماعية بدماء باردة،

بنفَس طويل، بكثير من التؤدة، أربع سنوات ثكلى، وما تزال العملية مستمرة دون أن يتكهن أحد بالزمن الذي ستستغرقه حتى تضع الحرب أوزارها، إننا ننتظر المصادفات التي قد تحدث تغييراً في الموازنات بين القوى الكبرى التي غدونا رهن إشارتها. هكذا نحن الضعفاء العزّل الذين لم نكن نحسب حساباً لكل هذا الذي أصابنا، رأينا أنفسنا أمام كل هذا الذي بتنا ندفع ثمنه، لم تعد قضية سقوط نظام، أم بقاؤه، باتت قضية سقوط شعب، أم بقائه، سقوط دولة، أم بقائها. كان يمكن لأي دولة أن تؤدي هذا الدور الذي نؤدّيه، بيد أن الظروف كلهت تآزرت علينا، ولذلك باتت كل دولة في حالة رعب من انتقال الدور إليها.

بعد أن روى لنا أخونا جنكدار ما آل إليه الأمر في الإقليم، يبدو لي بأننا نحن الكرد من أكثر ضحايا مفرزات هذه الحرب، وقد غدونا في نارين، نار الخطف الجماعي من البيوت، والقصف، والدمار في ديارنا، ونار المندسين بين أهلينا في لجوئنا، هكذا هي الحرب ياصديقي، تنزع الرحمة من القلوب، إنهم يلاحقوننا حتى إلى المخيمات ويستكثرون علينا العيش في العراء في ظل خيمة، يسعون

إلى إخراجنا منها.

توقف قليلاً، ثم تنهّد بعمق وأردف يقول: بدأت المسألة تخرج عن إطارها في أشكال التحدّي بين النظام وبعض الدول التي تدعم المعارضة في دوّامة من الرهانات، حتى بدأت تظهر علامات الصراع بين قوتين خارجيتين، فلم يعد باستطاعة النظام أن يتنازل حتى لو راودته رغبة في ذلك، لأن زمام الأمور خرجت من يدَيه، كما أن الأمور خرجت من أيدي المقاتلين المعارضين على الأرض، ثم بدأت كل قوى تستنجد بقوة عظمى لتقف إلى جانبها وتؤازرها.

لكن يبدو أنه كان من الهام أن تظهر كل هذه الحقائق، وتمرّ الثورة بكل هذه المنعرجات التي سوف تجعلها أكثر قوة، وأكثر ثباتاً وهي تصرّ ألاّ تخرج عن مسارها.

الفصل التاسع
أنيســـــة الروح

تتفتح برعمة ياسمين هولير في أُبّهة الصيف

تزدان دوحة هولير رونقاً على فضة أوراق الخريف

تغدو هولير أكثر زهواً في ألق مطر الشتاء

تزدهر إشراقة جمالها على غصون شجرة الربيع

تمضي به خطواته وهو يشدو:

أحبكِ ياهولير إلى غمام الأرق

أحبكِ ياهولير إلى مساحات الإعياء

خطوة في روحانية دروبك تساوي قارة

نسمة من رفيف هواءك تبث حياة

هولير. يادوحة مدن الأرض الخالدة

يا ملكة الدنيا

يا ساحرة الأفئدة

يا عمق مهد الإنسان

يا ميراث آل الكرد

يا حقيقة حفدة الكرد الوحيدة في تاريخ من وهم

موضعك من ديار الكرد، موضع القلب من البدن

يانشيد الأم المثكولة بأيتامها

يا أنيسة الروح في وحشة الزمن

يادفء الفؤاد في ليالي الزمهرير

يابلسم الجرح في متاهة الوجع

يادمعة على خدّ الزمن.

هولير. يا شهد عسل الدنيا

يا رحيق زهرة الأرض المباركة

تزداد هولير ألقاً في أسواقها

تزداد بهاءً في ساحاتها.

عندما دخلت عليه هولير كان مستلقياً في الفراش، وهو ينتظر منذ نحو شهر بأنها يمكن أن تدخل في أي لحظة، لأنها في الزيارة الماضية طلبت إليه أن يحدّثها عن بلاده، قالت بأنها تريد أن تتعرف على تلك البلاد وما يحدث فيها.

عاد مساء من جولة قام بها، جاب الأسواق المزدحمة بالناس، على أصوات أغنيات كردية ذات إيقاع سريع تتعالى بين الزحام، عرج إلى سوق /شيخ الله/ بدأ يمشي في السوق العامر الذي ينبض بالحياة، وهو ينظر إلى الهوليريين والهوليريات الذين يجلبون أنواع الأعشاب من القرى في ساعات مبكرة من الصباح لبيعها في هذا السوق القديم، يتوافد الناس من أرجاء هولير إلى هذا السوق لابتياع حاجاتهم.

تعرّف على أصناف الأعشاب التي يقبل الناس على شرائها: كَيرسك[1]، قوراد [2]، طولك [3]، سورياز[4]، سربسك[5]، شل[6]، خه ندَه لك [7]، طرشوك [8]، كويزي [9]، جاتر[10]،

(1) نبتة ربيعية يتم تناولها بعد أن تُسلق، ثم تُقلى
(2) الكراث البري، يتميّز بطعمه الحاد قليلاً
(3) الخباز، يكثر في المناطق السهلة، يُسلق، ثم يُقلى
(4) يُستخدم هذا النبات البري كثيراً في قرى كردستان وأريافها، يؤكل بعد كبسه، ثم قليه
(5) الجدائل الثلاث، يؤكل بعد أن يتم طبخه، ومزجه بالبرغل
(6) يتم استخدامه نيئاً، ويمكن أن يُضاف إليه السمّاق
(7) تستخدمه النساء على الأغلب بعد أن يُضاف إليه السمّاق
(8) وهو من النباتات الحمضية الطعم، يؤكل مملّحاً
(9) ينمو هذا النبات على جداول المياه العذبة، وكذلك في الأماكن الجبلية من طبيعة كردستان، ويتم استخدامه كلون من ألوان المقبلات التي تسبق وجبات الطعام
(10) الزعتر، يتم تجفيفه، ويُستخدم مضافاً إلى طبق الكبة باللبن

كه نكر [1]، ريواس [2].

حين بلغت الساعة الثانية عشرة ظهراً، اتجه سيراً نحو ربع ساعة حتى بلغ بازار نشتيمان، اتجه إلى الحديقة التي تطل عليها القلعة من جهتها الجنوبية، اقتعد كرسياً وسط ألوان وأشكال الناس الذين يستأنسون بقضاء أوقات روحية عذبة في حديقة إطلالة شموخ الصرح، لاشيء يشغلهم سوى سحرية الحياة التي تتحول بين أنامل أرواحهم إلى سبحات تستكين إليها أفئدتهم، حينئذ تجلو أمام ناظرَيه عبقرية بساطة المجتمع الهوليري.

عندما جلست، بدا ينظر إليها وهو يتخيلها كنزاً من المعرفة مهما نهل منه، فإنه لاينضب، بدت إشراقة المعرفة تسطع من وجهها، عندها فقط أدرك أن أي عمل سلبي يقوم به الإنسان، يمكن أن ينجم عنه إيجابيات أيضاً، أدرك أن كل هذه الحشود الهائلة التي تركت ديارها تحت وطأة شدّة الحرب، تعلّمت أيضاً مما رأت نفسها فيه ما لم تكن تعلمه من قبل.

(1) الكعوب، تتميز هذه النبتة البرية بأنها ذات أشواك حادة، تُزال منها الأشواك، وتؤكل نيئة بعد تحميضها بالسمّاق، ويمكن تقطيعها إلى شرائح وقليها نع البيض، وكذلك سُتخدم في طبق من المقبلات بعد أن يتم سلقها وخلطها باللبن.

(2) ينمو هذا النبات في المناطق الجبلية العالية، تحت الثلوج يتسم بسيقانه الطويلة، وطعمه الحامض، يتم تقديمه مثل الفاكهة

قال: ما يخفف عني مشاعر الأسى جراء ما يحدث في دياري، هو أنني التقيتك يا هولير.

قالت: تعلّمتُ من الإنسان ما لم يتعلمه من نفسه، لو تعلم الإنسان من نفسه، لكفاه ذلك، إنه في كثير من الأحقاب الزمنية يكرر ما سبق أن وقع فيه، ويدفع ذات الضريبة التي دفعها أجداده.

أحياناً تلفت نظري عمارة قام بها رجل، فيهدمها ابنه، ثم يبنيها حفيده، ثم يهدمها ابن حفيده، ثم يبنيها حفيد حفيده.

قال: قلعتك تبدو أمام ناظرّي حجرة كريمة كبيرة.

قالت: كل الأحجار الكريمة موجودة في قلعتي، صخور قشرة أرض كردستان تتألف من أربعة آلاف معدن، هذه الأرض مباركة إنها المهد الثاني للإنسان، بارك الرب طبيعة أرض كردستان بأن جعل سفينة المهد الثاني ترسو على الجودي.

جبال الكرد هذه مليئة بخيرات الأرض، وتحمي الذي يلوذ بها، تفرّج عنه كربه.

شهدتْ هذه الديار ظهور الإنسان البدائي، ولذلك اغتنت بكل مقومات الرعاية والخصوبة وسعة المعيشة.

أرض كردستان المباركة، تغتني بالهضاب، والسهول، وخصوبة التربة، ووفرة المياه العذبة، ونقاء الطبيعة، والمناخ العليل، والأشجار البرية، وتوافرأشكال وألوان النباتات والأعشاب.

هذه الطبيعة أسهمت في تكاثر أصناف ثروة الحيوان في طبيعة وجبال الكرد، فتعلّم الكردي فنون الصيد للإستفادة من خيرات هذه الحيوانات.

انتبه الكردي أن طبيعة موطنه تقدم له كل وسائل البناء والتدفئة من خلال توفر الحجارة، والطين، وأخشاب الأشجار، فلم يتردد من بناء البيوت، والخنادق، والكهوف.

لبث يصغي إليها فأردفت: يحتوي مسكني على أربعين نوع من نفائس الأحجار الكريمة، كل واحدة تختص بمهمة، لا الألماس يشبه الياقوت، ولا اللؤلؤ يشبه المرجان، ولا الفيروز يشبه العقيق، ولا أنياب الفيلة تشبه عظم السلاحف، ولا الزمرّد يشبه اللازورد، ولا الدر يشبه الكهرمان.

كان أجدادك يستخدمون هذه الأحجار لأمراض بدنية وروحية، كان الياقوت يوقف عندهم حالة الهلع، ويتسبب في

الحظ، وكانوا يستخدمون اللازورد لتسكين آلام المفاصل، العقيق لإيقاف النزف، اللؤلؤ لضربات القلب، وتقوية أعضاب العين، وكانوا يستخدمون الإ شعاعات التي تصدر من الزمرّد لمكافحة الحشرات السامة، وهضم الطعام، والفيروز لصدّ الحسد والعين.

كان بوسع ملوك الأرض أن يقدموا على فعل أي شيء من أجل أن يظفروا بلحظات مستكينة في ربوع طبيعتي، ويستلذوا بالخلود إلى النوم في حجرة من حجرات مخدعي، وهم يتوسلون إلي كي أكون راضية عنهم.

سنة 1723 قبل ميلاد المسيح لم يشعر حمورابي بلذة الانتصار إلاّ بعد أن تمكن من بسط نفوذه إلى أرجائي في حكمه البابلي، بيد أنه لم يكن قادراً للاحتفاظ بي.

كل إمبراطورية عندما كان يشتدّ عودها، كانت تقدم إلي مضحية بالغالي والنفيس.

معركة شرسة دارت بين دارا الثالث، داريوس كودومانوس، والاسكندر الأكبر سنة 331 قبل ميلاد المسيح في سهل على بعد عشرين ميلاً شمال مسكني، ولبث الجيشان في حرب ضروس حتى

انتصر الاسكندر الأكبر الذي أتاني بزهو قائلاً بأن كل ما قام به كان من أجل أن يظفر بي، إذ لم يكن يشعر بأنه استطاع أن يحقق شيئاً مجدياً في حياته لولم يخض هذه المعركة من أجلي، كانت تلك معركة كوكميلا التي ما أزال أذكر وقائعها.

صراعات طويلة نشبت بين السلوخيين والفرس، حتى تمكن الفرس من الظفر بي سنة 139 قبل ميلاد المسيح.

كان سنحاريب يحجني، ويصلي في ربوعي إلى آلهته عشتار.

معارك انحفرت في ذاكرتي، دارت رحاها في أرجائي من أجل متعة الظفر بي، الحرب الضروس بين الفرس والروم، بين بارس والماديين، بين الآشوريين والماديين، بين دارا الثالث والساسانيين.

حروب أمراء شهرزور، العباسيين، وهولاكو، وتيمورلنك، والعثمانيين، تلك الحرب الضارية بين العباسيين والأمويين حتى انتصر الأمويون.

صمتت هولير قليلاً، وعادت تستأنف سفرها قائلة: بعد انتصار الإمبراطور الروماني قارامة للا في معركته على طيسفون سنة 216، لم يشعر بلذة الانتصار حتى رأيته يقدم إلي بكل جبروته، ويغزوني،

ثم رأيته يعتلي سطح مسكني في قلعتي وهو يبحث كالمجنون عن جواهر ملوك الفرثيين ليقدّمها هدية لي حتى أكون راضية عنه.

سنة 115 لميلاد المسيح جاءني الإمبراطور البيزنطي ترجان، وراودته رغبة في البقاء، وتعاقبت علي سلالته من الملوك البيزنطيين، لكن أردشير استطاع أن يقود الساسانيين سنة 226 ويطردهم من ربوعي ليحتل مكانهم.

عندما لاتنظر إلى الوراء، لن يكون بوسعك أن تنظر إلى الأمام بشكل جيد، الحياة سلسلة من الحلقات المتداخلة، كل البطولات البشرية هي بطولات تكاملية، الذي لاينظر إلى إخفاق الآخرين، لن يكون بوسعه أن يتجنّب الإخفاق، والذي لاينظر إلى تفوق الآخرين، لن يكون بوسعه أن يحقق خطوات متفوقة، الإنسان لايكون بوسعه أن يتكامل في قطيعة عن الإنسان.

عندما أراد /دياكو/ أن يعبر للآخرين بأن الدولة الميدية تتمتع بعوامل القوة، بنى قصراً ملكياً جيداً، ووضع تشريعات أراد من خلالها أن يحدث تغييرات في نمط التفكير الميدي، وذلك حتى يثبت بأنه لايخضع لسلطة الإمبراطورية الآشورية التي كانت تريد

أن تنصب نفسها وصية عليه.

لم يكتف بذلك، بل راح يتفق مع دولة أورارتو التي كانت تقع شمال موطنه، وكانت كذلك تعاني من ذات التدخل الآشوري فيها.

اتفق الاثنان، وقادا ثورة على إمبراطورية آشور، لكنهما أخفقا لأن الإمبراطورية العتيدة كانت في أوج قوتها، الأمر الذي دفع الملك الآشوري سرجون الثالث بتجهيز جيش وشنّ حرب عليهما حتى تمكن من تفتيت حلفهما الميدي الأورارتي، لكن هذا الملك الآشوري لم يكن شرساً إلى درجة تصفية المتمردين عليه، عندما وقع دياكو في أسره، رأى أن يلجأ إلى النفي كعقاب له، فاختار أن ينفيه مع أسرته وحشايته الملكية إلى مدينة حماه السورية.

كان ذلك سنة 715 قبل ميلاد المسيح، ثم بعد أن هدأت الأمور، عفا الآشوريون عن دياكو، وأعادوه إلى موطنه الميدي قائلين بأنهم لايقفون في وجه قيام الدولة الميدية، ولكن عليه ألاّ يشكل تهديداً للإمبراطورية الآشورية، فكانت فرصته كي يعيد تشكيل دولته الميدية من جديد.

هذه صفحة من صفحات التسامح الكثيرة التي ترعرع عليها أبناء وحفدة آشور، فكان بوسعهم أن يفتكوا بأي أسير أعلن الثورة عليهم، بيد أنهم جنحوا إلى روح التسامح الآشوري.

سنة 774 قبل ميلاد المسيح، ترك دياكو الحكم لابنه فراورتيس، وكان يُلقب بـ حنشا ثريتا.

عمل هذا الإبن على سعة سلطة الدولة الميدية، واستطاع أن يجمع المزيد من القبائل الميدية، وكذلك بسط نفوذه حتى تمكن من إخضاع بعض القبائل الفارسية لدولته، إلى جانب قبائل السميريين، والسكيت الآريانيتين.

عندما تمكّن من بسط هذا النفوذ، لم يُقبل الآشوريون على محاربته، بل تقدّم الملك الآشوري أسرحدون بشيء من الحكمة، وغدا يلاطفه ويتحدّث إليه بود جم كي يتحاشى الصراع معه، لكن ذلك لم يمنعه من شنّ هجوم على نينوى، العاصمة الآشورية، عندذاك تحالف السكيت مع الآشوريين، وشنّوا عليه هجوماً من الخلف، وأجبروه بالقوة كي يبتعد عن عاصمة الآشوريين الوديعة نينوى.

عندما رأى السكيت أنفسهم أقوياء، تمكنوا من السيطرة على

ميديا بعد فراورتيس، ولبثوا في سيطرتهم من سنة 653 إلى 625 قبل ميلاد المسيح.

عندذاك أنجب الميديون زعيمهم كيخسرو الذي استطاع أن يعيد مجد الكرد مرة أخرى، لتشرق شمس الاستقلال من جديد على جبال آل الكرد.

كان أجدادك دوماً يتجرعون مرارة الهزيمة عندما كانوا يُطردون مني، لذلك كانوا على الدوام يستعيدون قوتهم التي خسروها في الحروب، ليعودوا كرة أخرى ويستعيدونني، وما إن يشمّون رائحتي حتى يشعروا بأن أرض الكرد كلها باتت بخير، وعندما يبتعدون عني، يعتريهم إحساس أن أرض الكرد كلها على جناح خطر.

دوماً كانوا يبذلون كل جهودهم كي يحيلوا أرضهم المباركة إلى جنة من الخيرات، كانوا يزرعون القمح الأحادي، والثنائي، والقزمي.

يزرعون العدس، والحمص، والكرسنة، والشعير، والكتّان.

كانوا يربون الأغنام، والماعز، والثيران، والخنازير البرية، والحمير.

اكتشفوا في موطنهم النحاس، واستطاعوا أن يستخرجوا منه المخارز، والأسلاك، والإبر، وأدوات الزينة، وقاموا بصناعة الفخار العادي، والملون، والأختام الأسطوانية.

أنا قاعدة ديار الكرد

أنا قمر سماء الكرد

أنا ربيع فصول الكرد

أنا مجد تاريخ الكرد.

تلألأت بسمة على ثغرها، ثم بعد قليل استأنفت تقول: كان السومريون يقولون عن أجدادك الكرد: كوتي، جوتي، جودي.

والآشوريون يقولون: كاردا كا، كاردان، كارتّان، كاردو، كارتي، كورتي.

والأرمن يقولون: كورتيخ، كرخي، كورجيخ، كورخي.

واليونان يقولون: كاردوسي، كردوكي، كاردخوي.

والرومان يقولون: كاردويكاي، كاردوك، كارد خوي.

والفرس يقولون: سيرتي، كوردراها، كورتيوي.

والعرب يقولون: كردي، جودي، كاردوي، كارتاويه،

الفصل العاشر

عندما تأخـر الورد

بعد قليل من الصمت الذي خيّم عليهما قالت: بي شوق أن تعرّفني على طبيعة ما يحدث في تلك البقاع التي قدمت منها.

لبثت تنظر إليه، فقال:

ذات يوم استفاق ألماظ من لفائف نومه العميق ببطء شديد وهدوء تام دون أي شعور بالفزع، انفرجت عيناه بلطف للحظات، ثم ما لبثت الرموش أن تشابكت مع الرموش لتعيد حدقتَي العينين إلى طواف مملكة الغموض، ثم بعد هنيهة عادت الرموش تتباعد عن بعضها مسافة دهر لتنفتح حدقتا العينين برفق وتؤدة، وأعضاؤه تتذوّق لذة الاستلقاء على الظهر بمفاصل مفككة مستكينة في قاع الاسترخاء البدني والروحي.

راوده إحساس في لحظات أن جسده وردة بدأت تتفتح أوراقها مع بدء انتشار بزوغ فجر ربيعي حافل على ظلمة الشجرة التي تنتصب بشموخ في مجد علوها.

أزاح الشرشف الحريري الشفاف الزهري اللون عن جسده بالكامل، فبدأت مسامات الجسد تتلقى نفحات نسيم عليل كأنها انبثقت من حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو متكئ بثياب خضر من سندس وإستبرق على أريكة من أرائك جنان خلد تجري من تحتها عذوبة أنهار لا تشوبها شائبة.

بدأت أساريره تتفاعل بأنس مع نفحات النسيم الذي يتداعى إلى رعشات الروح والجسد في بهاء ألق هذه اللحظات الاستثنائية النادرة.

أحس بأن مفاصل عموده الفقري تستلذ بأخذ أعظم جرعات استرخائية ذهبية، فتعانق أساوراللذة خصلات ذهب الاسترخاء ليقدّما هديتهما الثمينة إلى سائرمناخ النفس المنتشية في قمة السطح الذي يستلقي عليه مع زوجته وأطفاله الثلاثة.

أومأت هولير رأسها وهي تصغي إليه، فأردف يقول:

خمس سنوات مضت منذ أن اتخذ مع زوجته قرارهما الحاسم بالنوم على السطح في فصل الصيف الذي يكون عادة شديد الحرارة، مقارنة بالشتاء الذي يكون شديد البرودة، والربيع الذي

يكون غني الخضرة، والخريف الذي يكون شديد هبوب الرياح التي لا تدع ورقة على غصن شجرة إلا وتطرحها أرضا وتدفع بها على شكل ركام إلى حيث الأودية والأنهار،عاهدة الشجرة في ذات الحين بثوب عيدي مزركش جديد لم تر له مثيلا في أي عيد مضى، هامسة بأنها سوف تخلع عنها ثوب السنة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغبار.

ثم يهمس لها أن الشتاء ينتظر ليقدم بعد ذلك ويغسل سائر بدنها بعذوبة مطره الذهبي، والربيع منهمك الآن بحياكة ثوبها المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها الممشوق، ويجعلها عروسا متجددة تستقطب بحلتها أنظار وحواس كل مارٍ بجوارها من أنس، وجن، وطير، ودابة، ونبات، وجماد.

يهتف الخريف لها بحنان إنه في عجلة من أمره لأن الشتاء والربيع ينتظران كي يكرماها، وعليها أن تتشجع وتتجاوب كي يحتفيان بها، فتخلع الشجرة بحياء شديد آخر ما تبقى على بدنها من قطع ثياب داخلية قطعة قطعة حتى تلبث بكامل عريها وتخلع آخر قطعة ثوب.

تسلّم عريها بخجل وتردد عذراء أمانة لأنامله الأمينة، يتسلّم بهاء الجسد، يتركه لديه سبعة أيام، ينفخ عليه وهو يتأمل تخلص الجسد من آخر ذرة غبار ليستوي في نضج عريه، ثم حينئذ مايلبث أن يسلّم الأمانة إلى انتظار الشتاء الذي يتسلّمها تحت جنح رذاذه ويشرع في غسل بدنها عضواً عضواً بفيض مطره الغزير حتى ينظّف عنها آخر ذرة غبار، فيرسل آنئذ الربيع زخات خفيفة من رذاذه حتى يتخلّص الجسد من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحات دافئة من خصلات شعر شمسه، فتنشّف أعضاءها عضواً عضواً بدفء، ثم ما يلبث الربيع آنئذ أن يبدأ في ارتدائها الثياب التي حاكها على فصال جسدها قطعة قطعة، بادئاً بالقطع الداخلية الصغيرة، ومنتهياً بآخر لمسات الزينة من أساور، وحلق، وخواتم، وعقود الجواهر، واللآلئ الثمينة، ثم يرش عليها نفحة من عطره.

تأخذ الشجرة المباركة أوج حلّة زينتها، وتستوي شامخة في عرش مقامها، فلا ترى البلابل موضعاً أكثر جمالاً وقدراً منها كي تقضي فيه أيام شهرعسلها، فتتهافت إلى ربوعها الخلاّبة من كل صوب وحدب أزواجاً أزواجاً. فرادة فرادة، فتبني لها أعشاشاً،

وتتزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شدو، وزغاريد، وغزل، ومشاكسات، وحالات حب جديدة بين الجوار، حيث تفرّ عصفورة عاشقة تحت جنح رعشات سكون الليل إلى شجرة جارتها، ويفرّ عصفورٌ عاشق إلى شجرة جارته، يلتقيا خلسة على حافة غصن خفي، يبث أحدهما شوقه ولواعج حنينه للآخر تحت حراسة مشدّدة من وردة.

يمرّ المارّ، فلا يكون له إلاّ أن يقف ليمتّع بصره بالنظر الذي يشرح له صدره، ويرفع عنه وزره، وهو يسبّح فالق الإصباح على سحر هيأتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيب ريحها، وعذوبة سكّنتها.

خمس سنوات وهو يكتشف مزايا النوم على السطح في تلك الإطلالة المفتوحة في جميع الأوقات:

بهاء إطلالة أول المساء،

لمسات إطلالة سكون الليل،

سحرية إطلالة شروق الشمس،

عبق إطلالة نفحات الصباح.

كل إطلالة تمتع بمناظر جديدة تمدّ النفس بمشاعر الحيوية والتجدّد. كان في الماضي حين يقبل الصيف، ينام مع زوجته على سرير صغير يتسع لجسديهما بالكاد في فناء الدار، وحين ولدت ابنته /ميرهان/ بعد خمس سنوات من الزواج اضطر أن يبتاع سريراً حديدياً كبير الحجم كي يتسع لنومهم معاً في الحوش.

عندما حلّ الشتاء، أحس بأن مساحة الحوش تضيق بالسرير الكبير والمكيّف المائي الذي لم يعد لهما لزوم في الحوش، فكانت فكرة أخذهما إلى السطح ووضعهما إلى جانب السرير القديم.

لبث الأمر على ما هو عليه حيث ينزلهما معاً في الصيف، ويصعدهما في الشتاء حتى ولد ابنه /نجد/ بعد ثلاث سنوات، وكانت ولادّة قاسية جعلت /تقى/ تمضي ثلاثة أيام في المشفى حتى استطاعت أن تقف على قدميها، وسمحت لها الطبيبة المولدة أن تخرج إلى بيتها.

بعد يومين في البيت تعرض نجد لوعكة، فنصح طبيب الأطفال أن يتعالج في عناية مشددة في المشفى، حينها اضطرت تُقى أن تقضي عشرة أيام أخرى برفقة ابنها الوليد في مشفى الأطفال بسبب

سوء تدهور وضعه الصحي.

يومها اكتشف ألماظ كم أن مشاعر الأمومة تغلب مشاعر الأبوة، حدث ذلك عندما اقترح عليها أن يبقى الطفل في عناية المشفى، وترتاح هي في البيت، ثم يقومان بزيارته ريثما يتماثل للشفاء، رفضت ذلك بشكل قاطع قائلة وهي تجحظ عينيها وتقطب حاجبيها: كيف تتخيّل يا رجل أنني سأنام وابني ملقى على سرير المرض دون أن أكون بجانب رأسه، أمدّ يدي بين لحظة وأخرى إلى جبهته.

كيف تتخيّل أنه سيرف لي جفن حتى وأنا بجانبه، سوف أبقى يقظة أحرسه، وبين لحظة وأخرى أمدّ يدي إلى جبهته، أرضعه، أهدهده عندما يبكي، أبدّل ثيابه الداخلية بين ساعة وأخرى.

عندها أدرك أن الإنسان هو ابن أمه أكثر مما هو ابن أبيه، ولأمه فيه أكثر مما فيه لأبيه.

تبيّنتْ له هذه الحقيقة عندما استطاع أن يترك ابنه مريضاً في المشفى وهو بأمس الحاجة إلى لمساته الأبوية، عاد إلى البيت ونام كأن شيئاً لم يكن، في الوقت الذي رفضتْ فيه أمه المريضة التي

هي بأمس الحاجة إلى الراحة والمكوث في البيت أن تترك وليدها ليس على سرير المرض بعيدا عنها فقط، بل رفضت أن تنام تاركة إياه نائماً نوم مريض حتى وهي بجانبه.

إضافة إلى ذلك أنه خطرت له فكرة أن يتركاه، في حين لم تخطر لها هذه الفكرة، وعندما قررتْ البقاء، لم يخطر له أن يقرر البقاء معهما، وقد تأكدت له حقيقة أخرى في تلك اللحظات وهي أن الأم تكفي طفلها وتزيد، بيد أن الأب لا يكفي طفله ولا يزيد، ويمكن لأي طفل في العالم أن يكتفي بأمه، بيد أنه لا يكتفي بأبيه، ولذلك فإن الشرائع والقوانين تميل إلى بقاء الطفل في حضانة أمه عند حدوث خلاف أو انفصال ريثما يتجاوز مرحلة الطفولة، وعندما يكبر، سوف يميل إلى أمه أكثر من ميله لأبيه بشكل تلقائي، لأنه يلمس عند أمه لمسات الحنان التي يحتاجها، أكثر مما يلمسها لدى أبيه.

لذلك يواجه الطفل أكبر معضلة عندما يرى أباه يعتدي بالضرب أو الإهانة على أمه دون أن يستطيع منعه من ذلك، يكون الأمر بالنسبة إليه في تلك اللحظات أسوأ مما يتعرض هو للضرب،

ذلك أن التي يُعتدى عليهاهي مصدر الأمان والحب والعطاء والتضحية بالنسبة إليه.

إنها مصدر شمس الحياة برمتها وهنا تنشأ لديه بوادر اهترازات نفسية عقيمة، فيظهر ذلك على سلوكياته، بحيث يحطّم ألعابه، أو ما يقع في يدَيه، يصرخ بعصبية، يمارس حدّة العناد، أو تظهر بوادر القسوة على سمات وجهه.

إنه يفعل أي شيء كي يسبب لهما إزعاجاً، مثلما سبّبا له إزعاجاً، وقد يؤدي ذلك إلى ممارسة العنف والإهانة على الطفل ذاته من قِبل أبوَيه لإسكاته بالقوة مما يسبب له انتكاسات عصبية حادة وهو يعجز عن الرد والدفاع في الحالتين، ويتحمّلهما على مضض، مما يترك أثراً، ويشكل منعطفاً بالغ الخطورة على مستقبله السلوكي.

إنه طفل ملول، غامض، مهزوم، مرتعب، لا يشعر بثقة، يفقد الشعور بالأمان، لا يعرف عند أي كلمة يتلقى إهانة أو صفعة.

طفل مذعورمرتعب على الدوام، يفقد الشعور بالمسؤولية والانتماء، يمشي بين رفاقه منكسراً كما لو أنه شبح، يفتقد طلاقة

وتلقائية الطفولة، إنه طفل بيد أنه يعيش خارج فضاء طفولته.

كلّما تحدّث بكلمة، لا قى صفعة،

كلما بدرت منه حركة، لاقى إهانة،

كلّما نظر نظرة، لاقى تهديداً ،

كلما طلب مطلباً، قوبل باستهزاء من أبوَيه ،

وقد ينتهي في نهاية المطاف أنه يعاقب نفسه، ويعاقب فئات من المجتمع بطريقة مباشرة، أوغير مباشرة بشكل علني أو بشكل متوار.

إنه شخص يقف على قدمَين غير سويتين، ينظر بعينين غير سويتين.

ضبابي غامض مهتز من الداخل، عانى أهوالاً في نشأته جعلته يشعر بحالة عداء مع أشخاص مفترضين، يسعى إلى صناعة أعداء حقيقيين له كي يدخل في حالة حرب حقيقية معهم، وينتصرعليهم كرد فعل على ما عانى من هزائم وتوبيخ في الطفولة.

إنه شخص شيزوفريني وصولي فهلوي، يتنازل عن أي قيمة إنسانية من أجل أن يبلغ مواقع هامة، ويملك استعدادا أن ينقلب

حتى على معلّمه الذي أنصبه في ذاك الموقع، كي يغدو هو معلّماً، أو كي يحقق منافع يراها مجدية بالنسبة إلى برنامجه في شن الحرب على الآخرين.

إنه كائن انتقامي، عدواني محارب بامتياز يمتهن أدواته بشكل جيد، بيد أنه في نهاية المطاف لا يملك إلاّ أن يصوّب هذه الأدوات بشكل بالغ الدقة والقسوة إلى نفسه مهما تدرّجت به المراتب.

رأى ألماظ أنه إزاء منعطف بالغ الخطورة في مسيرة حياته، إنه يربي طفلين عليه أن يحسن ويجيد تربيتهما، ويهيئهما كي يقدّما شيئاً مجدياً ذا قيمة حقيقية للمجتمع، يكونا بطلين يصنعان لهما تاريخاً.

بدأ يجلب لهما كتب الأطفال، وبدوره يقرأ آثار أعلام أهل الاختصاص المركّزة في تربية الطفل ذاته، فيكتشف يوماً إثر يوم برفقة / تُقى / لمسات إنسانية هامة، وميزات خاصة بعالم الطفولة الذهبي.

يقول لـ / تُقى / وهما يتأملاّن شقاوة طفليهما:

عندما ينجب الأب طفلاً، عليه أن يدرك آنئذ بأنه تحوّل إلى

مرب وأديب للطفل.

فتجيبه قائلة: عندما تنجب المرأة طفلاً، عليها أن تدرك جيداً بأنها تحوّلت إلى مربية وأديبة أطفال.

مع حلول الصيف وبينما كان مع زوجته على السطح كي يهيئا السرير والمكيّف لإنزالهما باستعانة بعض الجوار إلى الحوش.

في تلك اللحظات الصباحية من يوم الجمعة قالت له زوجته وهي تجوب بنظرها الأسرّة المحجوبة بالستائر فوق الأسطح وكأنها تنظر إليها أول مرة: النوم على السطح يشرح النفس يا ألماظ. شاركها النظر إلى جمالية الأسرّة المنتشرة على الأسطح وقال: معك حق يا تقى.

قالت: لا نحتاج سوى إلى سلّم حديدي، وارتفاع بالقرميد على دائر السطح.

عندها راوده شعور بالتردد في إنزال السرير، واكتفى بإنزال المكيّف.

في الأسبوع القادم ذهب إلى الحدّاد، وجلبه كي يأخذ المقاس ويخبره بتكلفة السلم الحديدي، ثم ذهب إلى البنّاء و استطاع أن

يأخذ فكرة عن تكاليف هذه الإضافات إلى بيته.

بعد نحو أسبوعين آخرين رأى بأنه مستعد أن يتحمل هذه التكاليف، فشرع في تنفيذ الفكرة.

استغرق ذلك نحو عشرة أيام من العمل حتى أصبح السطح جاهزاً لاستقبالهما في هيأته الجديدة.

بدأ الصعود إلى السطح بمثابة نصف نزهة بالنسبة لعائلته الصغيرة، حيث يمضون معظم الوقت عليه، تناول الفطور في الربيع، والمشاوي عند الغداء، وفي الشتاء الجلوس بدفء الشمس، وفي الصيف السهر والنوم.

فتقول تقى: أشعر بأننا امتلكنا مساحة أرض إضافية في بيتنا، ماذا كنا سنفعل دون السطح ؟.

يقول: حتى ميرهان ونجد يستنشقان هواءً صحياً نظيفاً يحتاجان إليه لنموهما الطبيعي.

اجتاحته ثورة الذكريات وهو مستلق على ظهره في عمق العتمة منتظراً انتشار الضوء في الأفق.

امتدت كفه إلى جهاز هاتفه الخلوي لينظر إلى الساعة، ففوجئ

بنفاذ شحن البطارية.

أراد أن ينهض، بيد أن متعة الاستلقاء على الظهر في حالة استرخائية لذيذة جعلته يلبث على ما هو عليه متذكّرا بأن هذه الحالة لا تأتي دوماً، فالإستيقاظ من نوم عميق يعقبه أحياناً فزع، أو تشوّش في الذهن، أو اضطراب في التفكير.

أحيانا تمضي عليه فترة يكون فيها مضطرباً، يعتريه الجزع كلّما أغمض عينيه ليغفو، فيجفل كأنه نصف نائم، ونصف يقظ، يترنح بين أن يسلم للنوم، أويسلم لليقظة، حيث تجرّه أمواج النعاس إلى ضفاف مملكة النوم، وتدفعه هوجاء اليقظة إلى الفرار من الفراش، لكنه ما يزال يصر بأن لا شيء به ويستبعد مراجعة طبيب بهذا الشأن مهما كان اختصاصه متمتماً في قرارة نفسه: لأنني أدرى بحالتي من أي طبيب نفسي، ليس بوسع أمهر طبيب في العالم أن يقدّم لي شيئاً دون الاستناد إلى معلومات يحصل عليها مني، وإخضاعي لفخفخات تكهناته من خلال ما أدلي به من إجابات.

عندما يريد أن يطبّق هذه الفكرة، ويخفف حالة الإرهاق عن كاهله، يقلّص عاداته الغذائية ويمارس رياضة المشي، يسترخي لمدة أسبوع في البيت يستمتع بالهدوء مع زوجته وطفليه.

عندئذ يشعر بلياقة حصان تندفع إلى بدنه، فيشعر بمتعة قوة البدن، وجمالية صفاء الذهن، يعتريه إحساس بروعة العزيمة، وبهاء الثقة بالنفس في ثنائية صحية نفسية بات على خبرة بها، ويرى أن ذلك ما يلزمه كي يعالج حالة الأرق التي تجتاحه، ولا يريد أن يتجاوز بها تلك الحدود.

أحياناً يغمض عينيه ويسلم للنوم دون تفكير وكأنه في حالة خدر، وأحياناً ينهض، يقوم بحركات عضلية عدّة دقائق، ثم يعود إلى الفراش، يشرد قليلاً حتى يسلم نهائياً لسطوة النعاس، ولا يشعر إلا بزوجته توقظه كي يتناول الفطور ويتهيأ للذهاب إلى مشغله، لأن موعد باص روضة الأطفال قد دنا، وسوف تخرج مع ميرهان، ونجد، كون ميرهان تدرس في ذات المدرسة في صفها الثالث الابتدائي، ونجد مستمع في الصف الأول، بناء على وجود بند في المدرسة يُحق للمعلمات والمشرفات والعاملات بموجبه أن يصطحبن أبناءهن سواء إلى الروضة أو إلى المدرسة مجّانا ما دمن على رأس دوامهن.

قبل أن تتزوّج بسنتين، تعيّنت في هذه المدرسة الخاصة وفق شهادة المعهد التربوي كونها لم تجد وظيفة لدى إحدى المدارس

العائدة لوزارة التربية، وعندما علمتْ عن مسابقة لاختيار مشرفات في الروضة، تقدّمت بوثائقها، وتم تعيينها عند بدء العام الدراسي..

في الصباح الباكر يأتي سائق الباص إليها، ثم ينطلقان لحمل الأطفال من بيوتهم وفق البرنامج الذي تعدّه، والباص يخرج من شارع ليدخل شارعاً، يخرج من زقاق، ليدخل زقاقاً، يخرج من حي ليدخل حياً، تستلم الأطفال من أيدي أمهاتهم وتضع إشارة الصعود عند كل اسم، ثم تعيدهم إثرانتهاء الدوام، فتضع عندذاك إشارة النزول عند تلك الأسماء في القائمة التي تجددها كل يوم آخذة في الاعتبار المستجدات التي تطرأ، حيث يمكن تعرّض البعض إلى مرض، أوانتقال سكني من حي إلى آخر، أو ترك الروضة بسبب السفر، وكذلك تدوّن ملاحظاتها، وتضم القائمة إلى ملف العام الدراسي.

بعد سنتين من عملها، وقعت عيناها على ألماظ لأول مرة في الحي، كان ذلك عندما وقفت أمام باب طفلة دون أن تخرج لتصعد الباص، فرنّت الجرس، ولم يفتح أحد الباب، حينها مدت يدها إلى جرس الباب المجاور، ففتح ألماظ.

في تلك اللحظات راوده إحساس أنه في حلم، وأنه يقف أمام امرأة مميزة. لبث صامتا ينظر إلى رحابة وجهها الذي يشع نوراً.

أدرك وهو ينظر إليها أنه يقف أمام امرأة ليست كالنساء اللواتي يراهن كل يوم.

بعد لحظات خجل قالت له: أعتذر منك يا سيدي، لدينا طالبة في هذا البيت المجاورلك، جئنا كي نأخذها إلى المدرسة، ولم يفتح لنا أحد الباب، نسألك إن كنت تعلم سبب ذلك حتى نبرر غياب الطفلة اليوم في سجلاتنا.

خرج ببيجامة النوم إلى الباب المغلق، وقبل أنّ يمدّ يده إلى الجرس، زلّت به قدمه، فسقط على الأرض، عندئذ نزل سائق الباص وصارا يعتذران له، بينما احتقن وجه تقى وهي تشعر بأنها تسببت له في ذلك، عندذاك وبينما أخذ في النهوض وهو ينظر إلى حجم الوحل العالق ببيجامته، لاحت أم الطفلة مسرعة في مدخل الشارع، وعندما لمحتهاتقى، بادرت إلى تقديم اعتذارها الشديد على إزعاجها له في هذه الساعة الباكرة من الصباح، وعلى ما وقع له بسببها.

وصلت المرأة حاملة علبة صغيرة من عصير البرتقال مع قطعتَي شوكولاتة وكليجة مغلفة قائلة: البارحة نسي أبوها أن يشتري لها، اعذريني يا أختي، اضطررتُ أن أذهب إلى الدكان لأشتري، لأنها تبكي وترفض الخروج دون أن تحمل في حقيبتها شيئاً.

ثم شرعت تفتح الباب بالمفتاح على عجل وهي تتمتم كأنها تحدّث نفسها: نبهت عليها ألاّ تفتح الباب لأحد. . الحذر واجب يا أختي. وما لبثت أن نادت: مباركية، مباركية، تعالي حبيبتي باصك وصل بعد قليل خرجت الطفلة، فتناولتها تـُقى وقبّلتها على خدّها قائلة: تعالي أمّورة. . تعالي شطورة.

لحظة انطلاق الباص، راودها إحساس بأن سحراً تم رشّه على الطفلة، هذا السحر الذي أمتد إليها فغدت مسحورة.

لأول مرة أحست بمشاعر أن يكون الإنسان مسحورا. لم يعد يعنيها في العام كله شيء سوى متى تُعيد / مباركية / إلى البيت لعلها تظفر بنظرة من ذاك الرجل الذي بدا سحريا، يعرف كيف يرمي شباكه إلى المرأة فيأسرها ويهيمن على كل مشاعرها، ويصبح السيد الأوحد في حياتها.

هكذا منذ النظرة الأولى، يقلب كل شيء رأساً على عقب، يخلّ بكل الموازين، يجعل إعادة النظر في الترتيبات والقناعات الثابتة ممكنة التحوّل.

إنها المرة الأولى التي تنظر فيها إلى رجل نظرات مختلفة وهي التي تجاوزت سن العشرين بسنة واحدة.

كل الرجال كانوا سواء بالنسبة إليها، لا رجل يختلف عن رجل، لم يسبق لها أن نظرت إلى رجل وخطر لها أنه سوف يكون زوجا لها، وهي التي لم ترَ رجالاً كثيرين في حياتها، وتستطيع أن تذكر الرجال الذين تحدّثت معهم، وذلك بسبب تشدّد والدها في تربيته لأبنائه، فهو رجل صارم في تربيته لأولاده، قليل التسامح معهم، كثير العقاب والتوبيخ والترويع لهم.

يعمل موظفاً مسّاحا في دائرة المساحة التابعة إلى السجل العقاري، متنقلاً بين الأرياف والقرى في مهمات مسح الأراضي الزراعية، وبيان حدود ملاّكي الأراضي من خلال ما يحمل من مخططات عقارية، وأجهزة القياس، ومحاضر التحديد، وهو يرتدي قبعة على رأسه ويباشر عمله بحزم مع زملائه، عندما تنشب نزاعات

بين مالكي الأراضي على بيان الحدود.

عندما بلغتْ تقى عامها السادس بدأت ترتدي الحجاب، تخرج محجبة ومنقبة مع أبيها عند الضرورة، وعندما يكون غائبا، يخرج معها أخوها جمعات الذي يعمل حوذياً في دكان صغير أشتراه له أبوه بعد حصوله على الكفاءة، وخروجه من المدرسة، عند ذاك قال له أبوه: لن تصبح طبيباً، ولا وزيراً ياجمعات، بضاعتي وأنا أخبرها، إذا وضعت عقلك في رأسك، ستكون حوذياً ممتازا تكسب لقمة عيشك بعرق جبينك، عندها سيكون لك محل، ويكون لك بيت وزوجة وأولاد.

كان جمعات إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره، وكان ثابت على معرفة بأحد الحوذيين من سكّان المدينة، يملك دكاناً يمارس فيه مهنته.

ذات يوم ذهب إليه ثابت وطلب إليه أن يعمل ابنه لديه أجيراً، عندئذ رحّب الرجل به

وقال: أمرك سيد ثابت، بكرة ينزل للشغل، تكرم شواربك.

عاد إلى البيت بفرح قائلاً لابنه: تطيع معلمك حتى تتعلم منه

الكار، وبعدها تقول له: شكرا معلمي، السلام عليكم، أنت في حالك وأنا في حالي.

هزّ جمعات رأسه بالموافقة، فأضافت أمه: بكرة تصير صاحب دكان تكسب منه الذهب، يحتاجك الناس وهم يقولون: معلم جمعات.

قال ثابت: حتى الأطباء والقضاة سيحتاجون إليك، وعندما تدخل أي دائرة، أو أي محل لقضاء حاجة، يرحبون بك ويعتنون بك، كي ترحب بهم وتعتني بهم عندما يأتوا إلى حاجتهم في دكانك.

بعد سنة من عمله عند الحوذي، اشترى أبوه محلاً صغيراً في زاوية بناء في قلب المدينة، ثم اشترى له مكنة خياطة، فأصبح جمعات يعمل في محله ويستقطب شرائح الناس بسبب معارف أبيه وسعة علاقاته من خلال وظيفته، فبدأ الناس يتوافدون إليه من الأرياف والقرى والأحياء حاملين أحذيتهم لإصلاحها.

أما / ديار/ الأخ الذي يصغر جمعات بأربع سنوات فهو /مغولي/ يمضي أوقاته في الشوارع وبين البيوت مرتدياً جلباباً ناصع

البياض ويعتمر على رأسه قبعة صغيرة بيضاء، وبيده مسبحة.

أحيانا يغيب عن البيت أياما عندما يصطحبه بعض الناس معهم إلى القرى ويكرمونه تقديرا لعاهته رغم أن أباه لا يرغب في خروجه، ولطالما ربطه في البيت أياماً كي لا يخرج، بيد أنه يتخلص من الحبل عندما تتدخل إحدى أخواته خلسة، أو يتدخل جمعات، أو تتدخل خالته نسيمة، فتحل عن يديه وقدميه الحبل الذي عقده أبوه بشكل جيد، وهي تشفق بصرخاته وهيجانه، ولطالما تلقوا ضربا مبرحا، وتوبيخاً منه نتيجة هذا التدخل، لكنه في نهاية الأمر فقد الأمل، فترك له الحبل على الغارب، وأقنع نفسه بما آل إليه حال ابنه.

لبثت حياتهم تمضي وفق هذا النمط حتى ألفوا أنفسهم يعيشون مع خالتهم نسيمة عندما ماتت أمهم بعد أن وضعت ابنتها الأخيرة بارعة بيومين نتيجة النزيف، حيث تفاجأ الناس بعد ستة شهور بأن ثابتاً تزوّج أخت زوجته / نسيمة / التي كانت إذ ذاك تصغره بخمس وعشرين سنة، تزوّجته رغم أنها فتحت على نفسها باباً من الأقاويل والإشاعات ورغم معارضة أخوتها وأبوها، بيد أن الأم

والأخوات كن مترددات في الرفض، وتؤيدن وجهة نظر الأخت التي أرادت أن تجعل من نفسها كبش الفدا في سبيل إنقاذ أبناء أختها المتوفية، وذلك أقل ما يمكنها أن تقدّمه لذكرى أختها فهو كما تقول: شخص مجنون، سوف يدمّر الأطفال بأفكاره المتشدّدة وأحاديثه السوداء التي يفزعهم بها، وقد نموا وترعرعوا على هذا الفزع كما كانت تروي لها أختها / ابتهال / وهي تشكو سوء معاملته لها ولأولاده.

بل حتى أنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتتهمه بأنه سبب مباشر في موت أختها، وهي التي كانت أحيانا تمضي في بيتها أسبوعاً ثم تمضي أياما متقطعة أخرى في الشهر، حتى باتت تعرف الكثير من الأسرار وطبيعة العلاقة التي كانت تربط واثق بزوجته وأولاده.

باتت تعرفه بشكل جيد كما كانت تخبرها أختها عن بعض طباعه، ولذلك ولد إحساس بالأمومة في داخلها تجاه الأولاد الذين كانوا يهرعون لملاقاتها عندما كانت تأتي وتصطحب لهم السكاكر والبسكوت والحلوى، وبعض الهدايا المتواضعة التي كانت ترسلها معها أمها للأطفال.

كان حضور نسيمة يخفف عن أختها ما تلقاه من ألوان القهر، فتحدّثها عن أهمية أن تتمتع بأكبر قدر من الصبر في سبيل الحفاظ على كيانها الأسري.

كانت تقى تتفرّد بأختها وهي تروي لها قسوة زوجها وعنفه بحقها، حيث كان يعرّيها ويسكب الماء الساخن على جسدها، ثم ينهال على جسدها بالسوط، وأحياناً يدس رأسها في إناء الماء، ثم يلدع أصابع قدميها بملعقة يسخنها على النار حتى تغدو حمراء، فيلسع أصابعها وهي تزداد صراخاً وذعراً، بينما يتكور الأولاد بوجل في زاوية وهم ينظرون إلى أبيهم الجلاّد وهو يجلد أمهم دون أن يجسروا حتى على البكاء لأن أي صوت يصدر من أحدهم يعني تلقيه ضربة سوط شديدة على بدنه، وهو يخبرهم بأنه يتعمّد ذلك على مرآة من الأطفال كي ينذرهم بأن مصير أي شخص في البيت سيكون كمصيرها إذا عصى له أمراً، أوخرج عن طاعته.

ثم تخبره أنه أحياناً عندما يشتدّ به الغضب، ويريد أن يبرح البيت للذهاب إلى العمل، يقفل عليها ليس باب الحوش فقط، بل باب الغرفة، فلا يكون أمامها سوى أن تمضي الوقت مع أطفالها في

غرفة محكمة ريثما يعود، وفي بعض الأحيان يصعّد من عقابه لها، فيدعها في غرفة موثوقة اليدين والقدمين والفم ثلاثة أيام حيث لا طعام ولا شراب، وعندما يفتح عليها الباب، يراها مغمية، عندئذ يحل عنها الحبل ويرميها بين أطفالها الذين لا يجسرون حتى على البكاء بحضوره لأنهم يدركون نتيجة ذلك.

لكن عندما تزورهم نسيمة يتظاهر بأنه يحسن إليها، تتفاجأ إبتهال وهي تنظر إليه بازدراء يمازحها ويلاطفها كما لو أنه زوج ودود، وأب حنون، وأن زوجته امرأة جلفة عصابية يحتمل معها العيش على مضض حفاظاً على أولاده حتى أن نسيمة تصدقه وترى أن أختها تضخم في الأمر قليلا، فما تلبث أن تقول لها: إنه رجل حنون يا ابتهال، ها هو يجلب لي جوز الهند، ويكرمني، ولم يسبق لي أن سمعت منه كلمة جارحة بحقك أو بحق أحد الأطفال، أو حتى بحقي.

فتهز إبتهال /رأسها إمتعاضاً وتركن إلى الصمت.

لكنها في الليل عندما ينام ثابت، تسهر مع أختها إلى ساعة متأخرة تروي لها وقائع ما تلقاه من ألوان العذاب والويل من هذا

الرجل العدواني، ولا شيء يصبرها على العيش معه سوى أطفالها هامسة: راح يجنن الأولاد يا أختي إذا طلعتُ من البيت هذا / الزمكّ / وهي تلقبه بـ / الزمكّ / نظرا لقصر قامته.

عندما ماتت كان ابنها الكبير جمعات في السنة الثانية عشرة، عندها فوجئت الخالات أنه حذّر عليهن دخول بيته لأنهن كما قال لم يعدن محرمات له وهن في الوضع الراهن أجنبيات عليه، لا يحل له أن يستقبلهن في بيته.

أدى قراره هذا إلى حرمان الخالات من رؤية أبناء أختهن في بيته، لكنه كل شهر كان يأخذهم إلى بيت جدهم مرة واحدة يمضون ثلاث ساعات في المساء ويعيدهم دون أن يتحدث مع الخالات كلمة واحدة، أما بارعة، فقد أخذها إلى إحدى أخواته لتتولى رضاعتها.

في الشهر الخامس، فوجئ الأب به يأتي مساء دون الأولاد ويطلب إليه الزواج من ابنته نسيمة، هكذا قالها دون مقدمات، وبعد جلوسه بربع ساعة فقط.

كانت مفاجأة غير متوقعة لأبيها حتى أنه أحس بشيء من

الإهانة في بداية الأمر، إلا أنه تمالك نفسه وقال: سمعت مطلبك يا ثابت أفندي، وجوابي سيصلك بعد أيام.

عندما خرج ثابت، اختلى الرجل بزوجته وأخبرها في الحال بمطلبه، وهو يكظم غيظه، تلقت الزوجة أيضاً الخبر بدهشة وشيء من الصدمة، ورأت أن تتأنى في إعلام ابنتها ريثما يمضي بعض الوقت.

قالت لزوجها: لنفرض أن شيئاً لم يحدث، حتى يفرجها الله.

بعد يومين من التفكير والتحاور بينها وبين زوجها، قررت أن تخبر ابنتها بالأمر حتى تقرر ما تراه في هذا الشأن.

في المساء حملت كأساً من عصير البرتقال، وتفرّدت بها قائلة بأنها تريد أن تحدثها في شأن خاص.

جلست نسيمة في حالة إصغاء لما تقول الأم التي جلست قبالتها وما لبثت أن قبضت بكفيها على كفَي ابنتها قائلة لها بلهجة شديدة الجدّية، وهي تصوّب نظراتها إلى عينيها: اعلمي يا بنتي بأنك تملكين كامل حريتك في شأن مصيري كهذا، قرري ما ترينه صواباً، أما نحن، فلا حق لنا أن نبدي رأينا قبل رأيك كي لانترك أثراً على ما

ما تفضين إليه، لكننا نوافق على ما ترينه صواباً بالنسبة لك.

عندما علمت بمطلب ثابت، انبجست دموع من مقلتيها، وعلت غصة إلى حنجرتها، دون أن تجسر على النطق، انهمرت الدموع من عينيَ الأم كذلك، ولم تملك سوى أن تتركتها في شأنها.

بعد خروج الأم بنحو ساعة، عادت إليها كرة أخرى حاملة إليها كأساً من اللبن الرائب، وخرجت.

شردت نسيمة في الأمر طويلاً ولبثت في صراع بين رغبتها في رعاية أطفال أختها، وعدم تصورها أن تكون زوجة لثابت، لكنها بعد ثلاثة أيام بلغت فكرة توفيقية رأت أن تطرحها على ثابت لتسمع رأيه قبل أن تتخذ قرارها النهائي بشأن مطلبه.

بدورها أعلمت الأم زوجها بما أرادته نسيمة، فرأى أن تصحبها إلى بيت الرجل كي تخبره بما انتهت إليه، ويتفقان على شيء يعينهما في اتخاذ قرار مناسب.

ذهبت المرأة مع ابنتها إلى بيت ثابت الذي استقبلهما بترحاب، عندئذ أخبرته بأنها ستوافق على طلبه بشرط ألاّ تنجب، وما دام يقول بأنه لايريد لامرأة غريبة أن تدخل على الأطفال، فهي أيضاً

ستوافق فقط من أجل ألاّ تدخل امرأة غريبة على الأطفال، وهي لاتشعر نحوهم بأي مشاعر أمومة، ثم قالت: إن وافقتَ أن تتعامل معي كمربية، وكزوجة عاقر، وافقتُ على مطلبك هذا، وكنتُ لهم أمّاً، ولذلك سأحرم نفسي من الإنجاب، لأنني لو أنجبت طفلاً، لاأملك من أمري أن أفضله عليهم، وعندها لن يكون هناك فارق بيني وبين امرأة غريبة لاتقربهم بصلة.

عندها قال ثابت بأنه اختارها كي تكون مربية لأطفاله، وأبدى موافقته على مطلبها، وأثنى على موقفها.

حين مّدت نسيمة قدميها إلى البيت، لا تدري لماذا راودها إحساس داخلي بأنها تمثل شبح أختها.

علت حنجرتها غصة في ساعة ما بعد الغروب تلك، حيث أحضرثابت سيارة، وأصعدها كما لو أنه يعيدها إلى بيتها، وليست عروساً تزف إلى ليلة دخلتها.

بدا كل شيء في البيت باهتاً، وهي تتخّيل نظرات أختها، يودي في سمعها صدى صوتها.

أدخلها إلى غرفة النوم، ومن جديد امتلأت عيناها بالدموع

وهي تشعر بشيء من الفصام بين أنها في حلم، أم في واقع، وكلمات أختها تجلد سمعهاوهي فراش المرض: الأولاد أمانة في عنقك يا نسيمة، حافظي عليهم كما تحافظين على عينيك، لا شيء لي غير أولادي في هذه الدنيا، إنهم رائحتي في الحياة، ثابت مجنون، سوف يشردهم.

بدأت الأفكار تراود مخيلتها، فهل كانت تقصد أمراً كهذا دون أن تصرِّح به جهاراً، أم كانت تقصد أن تهتم بهم عن بُعد، هل تسرّعت في قرارها، أم أنها صنعت عين العقل كي تبقى مع أبناء أختها وتهتم بهم دون أن تتركهم لامرأة أب غريبة لا تشعر نحوهم بأي صلة قرب، وقد تكون سبباً في فشلهم وتشردهم؛ في صبيحة اليوم التالي رأت الوجه المتواري لثابت، الوجه الذي كانت أختها تسهب الحديث عنه، إذ أخبرها أنه في عجلة من أمره، ولا بد أن يخرج كي يعيد بارعة من بيت أخته وسوف يرجع مساء محذراً إياها ألا تفتح الباب لأحد مهما كان الطارق.

لبثت تحتمل وهي تربي الأولاد سنة بعد سنة برفقة زوجها الذي يرعبهم بأحاديثه عن الخطف، ومداهمة البيوت، ثم عن

أهوال الموت والعقاب.

أحيانا كانت تراه يتقصد بث الرعب فيهم من خلال إصدار أصوات مفزعة في منتصف الليل، وهو يتمثل أن لصاً قد قفز إلى الحوش، فيصرخ به حتى يهرب اللص،

أو على حين بغتة يُخرج مسدسه ويطلق رصاصة، وعندما ينهضوا مذعورين يقول بأنه أطلق النار على أشخاص كانوا يتسلقون الحائط، فهربوا، أولعل أحدهم سقط مغشياً بالرصاصة، ثم يسارع بالركض إلى الشارع، وبعد لحظات يعود قائلا: لعنة الله عليهم، لقد فلتوا هذه المرة أيضاً.. احذروا، لا تفتحوا الباب لكائن مَن كان بغيابي.

لم يكن يدعها تبادر بفعل أي شيء يخص البيت، وكأنه ليس بيتها، وعندما تطلب منه أن يجعلها تفعل أشياءً تجعلها تشعر بالمسؤولية تجاه البيت، يردّ عليها قائلاً: صحيح أنكِ زوجتي على سنة الله ورسوله، لكننا اتفقنا أن يكون ذلك كي يحل لنا العيش معاً، لكن الحقيقة أنت خادمة للأولاد فقط، لايحق لك التدخل في شؤون البيت.

وعندما تريد التحاورمعه، يصفعها، ثم يجلدها، ويربطها في غرفة محكمة لمدة يومين دون أن يفتح الباب لأي سبب كان؛ يقع عليها بالضرب المبرح في هذين اليومين، يهينها، يلسع جسدها بأعقاب سجائره، فتقول: لتعلم ياظالم بأنني لاأحتمل ذلك من أجل أبنائك، بل من أجل الأولاد، لو لم يكونوا أبناء أختي لتركتك منذ الشهر الأول.

ذات يوم عندما رجع ثابت من عمله ولم يجد في البيت ابنته بارعة التي كانت في ربيعها الثامن، احتقن وجهه سائلاً عنها، فأخبرته نسيمة بأنها عند صديقتها في بيت الجيران؛ لم ينتظر أن تعود الطفلة، بل هرول بخطواته خارجاً إلى حيث كانت مع صديقتها، وجرجرها من شعرها إلى البيت، ثم بدأ ينهال عليها ضرباً بالسوط حتى بح صوتها بكاءً، ثم عاد بالسوط إلى نسيمة وأنفاسه تتسارع، وبدأ ينهال على جسدها دون تمييز ضرباً مبرحاً لأنها سمحت لها الخروج ودخول بيت الجيران واصماً إياها بأنها بخائنة الأمانة.

ينهال عليها جلداً وهو يوبخها بصوته المرتفع: لو تزوّجتُ امرأة غريبة، لما تركتْ الطفلة تذهب إلى بيت الجيران، لنفرض أن

مراهقاً في البيت اغتصبها، لنفرض أن شخصاً خطفها من الشارع واغتصبها.

لو كانت ابنتك لما حدث ذلك، لكن لا أحد يحل محل الأم.

. أنتِ تريدين التخلص من الأطفال، بوحي ما بنفسك، ألتعلمي جيداً بأنني لم أفرض عليك الزواج، وقد وافقت بمحض إرادتك، ولايجوز لك أن تتركي الأطفال في الشوارع، أوفي بيوت الجيران.

ثم هرع إلى المسدس، وأطلق رصاصة بالقرب من رأسها قائلاً بغضب: هذه الرصاصة لن تخطئك المرة القادمة إذا عدتُ ولم أجد أولادي في البيت، لو تركتهم في حراسة كلبة، لكانت أكثر أمناً بهم منك.

ثم عاد بالسوط إلى الطفلة التي لمّا تزل تنشج بنبرات كسيرة، وشرع في الضرب على جسدها، حينئذ صرخت نسيمة: الرحمة بها يا ظالم، دع عنك هذا السوط الأعمى، أو هيا اضربني بدلاً عنها، تذكر بأن ربها يتجاوز لك عن ذنب ارتكبته، وهو قادر أن يعاقبك بالقدر الذي تعاقبها به، رغم أن تجاوزك لحدود ربها هو أعلى من تجاوزهذه اليتيمة لحدودك.

كان يسمع نداء الرحمة والشفقة وهو يزداد ضرباً، حتى نال منه الإرهاق.

في المساء عندما راح يمدّ يده لإنارة المصباح، تلقى لسعة كهرباء قذفته إلى الحائط المقابل ليسقط مغمياً عليه، صرخت نسيمة حتى دخل بعض الجيران، وأسعفوه على جناح السرعة إلى المشفى، وفي اليوم التالي أعادته نسيمة إلى البيت وقد أصيبت يده اليمنى مع قدمه بشلل نتيجة الصدمة الكهربائية، فاضطر إلى المكوث في البيت طريح الفراش يتلقى على رأس كل شهر معاشه التقاعدي بسبب ما ألم به.

عندها أحست نسيمة بأن طفلاً آخر أُضيف إلى مسؤوليتها، فقد تحول ثابت إلى طفل يحتاج أن تبقى إلى جانبه وتعينه في تلبية احتياجاته.

في هذه الأجواء ترعرعت تـُقى مع أختيَها وأخويَها دون أن تتحدث مع رجل سواء من الأقرباء، أو من الجوار، حتى أن أباها اضطر في نهاية الأمر للموافقة على تكملة دراستها، وذلك عندما هددته نسيمة بأنها سوف تتركه وتعود إلى أهلها إذا أخرج البنت من

المدرسة، فهدأ حينذاك وقال بأنه يوافق أن تذهب إلى المدرسة وتعود إلى البيت، وإن سمع أنها خرجت عن الطريق سوف يحرمها من الدراسة.

ها هي تنظر لأول مرة نظرات جديدة ومختلفة إلى رجل، تعتريها رعشات وخفقات جديدة عليها، في الظهيرة عندما عادت، أنزلت مباركية، ووقفت تتحدث مع أمها عن سلوكها الممتاز في الحضانة، وأطالت الوقوف على غير عادتها بأمل أن تلمح ذاك الشخص الذي بدا يهيمن على تفكيرها، ويجعلها في حالة شرود.

غدا الشارع سحرياً بالنسبة إليها، وكأن لا طفل في الحضانة سوى مباركية، ولا شارع غير شارعها.

تخيله، تسترجع بذاكرتها كل كلمة قالها، كل كلمة قالتها له، حركته وهو يخرج ويريد أن يطرق باب الجيران، دون أن تخبر أحداً حتى خالتها نسيمة التي تثق بها.

تأتي في الصباح، وتعود عند الظهيرة، وما يزال الباب مغلقاً كأن لا أحد يسكنه، لكن

بعد نحو شهر وبينما كان الباص يدخل الشارع، لمحته قادماً إلى

البيت، عندما توقف الباص، نزلت مسرعة لتقع عيناها عليه، وتقع عيناه عليها،

من جديد تأججت في قلبه المشاعر وهوينظر إليها، تجرأ قادماً وهو يسألها عن اسم الروضة التي تعمل فيها، وعندما أخبرته، سألها إن كان بإمكانه زيارة تلك الروضة.

رحبت بذلك، فقال بأنه عند الساعة العاشرة من صباح يوم بعد الغد سوف يكون هناك.

في تلك اللحظات أحست تقى بأنها ملكة العالم بأسره، ولبثت تعد الساعات حتى حان موعده.

كانت قابعة في غرفة تنظر من خلف زجاج النافذة إلى الباب الرئيسي للروضة حينما لمحته يلج.

انتفضت من إذ ذاك، وهرعت تستقبله بترحاب جم وقد احمرت وجنتاها نجلاً، ثم راحت تريه الأجنحة والميزات، وتخبره عن نظام التدريس قائلة: نحن بالخدمة يا سيدي، أنا اسمي تُقى.

شكرها على حسن استقبالها له وقال: اسمي ألماظ. . أعمل خطاطاً.

قالت: هل لديك طفل تريد إدخاله الروضة؟

قال: لا، في الواقع أنا عازب، ولكن. . توقف قليلاً عن الكلام، ثم استأنف يقول: المعذرة، لا أستطيع أن أخادع نفسي، أو أخادعكِ، الحقيقة أنني جئتُ كي أسألك إن كان بإمكانك استقبالي بهذه الحفاوة إذا زرتُ بيتك؟

قالت: على الرحب والسعة يا سيدي أنت تشرّفني وتشرف بيتنا، بل يتشرّف كل مَن في البيت بزيارتك الكريمة.

قال: سوف آتي مع أمي يوم الجمعة مساء. . هل توافقين؟

قالت مرحباً بك وبمن معك، سأخبر أبي كي يكون بانتظارك.

عند عودتها إلى البيت، أخبرت خالتها نسيمة بالأمر، ففرحت ولأول مرة أحست بلذة ثمرة رعايتها، فهاهي تقى ستتزوج وتفتح بيتاً، راودها إحساس بأنها ستنجب لها حفدة.

قالت: سوف يأتي الرجل خاطباً يا بنتي، ولذلك سيجلب أمه.

أحست تقى بالخجل وراحت تحكي لأختيها تقية، وبارعة بينما دخلت نسيمة على ثابت المستلقي على ظهره وأخبرته أن نصيب ابنته سيطرق الباب يوم الجمعة القادم.

استغل ثابت الأيام مكلّفاً أحد أخوته كي يسأل عن الرجل وعن عائلته، ثم أخبر نسيمة عدم ممانعته لهذا الزواج.

عندما حضر ألماظ مع أمه، استقبله ثابت على فراشه في غرفة الضيوف، وتقدمت تقى لتصطحب أمه إلى غرفة النساء.

بعد الموافقة المبدئية، عاد ألماظ مع أبيه، وأخواله، وأعمامه، وبعض المقربين مع نسائهم بعد أسبوعين لطلب يدها بشكل رسمي.

كانت المرة الأولى التي تكتشف فيها عالم الرجل، تتعرف على مزاياه عن قرب وكأنه ملخص لرجال العالم جميعاً، بدأت توقره وتحترمه بكل ما تملك من حذر وحرص، وتخجل أمامه من الحديث في هاتفها الخلوي، أو الأرضي، لذلك عندما كانت تدخل البيت عائدة من الروضة تقفل الهاتف، وإذا اضطرت للحديث مع أهلها في الهاتف الأرضي، كانت تشعر بحرج وخجل، فيرى ألماظ ذلك، ويتركها مع الهاتف.

بدأت تنفتح على وقائع حياة جديدة لم يكن لها عهد بها من قبل.

تتعلم منه كيف يمكن للإنسان أن يعيش ويقول الحقيقة،

كيف يمكن له أن يكون كائناً حقيقياً، يتذوق عسل نصوع الحقيقة.

كانت تمضي ساعات الليل الطويلة برفقته وهي تصغي إليه بانتباه شديد، يتحدث و تتعلم منه ما لم تكن تعلم، ينتابها شعور بأنها تزداد حباً وتعلقاً به، تدرك مع إصغائها إليه كم أن المرأة بحاجة إلى رجل حقيقي تتعلم منه، وتكون قوية به، ليس أي رجل، بل الرجل الزوج بكل مزايا هذا الزواج.

بدأت وقائع حياة ألماظ تنتقل إليها وهو الذي اعتاد على السفر، والسهرات خارج البيت، وزيارة بيوت الأصدقاء، واستقبال الضيوف، ولكن هذه المرة بدأت السمة العائلية تفرض ذاتها، فبدأت تقى تصطحبه إلى الأماكن التي يتردد إليها، كما بدأت تستقبل أصدقاءه مع عائلاتهم، وتعقد صداقات قويمة مع زوجاتهم، تصطحبه إلى ربوع البلاد، وإلى بلاد أخرى يزورها، وهي تجوب المدن وتكتشف الجانب المخفي الذي كان محجوباً عنها من الحياة.

بدوره كان ألماظ يتقصد ذلك، وأحياناً يكثر من السفر، أو الخروج برفقتها من البيت وهو يشعر بأنه يعدّها إعداداً جيداً كي

تكون زوجة العمر الأثيرة لديه تكون أمّاً ومربية ومرشدة لأولاده.

يعدّها لتشكّل معه دعائم المستقبل الذي ينشده، وتكون شريكة حقيقية لبناء أسرة صغيرة.

* * *

يشرد ألماظ مستلقياً على فراشه وهو يشعر بأن النهار تأخر كثيراً، يلقي نظرات وسط العتمة إلى زوجته التي تحمل في بطنها ولداً كما أظهر التصوير، وقد دخلت شهرها التاسع، وبعد أيام عليها أن تقدّم طلباً إلى إدارة الروضة كي تحصل على إجازة الأمومة.

ينظر إلى ابنته ميرهان ذات السنوات الثمانية، ثم إلى ابنه نجد الذي يصغرها بثلاث سنوات، يتخيّل أخاً لهما بعد عدّة أيام.

أغمض عينيه كي يغفو لعله يصحو على طلوع الضوء، بيد أن محاولته باءت بالفشل كرة أخرى.

استطاع ألماظ خلال خبرته مع هذه الحالة الاقتناع بأن قلة النوم وزيادة الإرهاق مع شيء من عدم الانضباط في تناول

الطعام خلف ما يعتريه من اضطراب في النوم، فهو لا يأخذ حاجته من النوم رغم أنه يجد وقتاً كافياً يزيد عن ست ساعات كي ينام فيه نوماً متصلا دون انقطاع، ويجد ساعتين في النهار كي ينام فيهما، إلاّ أنه لايغفو لحظة في النهار، ولا يأخذ حاجته الكافية من النوم في الليل حيث لا يستغرق به النوم أكثر من ساعتين متصلتين، ليجفل، ثم يكمل نومه.

أحياناً يشعر بأن محرّك طاحونة يدور في جمجمته، ويفقد المقدرة على التركيز، وغالباً على عمل متواصل يحتاج إلى شيء من تركيز، وعمله نخطّاط يحتاج إلى تركيز كي يحافظ على جودة وفنية خطه، ولا تتداعى سمعته نخطّاط بارز شهير يتمتع بسيرة حسنة في مدينته.

ومما زاد في شهرته وترسيخ اسمه نخطّاط مبدع في المدينة يُشار إليه بالبنان، ويتردد إليه الناس كي يخط لهم مايشاؤون حيث يحظى بالأولوية في زخرفة أبنية المساجد، والكنائس، والقصور، والأبنية الحكومية، وبعض الفلل الفاخرة، وبعض الأماكن من مسابح ومتنزهات، ومطاعم، إضافة إلى واجهات ولائحات ترده بشكل

يومي، حتى بات توقيعه ميزة تمتاز بها اللوحة التي تكون عادة باهظة الثمن، لأنه اعتاد أن يعمل بجودة مستخدما مواداً ثمينة، وبذلك يقبض أجراً مرتفعاً، ويعتبر كل عمل بمثابة إنجاز شخصي له، وإضافة حقيقية جديدة إلى تاريخه الفني، ومما زاد في شهرته وترسيخ اسمه هو حصوله على جائزة إقليمية كبرى في تركيا، حدث ذلك عندما أخبره صديقه الدكتور ريزدار عن شروط هذه المسابقة في الهاتف، وعندما أبدي استعداده للتقدّم إليها، جاء إلى مشغله في اليوم التالي حاملا الصحيفة التي نشرت الخبر مع شروط المشاركة.

تفاجأ ذات يوم بعد مرور نحو أربعة شهور بسيدة تتصل به على هاتفه الخلوي، وتخبره أنه قد فاز بالجائزة الثانية في المسابقة.

كان ذلك بمثابة خطوة حقيقية نحو الأمام في عمله، حيث بدأ يتذوّق لذة التكريم، مما دفعه لينظر بجدية أعلى إلى عمله، خاصة وأنه عندذاك كان متزوجاً منذ سنتين، وقد ضاعفت تقى من تشجيعها له كي يهتم بعمله بشكل أكثر.

بعد شهرين من الاتصال تلقى دعوة لحضور حفل استلام الجوائز، وطلبت منه المنسقة أن يرسل من خلال الفاكس، أو

البريد الالكتروني صورة عن جواز سفره كي ترسل له الفيزا، وبطاقة الطائرة، وتحجز له في الفندق.

عندذاك لم يتردد من القول لها بأنه يرغب في إحضار زوجته معه كي تشاركه الحضور في الحفل، وقال بأنه يتحمل تكاليف السفر والإقامة، وما عليها إلاّ أن ترسل لهما الفيزا وبطاقة الطائرة وتحجز لهما في ذات الفندق معاً.

قالت المنسقة بأنها سوف تتصل به غداً كي تخبره الجواب.

عند ظهيرة اليوم التالي عاودت الاتصال به على هاتفه الخلوي وكان على رأس عمله يعلّق لوحة جديدة على واجهة شركة تم افتتاحها حديثاً، نزل من السلّم، وبدأ يتحدث مع المنسقة التي قالت له: كيف حالك فناننا؟

قال: بخير

قالت: يسعدني إبلاغك أن المدير العام للجائزة وافق على استضافة حرمكم أيضا على نفقة الجائزة، أرجو أن ترسل لنا صورة الجوازين معاً.

شكرها على ذلك، وعندما أقفل الخط، طلب من مساعده أكّاد

أن يثقب أماكن بعض البراغي، واتصل بتقى التي كانت في الروضة، وأخبرها بما سمع.

بدت المرأة سعيدة بسماع النبأ، وهي التي ستسافر إلى تركيا لأول مرة، لكنها كتمت الأمر ولم تخبر أحداً في الروضة عما سمعته.

بعد نحو عشرة أيام أخرى أرسلت لهما المنسقة الفيزا مع بطاقتي الطيران وحددت لهما موعد السفر، وقالت يأنها سوف تستقبلهما في مطار اسطنبول لتأخذهما إلى الفندق.

ثم أردفت: جرت العادة في جائزتنا أن يلقي كل فائز كلمة بمناسبة حصوله على هذه الجائزة، يتحدث فيها عن مفهومه للخط، أرجو يا أستاذ ألماظ أن تتحف الحضور بكلمتك.

قال: أشكرك ياسيدتي على هذه الثقة، وسوف أباشر في إعداد كلمتي بهذه المناسبة.

حصلت تقى على إجازة لمدة أسبوع، وسافرا ليمضيا أسبوعاً في تركيا، كانت المرة الأولى التي يقيما فيها في فندق خمس نجوم.

في اليوم الثالث لوصولهما كان الموعد مع افتتاح حفل استلام

الجوائز بحضور الفائزين ولجان التحكيم، وبعض الضيوف.

بعد استلامه الجائزة، وقف ألماظ على المنبر ليلقي كلمته بهذه المناسبة فقال: يشعر القارئ المتدبر في قراءته بشيء من الأنس والنشوة وهو ينظر إلى جمالية الخط الذي يتضمن المعاني السامية.

الخط ذاته يجذب القارئ إلى القراءة، ولذلك، فبتقديري أن قراءة النصوص وخاصة الإبداعية تكون أكثر دلالة عندما نقرأها بخط يد الكاتب.

لنتذكر الرسائل التي كانت تصلنا بريديا وكنا نقرأها، ونقارن ذلك بما يصلنا اليوم بعشرات الرسائل يوميا سواء من خلال بريدنا الالكتروني، أو من خلال الفيسبوك، وبعض المواقع الاجتماعية.

لنتذكر لهفة انتظار الرسالة من البريد، متعة وفنية فض الغلاف، التمتع بإمساك الصفحة، شمّ رائحة المرسل من الصفحة المكتوبة بخط يده.

لذلك كله يمكنني أن أقول بدون لحظة تردد أن القراءة الورقية تبقى هي الأصل في نهل الثقافة، بل في قراءة أي عمل أدبي هام.

الخط بصفة عامة هو لغة بيانية جمالية تعبر عن سمات شخصية

كاتبها، وكما أن الخط هو لغة للتعبير عن الألفاظ، وتفجير لدفق المشاعر الإنسانية، فإنه كذلك يعبر عن كاتبه، ولذلك يلجأ البعض إلى قراءة الخط، والخط هو كالبصمة إذ لكل شخص خطه المميز عن الآخر، هذا الخط الذي يكون دليلاً إلى شخصية كاتبه؛ لذلك عني الخط بصفة عامة بالاهتمام سواء من خلال علماء التحليل النفسي، أو من خلال رموز الفن التشكيلي، أو من خلال علماء اللغة والألسنيات.

إن خط الكاتب بيده يشكل جمالية وخاصية بالنسبة للمتلقي، ولذلك نرى أن المخطوطات التي كتبها مؤلفوها تمتع بقيمة فنية وأدبية ومادية ثمينة.

القارئ هنا يقرأ بشكل مباشر أفكار الكاتب بخط يده، وهذا يجعله أكثر تذوقاً للأفكار، وأكثر استيعاباً للمسرود اللغوي.

يشبه الخط هنا اللوحة التشكيلية، ويشبه الصورة الفوتوغرافية، فهو الدليل والرشيد إلى قراءة شخصية صاحبه.

أريد أن أوضح أمراً أراه هاماً في هذه المسألة وهو أننا نحتاج إلى دراسة تفكيكية وتحليلية وجمالية عن سيكولوجية الخط، أن

نفصل الخط عن اللغة بما يمكنني تسميته بمشروع: لغة الخط، وخط اللغة.

عندما نقرأ الخط علينا أن ننسى اللغة التي يحملها، ونكتفي بقراءة لغة الخط كما أننا نقرأ لوحة تشكيلية.

علينا أيها السيدات والسادة هنا أن نميّز كثيراً في عملية الفصل هذه، فصل اللغة عن الخط، وفصل الخط عن اللغة، عندذاك سوف نتمكن من تذوّق لغة الخط، ونستطيع أن نتحدث عن عالم الخط ونحن نلج محراب عالمه؛ من هنا وقع الكثير من الدراسات في الخلط بين الخط، وبين اللوحة التشكيلية، فكأننا نقرأ دراسة عن التشكيل وليس عن اللغة، وهذه مسألة غاية في الحساسية، لأن التشكيل يعتمد على اللون وعلى القسمات، في حين أن الخط يستمد جماليته من الكلمة التي يحملها، فإذا أراد خطاط ماهر أن يزيّن كلمة (الشيطان) فسوف تبقى مظلمة حتى لو كتبها بالأضواء ومهما برع في جمالية الخط.

تحول الخط إلى شكل من أشكال الفنون، وأصبح علامة مميزة تعبر عن الأحقاب الزمنية، وهو يتمتع بمنزلة رفيعة إلى جانب ما أتى

به الإنسان من ألوان الآداب والفنون.

قراءة الخط تتمتع بخصائص مختلفة عن قراءة اللغة، إنها شبيهة بقراءة الكف، وقراءة البصمة، وقراءة نظرات العين، قراءة قسمات الوجه، قراءة نبرات الصوت، قراءة تفرعات الضحك، قراءة ألوان الرقص؛ هنا سوف يكون بمقدورنا أن نتعرف على الخطاط من خلال خطه، أن نحلل شخصيته من خلال تحليل خطه، ولذلك نرى القيمة المادية والمعنوية للمخطوطات الأدبية والفكرية التي خطها مبدعوها بخطوطهم، فنحن هنا نقرأ الخط، بعد أن قرأنا اللغة، سيكون بإمكاننا أن نتمعن كثيرا في تلك الكلمات التي كتبت في أوقات مختلفة، ذاك السطر كتبه وهو مرتبك، هذا السطر كتبه وهو هادئ.

الخط من الأشكال التعبيرية الهامة التي اخترعها الإنسان ليعبر من خلالها عن مدى شاعريته، ومدى إمكانيته للتعبير عن الجمال.

ليس بوسعنا أن نفصل عن مدلولات الخط، وعن المعنى الذي يعبر عنه، وهنا يتشابه الخط ذاته مع خطوط اللوحة الفنية، كما أن اللوحة الفنية أيضاً تعبر عن معان لغوية في علاقة ترادفية بين رعشة

جمالية الفن، وقوة تأثير المعنى.

قدّم شكره الجزيل للحضور على حسن الإصغاء، وعاد يجلس إلى جوار زوجته. في اليوم التالي أخذتهما لجنة من الجائزة للتفرج على معالم مدينة اسطنبول وأخذ صور تذكارية.

أمضيا أسبوعاً مما يمضيه كبار أثرياء العالم، كانا يتنقلان بين أجنحة الفندق ليريا ويجلسا في موضع واحد مع رجال أعمال كبار في العالم.

عندما استلما قيمة الجائزة، راحت تقى تشتري بعض الهدايا الثمينة لـ / ماما نسيمة / ولأبيها، ولأخيها جمعات، وزوجته وأولاده، ولأخيها ديار، ولأختيها تقية، وبارعة الذين يعيشون جميعاً في بيت واحد حيث قرر جمعات عندما تزوّج أن يقيم في ذات البيت وكان ذلك بتشجيع من ماما نسيمة التي قالت: ياجمعات لاتنس أن أولادك هم أحفادي، أريد أن تبقوا في البيت.

وبدوره لم يتردد ألماظ من شراء هدايا ثمينة لأهله وبعض أصدقائه وخاصة الدكتور ريزدار الذي كان له الفضل في إعلامه عن هذه المسابقة.

لا يدريا كيف مضت الأيام السبعة وكأنها كانت حلماً، ثم عادا محملين بالهدايا.

بعد يومين من وصولهما واستقبال المباركين راح ألماظ يعلق شهادة التقدير في صدر مشغله، ثم قرر أن يشتري بيتاً، ويخرج من بيت أبيه الذي كان يقيم في غرفة من.

مع انتقاله إلى بيته الجديد، بدأ ينظر إلى عمله بجدية أعلى، فيقرأ فنون الخط، وسير حياة الخطاطين، وأنماط الزخرفة، ويطور في خطّه، وأحيانا يضيف لمسات فنية جمالية إلى أشكال الخط.

استطاع أن ينطلق إلى عالم الخط، ويتحدث بلغته حيث تتحول كل لوحة على يدَيه إلى عمل فني متكامل.

عندما مضت ثلاث سنوات على نيله الجائزة، قرأ مصادفة عن مسابقة عربية في الخط تقام في المملكة العربية السعودية، فتقدّم بتحف من خطه برفقة الشروط المطلوبة للتقدّم إلى هذه المسابقة.

بعد ثمانية شهور من ذلك وكان قد نسي أمر المسابقة، رن هاتفه الخلوي، وتفاجأ بالمشرف العام على المسابقة يحدّثه، ويبشره بحصوله على الجائزة الأولى في هذه المسابقة الكبرى.

كانت تقى إذ ذاك وضعت ميرهان منذ شهرين، ولم تتمكن من الذهاب معه، ولكن ماما نسيمة قالت بأنها ستبقى معها في البيت ريثما يذهب لاستلام جائزته ويعود، وماما نسيمة ذاتها كانت قد أمضت عشرة أيام عندها في البيت عندما ولدت، ولكنها قالت بأنها مستعدة للبقاء مرة أخرى برفقة ابنتها وحفيدتها.

وكما هي المرة الأولى، سافر إلى المملكة، وأمضى أسبوعا ليعود محملا بشهادة التقدير ودرع المسابقة وبعض الهدايا الثمينة والفاخرة لزوجته، وابنته.

إضافة إلى هدايا تتعلّق بالخط لزملاء له في هذه المهنة.

قبل العودة بيوم واحد ذهب إلى أحد الصياغ، واشترى سلسلة ذهبية لـ ماما نسيمة، لأنه بدأ يكن لها احتراماً شديداً، ويرى بأنها المرأة التي ضحت بمستقبلها الزوجي في سبيل إنقاذ حياة أسرة بأكملها، والمهم في الأمر أنها استطاعت أن تواجه عقبات قاسية كي تنجح في مهمتها.

عندما فتح محله، علّق شهادة التقدير إلى جانب الشهادة الأولى لتصبح الشهادتان علامتين مميزتين في تاريخه الفني والمهني.

بعد عدة أيام اشترى سيارة، وأودع ما تبقى لديه من مكافأة الجائزة في المصرف.

في المملكة تلقى عروضاً من مجلات ومؤسسات للعمل، إلا أنه أبى ذلك دون تردد، لم يكن يتخيل أنه سيستطيع العيش بعيداً عن مدينته التي يشعر بأنه بناها لبنة،

لبنة. . حرفا حرفا. . لوحة لوحة.

عندما ينتابه شيء من السأم، فإنه سرعان ما يخرج من بيته، يتجوّل في شوارع المدينة سواء أكانت مزدحمة بالسكان في وضح النهار، أم كانت خالية في سكون الليل.

يعتريه إحساس بملكيته الجزئية للمدينة، يشعر بأنه يمضي في شوارع بيته الكبير شارعاً شارعاً، يتفقد الأزقة، والحدائق، والساحات.

يقف على جسر نهر الخابور ويتمتم: لا بد أن يعود إليك مجدك أيها النهر العظيم، وتسحق كل هذه القمامة التي استضعفتك واستوطنتك واستقوت عليك.

في الماضي كان النهر يتدفق بألق ويمدّ المدينة والقرى كلها

بالحيوية والنشاط، كان الناس عندما يضجرون، يتسرّبون إلى حواف النهر ليلتمسوا شيئاً من الأنس والانشراح، أو يصطادوا السمك منه، أو يعوموا في مياهه الغزيرة.

كان الخابور يعني لهم حياة متجددة التألق، ويبتلع السأم من نفس أي زائر إليه، وقد تحوّل إلى أنيس سكان المدينة، ورفيقهم المخلص، الآن يغدو شيخاً هرماً مشلولاً ملقى على ظهره، لا نسمة أنس، لا لحظة تألق.

بات يبعث الشفقة للناظر إليه، لذلك يتحاشى الناس زيارته رأفة بما آلت إليه حاله، وحتى لا تتداعى تلك الصورة الجبارة للخابور في مخيلاتهم، وكي يبقى الخابور ثرياً، كريماً، قوياً، معطاءً، مؤنساً، متألقاً، متدفقاً، شاباً في مخيلاتهم.

يواصل ألماظ سيره التفقدي على أركان إمارته، ينظر في الواجهات التي علقها مسماراً مسماراً، برغيا برغيا، كتب حروفها حرفاً حرفاً، وضع ألوانها لوناً لوناً، زخرف إطلالتها زخرفة زخرفة، انتهى من لمساتها النهائية لمسة لمسة.

كل واجهة في هذه المدينة تحمل نسمة من روحه، يلمس مدى

تقدير الناس له وهم يمضون بجانبه، يلقون عليه السلام وكأنه مَعلم أثري من معالم مدينته:

ـ كيف حالك أستاذ ألماظ.

ـ هل تلزمك خدمة فناننا القدير

ـ نوّر المكان بك أستاذ.

البعض يقبّله، البعض يصافحه بحرارة، البعض يرغب أن يحظى بالمسير ولو بضعة خطوات برفقته، البعض يأخذ صورة تذكارية معه، البعض يقف بسيارته مصرّا أن يأخذه حيث يريد.

عندئذ يخرج هاتفه الخلوي ويستمع الأغنيات المحببة إليه عائداً أدراجه إلى البيت منشرح الصدر.

أي مدينة أخرى يمكن لها أن تحقق له هذا التألق الاجتماعي سوى هذه المدينة التي غدت جزءا منه، وغدا جزءا منها، حفظ كل دكان، كل رصيف، كل زقاق، كل حي، كل شارع فيها، كأن لا مدينة تصلح أن يقيم فيها سواها.

تغمره مشاعر مودة الناس وتقديرهم لشخصه، لفنه، لتاريخه، لسلوكه، لبعض مواقفه الإنسانية والاجتماعية التي ترفع من شأنه

في أنظارهم فيتمتم في سرّه: عندما يخسر الإنسان محبة الناس، لا يكسب شيئاً بعد ذلك، وعندما يظفر بمحبة الناس، لا يخسر شيئاً بعد ذلك.

كم تغمره مشاعر النشوة وهو يرى الأصالة التي تأبى الانحدار في جواهر الناس من حوله رغم كل مظاهر التشويه والابتزاز والتآمر التي مورست عليهم.

ها هو معدن الإنسان البالغ الطيب، البالغ النضج، البالغ الشجاعة، البالغ التسامح، البالغ التلقائية، البالغ الصبر يحقق ظهوره وتفاعله.

لقد أزاحت الأزمة العاصفة النقاب عنهم وعن روح الحقيقة، ودفعتهم إلى قوة التعاضد والتكاتف، وقد كان الرهان شطر قوة التشرذم والتفكك النسيجي في بنيته.

يتمتم في قرارة نفسه كما لو أنه ينشد نشيد الإنسان الأزلي: لا نحتاج إلى شيء قدر حاجتنا إلى روح الحكمة، كل خلاف يمكن علاجه بالحكمة، كل بغضاء يمكن علاجها بالحكمة.

عندما يدخل العنف من الباب، تخرج الحكمة من النافذة.

عندما تدخل الحكمة من النافذة، يخرج العنف من الباب

الحب، لا شيء لنا غير الحب، لا سلاح لنا غير سلاح الحب،

لا قوة لنا سوى قوة الحب، لا حصانة لنا سوى حصانة الحب،

لا منعة لنا سوى منعة الحب، لا رصيد لنا سوى رصيد الحب،

لا مستقبل لنا سوى مستقبل الحب.

الحب الذي يمدّ قلوبنا بطاقة التسامح ويجعلنا أكثر قربا من بعضنا البعض، أكثر استيعابا لبعضنا البعض، أكثر انفتاحا على بعضنا البعض.

دوما عليك أن تسأل نفسك يا ألماظ: مَنْ أنا لأعاقب غيري؟

عليك أن تعاقب نفسك لمجرد أنك فكرت أن توجه عقاباً لغيرك، ثم تقول: يمكنني أن أصفح عن غيري.

عليك أن تكافئ نفسك لمجرد أنك فكرت أن تصفح عن غيرك، لن يكون بوسعك أن تكون إنساناً، لن تفوح رائحة الإنسان منك إلا إذا أنس الإنسان إليك، إلا إذا استكان الإنسان إليك، إلاّ إذا أمن الإنسان إليك بماله وسره وناموسه.

منذ عدة أيام في ساعة متأخرة من الليل، وهو يسهر مع زوجته

يسمعان أزيز الرصاص من أماكن قريبة وبعيدة، قال لها بحرقة: إننا نعيش في ركن محفوف بالمخاطر، كل واحد منا يقف على لغم موقوت مخفي لا يعرف متى سينفجر به ويحيله مع آماله وتطلعاته إلى ركام.

عدنا يا عزيزتي إلى وقائع الجاهلية الأولى، كأننا في مدينة شبحية لاأحد يعرف فيها متى تمتد يد إليه فتخطفه.

ليست هناك نكسة تقع على الإنسان أقسى من فقدان الشعور بالأمن وهو في ظهراني موطنه، يرى أسرته تتعرض للقصف دون أن يكون قادراً على منع ذلك، أن يفرلاهثاً، لامن بيته فقط، ولا من مدينته، بل من بلاده كلها، ولا يسترد أنفاسه إلاّ عندما يرتمي على ظهره في خيمة تكون ملاذه الوحيد من موت حتمي، خيمة بدائية في صحراء يكون فيها لاجئاً، وهو ما يزال يرتعد خوفاً أن تمتدّ يد شبحية فتطاله حتى وهو خارج موطنه في تلك الخيمة البدائية المهجورة.

لقد شاهدتُ يا تُقى أسوأ ما يمكن لإنسان أن يراه، شاهدتُ بأم العين كيف أن إنسانا وقف قبالة إنسان، أطلق عليه النار،

وأراده قتيلا كما لو أنه اصطاد عصفورا، سمعتُ أن شخصا قنص طفلا من إحدى الطوابق وهو يتناول جعة، ويدخن الغليون.

لم أكن أعلم أن إنسانا يمكن له أن يحمل كل هذا الحقد الأعمى، ونزعات الشر القائمة ضد إنسان آخر، لم أكن أعلم لماذا يحمل هذا الإنسان كل تلك المشاعر السوداء تجاه إنسان آخر يتقاسمان نسمة الحياة المؤقتة معاً كما لو أنهما ضيفَين خفيفَين في ربوع البطحاء.

بحثت كثيراً، تأملت طويلاً، فكرت ملياً دون أن أعثر على سبب يقنعني أن القاتل يمكن له أن يتلمّس لحظات سعادة طبيعية، يمكن له أن يعود إلى بيته سعيدا منشرح الصدر يشارك الناس مشاعرهم ومناسباتهم الإنسانية الطبيعية، وهو يحمل إثم قتل إنسان، أطلق عليه النار، فأراده قتيلا، ولم يكن له أن يقدم على ذلك قبل أن يجرّد نفسه من كل مزية من مزايا عطر الإنسان.

إنه كائن اكتسب مرتبة اللا احترام بتفّوق وجدارة عندما استطاع أن يطلق الرصاص على إنسان بكامل حيويته، وأحلامه، وعلاقاته الإنسانية والاجتماعية، فأرداه قتيلا.

لم يسلبه علبة تبغه، لم يسلبه محفظته، لم يسلبه هاتفه الخلوي، لم يسلبه بيته، لقد سلبه حياة بأكملها، عمرا بطوله وعرضه.

أصوات الرصاص تبث الرعب في أوصال الكبار والصغار، الأيدي التي تمتد لتخطف الناس من الطرقات، تسبب الرعب للآباء والأمهات والأبناء.

إننا يا سيدتي نعيش في حقل ألغام، نخطو خطوات محفوفة بالمخاطر.

أحيانا يشكر الأزمة العاصفة التي أوضحت له هذه الحقيقة، وأزاحت الغبار عن ذهب الناس رغم كل تلك الخسائر الجسيمة في النفوس، في البنى الفوقية، والوسطية، والتحتية، رغم كل ما حلّ من دمار، من صرخات الأمهات، من التهجير، من ألوان الفاقة، من إظهار حجم الشراسة التي يمكن لإنسان أن يمارسها بحق أخيه الإنسان عندما يتجرّد من نزعته الإنسانية ويتحول إلى كائن عدواني مسعور بامتياز.

لا أحد يعلم ما الذي حدث وأي إعصار هبّ على البلاد والعباد.

غدا الناس في دوامة غامضة من أمرهم، لاأحد يعلم الحقيقة المتوارية، كل شيء يكتنفه الغموض.

مقتل مسؤول رفيع الدرجة يكتنفه غموض، مقتل طفل بريء عائد من مدرسته يكتنفه غموض، مقتل أم ذاهبة لتشتري خبزا لأطفالها يكتنفه غموض، مقتل طبيب في عيادته يكتنفه غموض، حتى موت إنسان بشكل طبيعي على فراشه غدا يثير شبهة.

* * *

أغمض عينيه في محاولة للنوم، وهو يشعر بدوار في رأسه من شدّة التفكير إلا أنه لم يفلح، فنهض ثانية وهو يشعر بأنه لم يعد بحاجة إلى النوم، راوده إحساس بأن الليل طال كثيراً، وأن الظلمة أشدّ حلكة.

استطاع أن يتلمس زوجته، ثم ابنته، ثم ابنه، ثم انتصب واقفاً على قدميه يلقي نظرات إلى البيوت المنتشرة من حوله، فأدرك حينذاك أن الكهرباء مقطوعة، وبدا له أنه في عمق صحراء مظلمة، لم يتمكن من رؤية ما كان يراه سابقا عندما يقف على السرير ويلقي نظرات إلى اتساع الأبنية من حوله.

انتبه بأنه لم يسمع أصوات انفجارات، أوعيارات نارية لأول

مرة منذ اشتعال الحرب.

أخذ يتلمس طريقه حتى نزل من السرير، وبدأ يهبط بتؤدة ورفق درجات السلم كما لو أنه شبح منبثق من عمق الظلمة.

استطاع بالكاد أن يفتح باب الصالون، ثم يدلف المطبخ.

امتدت أصابعه إلى القداحة، وراح يوقد عيناً من الغاز ملتمسا بعض الإنارة.

لا يدري في تلك اللحظات لماذا أحس بوخزة جوع، وشهية لتناول لقمة سريعة ريثما يلج الصباح ويتناولوا طعام الإفطار الشهي ذو الطقس الصباحي الخاص بتلك الوجبة حيث ترتفع أصوات طفلية، تصرخ بهما تقى، توبخهما أحيانا، وهو يتأمل جمالية ممارسة الأطفال لأبعاد ومزايا طفولتهم فيتمتم لها: دعيهما يحققان طفولتهما يا تقى، نحن ليس بإمكاننا أن نفعل ذلك لأننا تجاوزنا عتبات الطفولة ولم نعد أطفالا، غداً عندما يكبران لن يفعلا ذلك لأنهما سيجتازان مرحلة الطفولة، وعند ذاك سيمنحا أطفالهما المجال كي يحققوا طقوس طفولتهم.

ثم يسترسل قائلا:

إن لم يبك الطفل كثيراً وهو صغير، سوف يبكي كثيراً وهو كبير.

إن لم يعبث كثيراً وهو صغير، سوف يعبث كثيراً وهوكبير

إن لم يثرثر كثيراً وهو صغير، سوف يثرثر كثيراً وهو كبير

إن لم يبك كثيراً وهو صغير، سوف يبكي كثيراً وهو كبير

إن لم يتصوّب كثيراً وهو صغير، سوف يتصوب كثيراً وهو كبير.

تعلّق تقى وهي تضرب يد أحدهما وتقول بحنق: وإن لم يُضرب على يده كثيراً وهو صغير، سوف يُضرب على بدنه كثيراً وهوكبير.

أخرج كسرة خبز وضع عليها ملعقة صغيرة من مربى الكرز، ثم وضع قطعة جبن بلدي، وصار يتناول عائداً أدراجه إلى الصالون.

دنا بالقداحة من ساعة الحائط، أذهله ما رأى، حدّق بإمعان غير مصدق ما وقعت عليه عيناه، ركّز نظره وسط ضوء القداحة المتراقص على العقارب بدقة بالغة التركيز، تناهت إلى سمعه التكات.

كل شيء على ما يرام ومثير للدهشة: السابعة ؟

همهم وهو يبتلع اللقمة الأخيرة: أي سابعة هذه المجنونة ابنة المجنونة؟!

ثم استأنف مسترجعا بعض التفاصيل التي سبقت نومه: نمنا عندما بلغت الساعة الواحدة ليلا على وقع أصوات العيارات النارية، والسابعة التي تليها، تعني طلوع النهار !

بغتة لسعت إصبعه حرارة، فأطفأ القداحة وعاد أدراجه إلى السلم متلمسا الطريق إلى السطح.

استرخى في فراشه شاردا بما رأى.

لبث في الفراش نحو ساعة، وهو يتوقع أنه سيسمع صوت وليده الذي ستضعه تـُقى في أي ساعة متوقعة، حيث قالت القابلة التي تقطن في حي مجاور: يمكن أن يحدث ذلك في أي وقت، أنا على أتم الاستعداد للمجيء مهما كان الوقت متأخراً، هذا واجبي ومصدر رزقي.

أحس بشيء من الرهبة، هذه الرهبة التي أنفضته ليستوي قاعداً في الفراش وقد خرج منه صوت أبح مذعور: تقى.. تقى

لم تسمع صوته، فنادى بنبرة أعلى: تقى.. تقى.. يا تقى.

عند ذاك بدأ نجد ينشج، ثم بعد قليل أخذ يتعالى نشيجه وهو يتمتم: ماما. . ماما. . استيقظت على وقع صوته، وغدت تهدهده كي يعود إلى نومه، لكنه قال: أنا جائع.

نهضت الأم بتثاقل المرأة الحامل التي هي على وشك الولادة، وقد خرجت منها نحنحة: كأن الكهرباء مقطوعة، كم هي الساعة الآن ؟

دعته في بكائه تاركة السرير، هبطت السلم برفق وراحت تمد يدها إلى القداحة، أشعلت عينين من الغاز كي ترى ما حولها، أحضرت صحنا من اللبن، أفردت فيه بعض الخبز، ورشته ببعض السكر، ثم اقتربت بالقداحة من الساعة.

بعد لحظات صعدت السلم وقد استبد بها ذعر شديد !

جلست تطعم ابنها الذي ركن إلى صمت وشرع في تناول الطعام، بعد قليل التفتت إلى زوجها المستلقي في فراشه وهتفت بنبرات وجلة: ألماظ. . ألماظ. . تناهت منه نبرات متثاقلة: خير يا تقى ؟

قالت: رأيت عجباً في ساعة بيتنا.

قال: أي عجب ؟

قالت: عندما نام الأولاد، ألم نسهر حتى الواحدة ليلا ؟

قال: أجل

قالت: ساعتنا الآن تشير إلى الثامنة والنصف، هل عادت العقارب بها إلى الوراء، أم تقدمت إلى الأمام، أم أن يدا شبحية لامستها؟!

قال: الجواب عند جمعات

استغربت لهذه الإجابة، ثم مطت حاجبيها وقد صدرت منها بحة: وما دخل أخي بساعة بيتنا يا أمير؟!

قال: اتصلي به، واسأليه عن الساعة.

قالت: دوما أظن بأنك تستهزئ بي، أو تأخذني على قد عقلي، ولكن عندما أتحقق يتبيّن لي بأنك جاد.

قال: لاتوجد مشكلة عزيزتي، مرة جديدة تُضاف إلى تلك المرات.

أخذت تمشي بحذرهابطة درجات السلم، أو قدت القداحة، ومدت كفها إلى سماعة الهاتف لتتفاجأ بأن الحرارة منفصلة.

عادت أدراجها بذات الحذر خشية أن تلكم بشيء، وهي تقول بنبرات تحمل معالم الخيبة: هاتفنا مفصول

قال: انقطعنا عن العالم، لم يبق لنا غير الجيران.

عندها رفعت ميرهان رأسها وجلست في الفراش، قبلتها أمها وقالت: هذا ليس وقت مزاحك يا ألماظ، ثم استدركت الأمر فقالت: أعتذر، لكن ماذا تعني حبيبي ؟

قال بشيء من الاتزان: حان وقت تناول طعام الإفطار.

قالت: أأنت رائق للمزاح في هذا الليل، ثم استدركت قائلة: لا تؤاخذني حبيبي خلقتي الله هكذا، معك حق، أنا أيضاً يقرص الجوع معدتي.

قال: لأننا تأخرنا عن موعد تناول الإفطار

قالت: ولكننا في الليل، ولم يطلع الضوء بعد.

قال: لكن الساعة تشير إلى التاسعة

قالت: معك حق، هي ليست غير تاسعة الصباح، والدليل أنني جائعة، ولو كانت قد عادت، لكنت الآن شبعانة.

صمتت قليلاً، ثم أضافت: غريب يا ألماظ، لم نعد نسمع أصوات

الرصاص.

عندئذ نهض واقفاً على قدميه، أمسك بيدها، واتجها إلى الحائط المشرف على الشارع، وقعتْ أنظارهما على رؤوس وأجساد كما لو أنها أشباح.

قالت: أجل، لم يبق لنا غير الجيران، صحيح ما تقول.

حينها نادى ألماظ بصوت شبه مرتفع: يا أبا بيار هل أنت يقظ ؟

ارتفعت قامة جاره /بيشوار/ تسبقه إجابته: إي يا جاري أنا يقظ

قال: كم الساعة عندك يا جاري؟

قال: سألتني السؤال الذي أريد سؤاله لك يا أبا ميرهان، لأن ساعتي على ما يبدو معطلة رغم أن عقاربها تشير إلى العاشرة.

قال: لا شيء بها يا أستاذ بيشوار، ساعتي أيضاً تشير إلى ما تشير إليها ساعتك. عندئذ تعالى صوت جار آخر من أحد الأسطحة: ساعتنا أيضاً تشير إلى العاشرة.

بعد لحظات بدأت قامات تظهر في الشارع وسط العتمة

الحالكة تشير إليها أضواء يحملها البعض، إلى جانب أضواء سيارات أخذ أصحابها يجوبون بها في الطرقات.

نزل ألماظ إلى الشارع وانخرط وسط قامات الجيران الذين تجمهروا، وبدأ كل واحد يسأل بذعر عما حدث بشأن الساعة، ثم يلتمّون في مجموعات متفرقة، يسلطون الأضواء على ساعات أيديهم الصغيرة، فيتأكد لهم أن الميقات واحد، لكن الذعر يتبدّد من نفوسهم عندما يدركون أن أصوات الرصاص، والانفجارات اختفت من الأجواء، وكأنها لم تكن.

تعالت أصوات متداخلة من الجموع: هيا يا جيران نمشي إلى الحارات المجاورة.

تدافعت الأجساد خارجة من الحي صوب أحياء أخرى حيث التقوا بالناس الذين يقفون في الطرقات على جناحَي الحيرة والقلق.

لاشيء غير الليل الذي بدا يبث الفزع في النفوس بعد أن تأكد لهم بأنه ليل غير طبيعي أحدث خللاً في نفوسهم، وقلّب بهم كل الموازين.

عندما بلغت الساعة الثالثة دون أن يدروا أي ثالثة هذه، عادوا

إلى بيوتهم ليطمئنوا على أسرهم، عادوا بوجوه شاحبة، وحناجر جافة، وقلوب وجلة وهم يرفعون أبصارهم إلى الأعلى لينظروا إلى ظلام قاتم لابصيص للضوء فيه، ولا شيء يخفف عنهم سوى غياب أصوات الرصاص.

حين دلف ألماظ باب البيت، هرعت إليه تقى مستفسرة: ماذا رأيت يا ألماظ ؟

قال: رأيت أن الساعة هي الآن الثالثة والنصف عصراً، وقد تأخر بنا ميعاد الغداء.

قالت: هل هذا وقت مزاحك يا ألماظ. . ثم استدركت قائلة وهو يبتسم ويصغي إلى رعشات نبرات صوتها: لا تؤاخذني حبيبي - خلقتي الله هكذا ـ معك حق. . كل الحق. . أنت رجل واقعي وعليّ أن أتعلم منك كيف أكون واقعية، وأؤمن بوقائع الأمور.

الساعة هي الثالثة والنصف عصراً، وإن لم تكن ثالثة ونصف العصر، فأي ثالثة ونصف تكون ؟

ثم قالت: وما تقول في غياب أصوات الرصاص ؟

قال: إذا طال الأمر هكذا، ستكون الحرب قد انتهت.

قالت: ياه، يا لروعة هذه العبارة: الحرب انتهت، هل يمكن يا ألماظ أن تنتهي الحرب بالفعل في بلادنا، ونعود كما كنّا، يعود الناس الذين هجروا بيوتهم، يتم إعمار ما دمّرته الحرب.

لفت نظره الضوء الذي يتراقص وهو ينظر إلى عائلته الصغيرة جالسة، فسارعت تقى في القول: جارتنا أم بيار - كثر الله خيرها - أرسلت لنا مع إبنها بيار شمعتين.

تخيّل الفارق بين أن يجلس الإنسان في كبد العتمة، وبين أن يجلس في كبد الضوء، خطر له حينئذ أن العتمة هي الأصل، لأن الضوء دوماً عندما يدنو، يبددها، وعندما يغادر، تعود العتمة إلى ما كانت عليه متربعة في أوج حلكتها.

لكن العتمة مهما بلغت من حلكة، فإنها لا تستطيع أن تقاوم الضوء، لأنها ثابتة، ولأن الضوء متحرك، وهو الذي دوماً يتسلط على كبدها، ثم يغادرها ويتركها في شأنها.

في تلك اللحظات خطرله أن الأرض كرة غارقة بمجملها في حلكة ظلام دامس، عندما يتعرض شطر منها لأشعة الشمس، فإن ظلمته لا تجسر على مقاومة السطوع، فتتبدّد ريثما تجتاز أشعة

الشمس ذاك الشطر، لتعود جدائل الظلمة باسطة أذرعها، مهيمنة على مواقعها لحظة لحظة مترافقة مع لحظات ابتعاد خيوط الشمس.

خطر له وهو ينظر إلى الشمعة، ويقرنها بالشمس، كما يقرن بيته بكوكب الأرض، أن هذه الشمعة عندما تنطفئ، سوف يعود البيت إلى أصله وثباته المظلم.

لذلك يأمن الإنسان لبصيص الضوء، ويأنس به، وعندما ينام يترك في حجرته بصيصاً من ضوء بواسطة نواصة خافتة، حتى لايغمض عينيه على هول الظلمة ويفتحهما على وحشتها.

إنه يستلقي في فراشه، وقبل أن يرقد يلقي نظرات إلى ما حوله ثم يغمض عينيه، وعندما يفتحهما يريد أن يرى ويلمس ما حوله، ولا يفتحهما في قلب عتمة لا يرى ولا يلمس فيها بصيصاً لضوء.

عندئذ يمكن له أن يسحب الغطاء إلى قمة رأسه لأنه يكون متأكداً أنه لمجرد إزاحة الغطاء عن عينيه، سيرى ما حوله في ثقة اطمئنانية بالضوء الذي يجعله يرى ويلمس، ويجنبه أي لحظة شعور بدرجات الفصام وهو لا يرى نفسه، ولا يبص شيئاً حوله.

إنها مقارنة بمدى تعلقه بالحياة هذه المقارنة التي تكون متوازية

مع مدى ميله إلى الضوء، ومدى ميله إلى الظلمة، فتقاس درجات المقارنة هنا حتى من خلال مساحة ضوء النواصة حيث تكون شديدة الخفوت، أوساطعة قليلا، أو أعلى درجة، أو متوسطة، ووفق ما تكون في درجات الخفوت أو السطوع يقاس تفاؤله بالحياة، أو تقاس مدارج نزعته التشاؤمية.

دخل ألماظ المطبخ، تناول حبة بندورة كبيرة الحجم، وأخرج رغيفاً من الخبز، قعد في المطبخ يرش الملح على حبة البندورة، يتناولها كوجبة غداء بعدئذ طلب من زوجته إعداد إبريق شاي.

جلسوا جميعاً في الصالون يحتسون الشاي على ضوء الشمعة حتى غلبهم النعاس، ونام كل فرد في الركن الذي يجلس فيه.

استغرقوا في النوم جميعاً، ولم ينهضوا إلاّ على سماع طرقات شديدة بدأت تنهال على الباب، عندئذ لم يعلموا كم من الوقت أمضوا في النوم، ولم تعد عقارب الساعة تشير إلى ميقات بعينه.

قالت تقى: خير إنشاء الله. . مَن يطرق علينا باب بيتنا الآن ؟ّ!

ثم صمتت عاجزة عن تحديد الوقت، أهو متأخر من الليل، أم متقدم، أهو عتمة النهار، أم عتمة الليل.

تمطمط ألماظ في ركنه وهو يفرّك عينيه، وما لبث أن نهض بتكاسل، فران في أسماعهم صوت جارهم بيشوار: أأنت في البيت ياأبا ميرهان ؟

عندئذ انشرح صدر تقى وهي تسمع صوت أم بيار مع زوجها.

تقدمت من جارتها المحببة لديها و قادتها إلى حجرة وهي ترتعد وتبكي فزعاً، هناك احتضنتا وتباوستا، ثم جلست شيندار إلى جانب صديقتها وهي في حالة من الهلع الشديد.

يقول ألماظ بأن الحرب ربما تكون توقفت. قالتها تقى وهي تنظر إلى صديقتها.

قالت شيندار: لم نعد نسمع أصوات الرصاص، هل سنعود إلى ما كنا عليه يا تقى، هل بالفعل ستنتهي هذه الحرب اللعينة، أكاد لاأصدّق ؟

بغتة ككابوس ؟

قالت شيندار: سكون الظلام أهون علينا من أزيز الرصاص.

أحسست تقى بشيء من الطمأنينة والأمن بحضور صديقتها، وكم تمنت فيما لو دخلت ماما نسيمة من الباب بشكل مفاجئ، كانت

ستنهض وتلقي نفسها في حضنها وتبكي.

ماما نسيمة تعني لها الشعور بالأمن والقوة، عندما تكون بالقرب منها، تشعر بشجاعة.

كانت تتوقع أنها ستقدم بسبب إشرافها على الولادة، فقد اعتادت أن تكون بجانبها عشرة أيام كلما وضعت مولوداً.

عندما ولدت ميرهان، قالت لها: أعاهدك، وأعاهد أختيك تقية، وبارعة أنني سوف أمضي عشرة أيام بجانب مَن تلد لي حفيداً جديداً.

وصدقت في عهدها، لأنها أمضت عشرة أيام وهي تنام في بيتها كذلك عندما ولدت نجد، وعندما ولدت تقية، وولدت بارعة، راحت تمضي الأيام العشرة في بيت كل واحدة.

ماما نسيمة التي تعيش في البيت مع جمعات وزوجته وأولاده، وديار، وزوجها طريح الفراش، تترك كل شيء وتأتي إليها قائلة: وكيف تخيلين يا تقى أنني سوف أتخلى عن ابنتي وهي تنجب لي حفيداً، كيف تخيلن أنني لاأكون معك.

استأذنت صديقتها ذاهبة إلى المطبخ، بيد أن شيندار لم تتركها

وهي تنهض معها متجهة إلى المطبخ حيث أحضرت إبريقاً من الشاي وحملته لجارها بيشوارالذي يملك صيدلية زراعية اشتراها بعد ثلاث سنوات من تخرجه في كلية الهندسة.

حيث كان يدرس في كلية الزراعة، وعندما تخرّج لبث ثلاث سنوات دون أن يتمكن من العثور على وظيفة حكومية كي يطمئن إلى فكرة الزواج وفتح بيت وإعالة أسرة.

عندها اضطر أن يعمل بموجب عقود متقطعة في بعض المديريات الزراعية الحكومية حتى تعرّف على شخص يملك صيدلية زراعية طلب إليه أن يديرها مناصفة، عندئذ استقر في عمله وأقدم على الزواج من شيندار دون تردد.

لبث بيشوارعلى رأس عمله بجد ونشاط، وبعد سنتين أخبره صاحب الصيدلية بأنه لو رغب في شرائها سوف يبيعها له لأنه أولى بها.

عند ذاك اضطر أن يقترض قرضا من المصرف بضمانة الصيدلية وكفالة موظفين ثابتين.

ثم اضطر أن يقترض ما تبقى من قيمة الصيدلية من بعض أقربائه وأصدقائه، ولم يجد نفسه متحررا من الديون قبل ست

سنوات من شرائها.

قال وهو يتناول الشاي من يد تقى: ليل طويل غريب الأطوار يا أم ميرهان..

قالت: أمر محيّر يا جارنا !

استدارت عائدة إلى جارتها، فقال ألماظ: المشكلة أن جميع وسائل الاتصال من هاتف خلوي، وأرضي، وانترنت، وتلفاز، ومذياع، منفصلة عنا، ولا نعلم ما الذي يجري من حولنا، سوى أننا لم نعد نسمع أصوات الرصاص، والانفجارات، ولم تعد الطائرات تقصفنا ببراميل متفجرة.

ثم صمت قليلاً وأضاف: أظن لو بقي الأمر على هذا النحو، سوف تنفذ وقود السيارات، لأن محطات المحروقات لاتستطيع أن تعمل بدون كهرباء.

يمضي بنا الوقت كأنه لا وقت، نمضي بحلكته كأننا عميان، فقدنا الرغبة في عمل شيء وسط غمار هذا التيه، تهنا عن أنفسنا، تاهت أنفسنا عنا.

ليل مخيف لا عهد لنا به لا ندري إلى أي وادٍ سيفضي بنا،

كأننا هجرنا في رحلة طويلة. . طويلة شاقة على متن قطار ضرير ضل طريقه حتى نال منا السأم إلى مفاصل العظام، وخال لنا أننا في سجن وهو يمضي مهرهراً بنا وسط عمق صحراء قاحلة، ننتظر اجتياز خط الخطر كي نبلغ محطة الوصول، ليعجل كل راكب بتحرير بدنه من حلقات قيود القطار الرهيب.

يقف بانشراح تحت الشمس، ينفض عن روحه آثار ضجر المكوث الاضطراري الشاق، ثم ما تلبث أن تنطلق به قدماه إلى حيث يشاء كما لو أنه طائر حرّ.

عندما ودّعه جاره، أحس بشبح الفراغ، تقدّم إلى باب غرفته ،امتدت كفه مترددة إلى قبضته لأول مرة منذ حلول الظلام، انفرج شق الباب المحكم الذي لا يدخله غيره، فهي غرفته الشخصية التي تحتوي على كل ما يخصه في هذا العالم.

عندما يعود من العمل متعباً، يدخل الغرفة ويستلقي على ظهره وبعد أن يشعر براحة، يقف أمام المكتبة، يقرأ جملاً من بعض الكتب التي يقلّبها بين يدَيه، يستمع من حاسوبه المحمول إلى أغنيات ومقاطع موسيقية أثيرة لديه، ينظر إلى لوحات كتب عليها بخطه

أجمل ما قرأ وقد زخرفها خصيصاً لعالمه الخاص هذا، ينظر إلى صور العائلة التي صورها بكاميرا جهازه الخلوي ثم يستعرض بعض مقاطع الفيديو.

يضغط على زر، تدلف على إثره تقى برفق، يتأمل وجهها فتسري رعشة مودة في فؤاده.

عندما يود الطفلان الدخول معها إلى أبيهم، لاتأذن لهما بذلك لأنها تدرك أنه في محراب طقس خاص، وكذلك تعلم شيئاً من وضعه النفسي من خلال ما يطلب، فالمليسة تعني أنه يلتمس شيئاً من الهدوء النفسي، والشاي الأخضر يعني أنه يلمس شيئاً من اليقظة ليركز في أمر ما، والشاي يعني بأنه مستمتع بدخول طقس ما، والقهوة تعني أنه في حالة تأمل، وطبق من مكسرات البندق واللوز مع كأس من عصير البرتقال، يعني أنه مقبل على حدث جديد يخص رحلة عائلية قصيرة أو طويلة، داخل البلاد أو خارجها، داخل المدينة أو خارجها.

بناء على ذلك تراه يشير إليها السماح بدخول الطفلين، أو تأجيل ذلك.

لحظة فتح الباب، ومع مد الخطوات الأولى، ألفى نفسه منتصباً برهبة قبالة الرزنامة المعلقة على الحائط في لوحة قام بتصميمها خصيصاً لغرفته، وقد اعتاد أن يجددها كل سنة عندما يأتي برزنامة جديدة، حتى يبدو كل ما فيها جديداً كفراشات الربيع، كثياب العيد بالنسبة للأطفال الذين يسهمون في تفعيل إيقاع العيد حتى في نفوس الكبار.

عندما لا ترى عيناك يا ألماظ أطفالاً في غمرة احتفالهم بالعيد، فإن ذاك العيد لا يكون عيدًا بالنسبة إليك، عندما لا ترى أطفالاً في بيتك يبتهجون ببهجة العيد، فإن ذاك العيد يكونمنطفئ الرونق، لذلك يلجأ الناس إلى أماكن مكتظة بأطفال يعيشون ويتفاعلون مع ذروة مشاعر استقبال العيد، يترددون إلى تلك الأماكن كي يتذوقوا نكهة عسل العيد في عيون وضحكات الأطفال.

هكذا تبدوا الرزنامة بالنسبة إليه، إنها حالة يعيشها، تشكل ركنا من أركان الحياة اليومية وهو يستمتع بمدّ يده إليها كل صباح ليدرك أن يوماً مضى، وأن يوماً جديداً أقبل، كوردة في حديقة تتمتع بخصوصية الحضور إلى جانب أخواتها.

يتمتم لنفسه: هكذا تتعلم من الحياة يا ألماظ، حتى تناول طعام بشكل مفرد، يختلف عن تناوله مع العائلة، ويختلف عن تناوله في

بيت صديق، إنه طعام واحد بيد أن طقس المكان يضفي لمساته على الطعام وعلى مُتذوّقه.

سرّت رعشة في أوصاله وهو يحدق في اليوم والتاريخ على إيقاع الضوء الخافت الذي يتراقص كعشرات الأشباح في عتمة الغرفة.

اندفعت رائحة الموت إلى أنفه وهو يحدق في شكل الرزنامة التي بدت أمام ناظرَيه كأنها جثة متفسخة، عند ذاك لم يملك نفسه من انهمار دموع غزيرة بدأت تتدحرج من عينيه، ومن النشيج الكسير الذي بدأ يصدر منه حتى تقدمت زوجته مرتعبة وهي تراه يبكي بنبرات صوته كما لو أنه طفل أصابه ألم شديد.

أشار إليها كي تدعه بمفرد ه، وحتى لا تفسد عليه حالته النفسية، انسحبت برفق دون أن تجسر على الابتعاد عنه وتركه بمفرده كأن شيئاً لم يكن.

لبثت واقفة خلف الباب، تستمع نشيجه المتدفق واضعة سبابتها بين أسنانها وهي تعض عليها بقوة وقد تجحظت عيناها مرتعدة بكل أعضائها في حالة اضطراب شديدة رغم أنها أرادت أن تخبره بآلامها التي تعتقد أنها آلام مقدمة الولادة، فهي تعتقد بأن موعد

الولادة الطبيعية قد حان، وعليه أن يتخذ الإجراءات المناسبة، وأولها أن يحضر القابلة، ثم يجلب ماما نسيمة التي تشم منها رائحة أمها.

لم تكن تعلم قبل أن تنجب مدى حاجة المرأة النفسية إلى وجود أمها بجانبها عندما تضع مولودها، لماذا ترغب في حضور أمها وهي تستقبل المولود، فتتولى العناية الأولية به به، تغسله، تلبسه، تهتم به، وهي في تلك اللحظات لا تأمن على مخلوق بهذا المولود قدر اطمئنانها عندما يكون بين يدَي أمها، لكنها حُرمت من كل هذا، بيد أن ماما نسيمة التي تشم منها رائحة أمها، تعوضها بجزء من هذه الأمومة، فتردد في نفسها: الخالة هي الأم الثانية.

الآن باتت تدرك بأن ذلك يكون بمثابة فرصة ثمينة لها كي تتخيل لحظات ولادتها، كيف كانت أمها تهتم بها عند الولادة، إنها تتخيل نفسها من خلال مولودها في تلك اللحظات، فتنتابها نشوة كلما زادت أمها من اهتمامها وعنايتها بالوليد، والأم ذاتها تحرص أن تكون حاضرة على ولادة ابنتها حتى تنتشي بلحظات استرجاع ذكرياتها عندما ولدت ابنتها، وترى كيف أن هذه الابنة جلبت لها حفيداً،

وهي في تلك اللحظات تشارك ابنتها آلام ووخزات المخاض، تشعر برضى عن هذه الابنة التي قدّمت لها حفيداً يجعلها تسترجع نحوه مشاعر الأمومة، ولكن هذه المرة بشكل مختلف وطعم مختلف ونشوة مختلفة يفوق في بعض لحظاتها مشاعر الأمومة، فكلمة / جدتي / تكون أعمق وقعاً في نفسها أحيانا من كلمة / أمي /.

أحسست تقى بآلام شديدة جعلت ابنتها ميرهان تتقدم إليها شاحبة، فأشارت لها ألا ترفع صوتها كي لا تزعجه في خلوته.

وعندما زادت آلامها زحفت بشكل بطيء حتى دخلت ذات الحجرة التي أنجبت فيها ميرهان، ونجد.

عندئذ أشارت لابنتها أن تذهب إلى أم بيار وتناديها.

بعد قليل دلفت أم بيار هلعة، وعندما رأتها في ذاك الوضع قالت: أين جاري ألماظ ؟ صمتت تقى وطلبت إليها أن ترسل ابنها بيار على جناح السرعة بالدراجة الهوائية كي يجلب القابلة.

عادت شيندار إلى البيت متلكئة بخطواتها وطلبت من ابنها أن يحضر القابلة على جناح السرعة، ثم ما لبثت أن عادت أدراجها إلى جارتها.

في ذروة تلك اللحظاتكم تمنت فيما لو كان حاضراً بجوارها كما في الولادتين السابقتين، بيد أنها حرصت على بقائه في خلوته.

إنه يشكّل كل عالمها، يبدو في نظرها شامخاً كجبل، قوياً لا يعرف الوهن درباً إليه ،

يمثل في نظرها ذروة الرجولة، تشم منه رائحة الرجل الحقيقي الحكيم الرزين الذي يمكن للمرأة أن تسند ظهرها إليه وتمشي برفقته مغمضة العينين.

أحيانا ينتابها إحساس أن لا قوة تفوق قوته، لا شجاعة تفوق شجاعته، لم يسبق لها أن حملت هذا الحجم الهائل من الاحترام لكائن سواه، حتى أنها عندما تزوجته قفز إلى مخيلتها كيف أنها نجلت أن تحدث بهاتفها الخلوي بحضوره، بل نجلت أن تحمل الهاتف وهو موجود بجوارها.

لم تكن تتخيل أنها تستطيع أن تتحدّث مع شخص آخر وهو مهيمن بكامل حضوره، بل عندما يكونان معاً، لا تفكر بشيء سوى أن تنظر إليه وتترقب حركاته وتصرفاته وهو يأكل، يشرب، يرتدي ثيابه، يشاهد برامج التلفاز، يحدّثها، يطلب منها حاجة.

يعتريها إحساس بأنها تتعلم من كل حركة تبدر منه، من كل كلمة تصدر من فيه، منذ أيام قالت لأم بيار: تعلمتُ منه يا شيندار كيف أن الحقيقة تكون زينة وقوة الرجل ،كيف أن المرأة لا تكون قوية أمام نفسها، وأمام المجتمع إلا إذا كان زوجها قوياً، وتبدو ممزقة أمام نفسها وأمام المجتمع كلما كان زوجها واهناً.

في تلك اللحظات كان ألماظ منتصباً قبالة الرزنامة كراهب يتخيل كم من الصفحات سيمزق، وما جدوى تمزيق الصفحات دون أن تشرق بمحتواها.

في الماضي كان يمدّ يده كل صباح إلى الرزنامة، وهو يشعر بأنه يقطف وردة من حديقة السنة، كان كلما سحب صفحة، أشرقت أمام ناظرَيه صفحة يوم مشرق جديد.

اعتراه إحساس بأنه كان على وشك أن يرمي نفسه في قعر جب، فآثر التراجع إلى الخلف أمام إحساس بأنه عاجز أن يتكهن كم من الأيام مضت حتى يحدد اليوم والتاريخ، ثم أنه لا يعرف في أي وقت هو الآن سوى أنه يرفل تحت جنح ليل ثقيل.

بعد نحو ساعة حضرتْ القابلة وعندما أجرت لها بعض

الاختبارات، قالت بأنها ستباشر في عملية الولادة على الفور.

لم يستغرق ذلك وقتاً طويلا حتى تناهى إلى سمع ألماظ في غرفته صرخات ابنه. استغرب أول الأمر لِما سمع، وعندما تواصل النشيج وتعالى، أدرك أن ذلك في بيته، فخرج ليرى جارته شيندار تحمل الوليد في الصالون.

أحست المرأة بصدمة عندما رأته خارجاً من غرفته، بيد أنها أخفت معالم دهشتها وخطت إليه قائلة: مبارك يا جاري ألماظ، إنه ولد إنشاء الله يتربى بعزك.

قال: تسلمي يا أم بيار.

ثم تناول الطفل من يدها وقبله، وراح يؤذّن في أذنه كما فعل مع طفليه السابقين.

عندها خرجت الممرضة من حجرة الولادة وأحضرت حقنة كي تحقنه.

استغل ألماظ تلك اللحظات فدخل إلى زوجته قائلاً: كيف حصل ذلك، لماذا لم تخبريني عزيزتي ؟

ابتسمت بوجهها الشاحب، فمال إليها ووضع قبلة على جبهتها.

في غمرة تلك اللحظات، مدت كفها إلى كفه، فتشابكت أصابع الكفين بشدة وكأنهما يعبران عن حجم القوة عندما يكونا معاً.

قال: إنه ابننا المرتقب الذي اتفقنا أن نسميه / إنشاز /.

ابتسمت قائل: إنه إنشاز.

في تلك اللحظات كم رغب لو أن الهاتف يعمل، أو أن السيارة لم تنفذ من الوقود كما الحال بالنسبة لجميع السيارات التي تحولت إلى هياكل حديدية أمام بيوت أصحابها.

كان سيتصل بماما نسيمة ثم بأختيها تقية وبارعة ويجلبهن، لكنه أمام ذلك انطلق إلى قلب المدينة بواسطة عربة ركاب يقودها حصانان، بدأت تعمل في النقل الداخلي، حيث اضطر الناس للعودة إلى الحياة البدائية في نمط الحياة.

فور وصوله سوق المدينة، أقدم على شراء دراجة هوائية واتجه بها إلى ماما نسيمة، أركبها خلفه، وفي الطريق عرج إلى بيت تقية طالباً إليها أن تخبر بارعة وتحضران فوراً إلى تقى.

عندما وقعت عينا تقى على ماما نسيمة، راودها إحساس بأن

الشمس قد بزغت، وسعت إلى النهوض من الفراش، بيد أن نسيمة منعتها وطلبت إليها أن تبقى مستريحة.

مالت بفمها على خديها وصارت تقبلها وتضع رأسها في حضنها كما لو أنها طفلة.

قالت: مبارك ما جاءك وما جاءني يا بنتي.

قالت وهي تذرف الدموع: بارك الله لنا بك يا ماما.

عندئذ استأذنتهما شيندار كي تذهب إلى بيتها لتقضي بعض الواجبات ثم تعود، نهضت ماما نسيمة شاكرة إياها على العناية التي أبدتها تجاه جارتها.

مع مرور الوقت، بدأت تُقى تشعر بتحسّن واستقرار، بعد أن حضرت أختاها مع زوجيهما وأولادهما، وحضر جمعات مع زوجته تاركاً الأولاد في البيت.

تحلقوا جميعاً حول تُقى يتبادلون أحاديث الذكريات، ولدى مجيء شيندار، اتجه الرجال إلى غرفة تاركين النسوة مع تُقى.

أبدت شيندار اعتذارها على التأخر بسبب بعض واجباتها المنزلية، لكن تُقى قالت لها: أتعبتكِ معي كثيراً ياجارة.

قالت: لاتقولي ذلك يا عزيزتي، هذا واجب.

عندذاك قالت لها وهي تبتسم: بهذه المناسبة ياأم بيار نريد أن تحفينا ببعض الطرائف والأمثال الشعبية.

ثم التفتت إلى النسوة قائلة: جارتي أم بيار شهيرة بحفظها للطرائف والأمثال.

قالت شيندار: أروّح بها عن نفسي أحياناً، منذ الصغر كنت أميل إلى سماع ذلك من أفواه الناس، وقد استطعتُ أن أحفظ غالبية ما سمعت.

صمتت قليلاً، ثم قالت مبتسمة: مهما كان حال المرأة ميسوراً، تبقى تحب أن يُكرمها الرجل بالهدية، فتقول: / أنا غنية، وبحب الهدية /.

وذات مرة سمعتُ امرأة تقول عن بنت قصيرة القامة، مكتنزة الجسد: / بنت مثل الفلة المكبّسة /.

ومما أذكره من أيام الطفولة، ما كانت تقوله امرأة تزور أمي: / اللي أمو بالبيت، خبزته مدهونة بزيت/ و/ اللي أمو خبّازة ما ينام جوعان /.

وعن العلاقة بين المرأة وضرتها من ناحية، وبينها وبين سلفتها من ناحية أخرى سمعتُ امرأة تقول: /مركب الضراير سار، ومركب السلايف احتار/ قالت تقى: وعن الجوار ما ذا يقول المثل ياجارتي يقول: / يا جارتي قاتليني وخلي للصلح مطرح/.

وكذلك: / لولا جارتي فقعت، أوطقت مرارتي/

تجلجلت ضحكات النسو، فعلّقت تقى: والله يا جماعة هذه تنطبق علي وعلى شيندار.

استأنفت شيندار قائلة: أما عندما يصبح للجارة ابن مراهق، وتكون لجارتها صبية، فتقول لها:/ يا جارتي خبي بنتك، ابني كبر وأنا أعلمتك/.

ويقال عن المرأة التي تظهر بأنها غنية، وهي فقيرة: / بدال ما تشتري حلاوة المنقوش، روحي رقعي قمبازك وجرابك المبخوش/.

مرة زارتنا امرأة في البيت، وبدأت تتحدث لأمي عن عجوز تتصابى، وأنها زارتها ذات يوم وقالت لها: / كبرتِ يا نانة، وصار لك قبة وخزانة /

وعندما خرجت، قالت لها: / بأول تشرين، تكمل العشرين /.

عندها قالت تقى:عندما كانت الشمس تشرق، جاءتني ذات يوم شيندار وهي تضحك.

قلت لها: خير ياجارة.

قالت: كلما خرجت من البيت، رأيت فتاة تمشي في شارعنا، لا أعرف من أي حارة تأتي.

قلت لها: لماذا تضحكين؟

قالت: لو كانت نعجة، لملأت الشارع ببعاريرها.

قالت شيندار: لولا الخجل لقلت لها ذلك، لكنها بنت، ربما يستر عليها.

استغرقت ماما نسيمة في ضحك قائلة: اتحفينا بالمزيد يا أم بيار.

قالت: أمرك ياماما، بمناسبة هذه الفتاة، توصف المرأة الكسولة بالمثل القائل:

/ في الليلة الغيمانة بتفرح الكسلانة، بتنام، بتنام وتقول: لسه بكيرانة، وبتاكل تنورة خبز وبتقول: لسّاني جوعانة /.

وعن المرأة التي لا تبالي بوضعها المعيشي يُقال:

/ أحسن ما تمشي وتهزي خصرك، روحي رقعي فردة خفك/.

وعندما تشتري جارة حاجة من البائع الجوال في الحارة، وتطلب جارتها إعارة تلك الحاجة تقول لها: /لا تزعلي يا جارة، البياع لسه بالحارة/.

ويُقال عن جمال البنت: /الحلوة، حلوة من فيقة منامها، والبشعة بشعة من طلعة حمّامها/.

* * *

بدأت الحياة تأخذ مساراً جديداً بالنسبة للناس الذين أسلموا للأمر الواقع وبدؤوا ينسجمون مع خصوصية واقعهم الجديد، حيث انقطع الطلاب عن المدارس، وفقد موظفو الدوائر الرسمية الأمل بفتحها بعد ترددهم في أوقات مختلفة ورؤيتها محكمة الأبواب، حتى المخابز الآلية التي دخلها عمالها عنوة كي يوفروا الخبز للناس، توقفوا عن ذلك عندما نفذت المحروقات، وتوقفت محركات الكهرباء الاحتياطية بسبب نفاذ الشحن الكهربائي.

عند ذاك رأى الناس أنفسهم مجبرين للتركيز على المخابز التنورية التي تعمل بواسطة عبوات الغاز، لكنها أمام زحام الناس ونفاذ الغاز بدأت تتوقف عن العمل بشكل متدرج، هذا التدرج الذي

art with relationship ID rId1 was not found in the file.

بدأ يسري مفعوله على بقية مقومات الحياة اليومية، مثل السيارات التي بدأت تختفي عن الطرقات بشكل تدريجي حتى لم يعد الناس يروا سيارة واحدة بسبب نفاذ الوقود، وحتى التي كانت تعمل على جرّات الغاز بدلاً عن الوقود، توقفت بسبب نفاذ الغاز.

أمام هذا الواقع الذي فرض نفسه بقوة على نمط الحياة، بدأت مظاهر الحياة السحيقة تعود لتتفاعل مع إيقاع الحياة اليومية، وتفرض سريان مفعولها في إيقاع الحياة المعيشية اليومية.

بات الناس يستخدمون زيوت الخضار والفاكهة لإنارة المنازل، وإنارة أماكن العمل، حيث يسكبون الزيت في عبوات، ويثبتون فيها فتيلاً قطنياً، ثم يشعلون رأس الفتيل لتلبث النار عالقة ما بقي الزيت في قعر العبوة.

كان ذلك بمثابة إنجاز هام بالنسبة إليهم رغم ما تخلفه هذه العملية من شحّار يجعل أسقف البيوت والمحلات كنسيج خيوط العنكبوت، وكذلك يسبب حرقة للعيون جراء الدخان القاتم الكثيف، لكن ذلك أراحهم من الشموع التي نفذت من كل أرجاء البلاد بسبب كثافة استخدامها، والتوقف عن صناعتها.

ثم بدأت حركة الخيول والحمير والدراجات الهوائية تتكاثر في الطرقات، وقد تحولت إلى وسيلة التنقل الفاعلة، فمَن كان يملك سيارة، غدا يملك دراجة أوحصاناً أوحماراً يقضي عليه مشاويره، بعد ذلك أخذ البعض يستخدم الخيول كوسائل نقل داخلية وخارجية عامة، ثم انتشر /الحنتور/ الذي بدأ ينقل الناس في طلبات خاصة.

عندئذ اكتشفوا أمراً هاماً ما كانوا على علم به، وهو أن الحياة يمكن لها أن تستمر دون زيت، وسمن، وغاز، ومكيفات، ووقود، وسكر، وهاتف، ودون برّاد، وسيارات، ودون شمس أيضا.

مع مرور الوقت وانسجام الناس مع واقعهم الجديد بدأوا يرون ما حولهم بشكل متدرج حيث ألفت عيونهم العتمة وأخذت عليها، وبدأت ترى بعض الملامح حتى أخذ الناس جميعاً يرون بشكل اعتيادي، فغدا بإمكانهم عدّ النقود وتمييزها دون الاستعانة بضوء، وصاروا يمضون في الشوارع سواء ركوباً، أو سيراً على الأقدام دون اصطحاب إنارة لأنهم باتوا يرون بعضهم ويتبادلون السلام فيما بينهم.

عند ذاك مالوا إلى فكرة تخفيف اللمبات في بيوتهم، واكتفوا بلمبة واحدة يشعلونها بعض الوقت، أوعندما يحل ضيوف، أوفي مناسبات، أما عندما ينامون، فإنهم يطفئونها دون تردد.

كل بيت غدا يملك تنوراً حطبياً، تستخدمه المرأة في صناعة حاجة بيتها من الخبز، أما الشقق، فقد صنع سكان كل شقة تنوراً في الشارع بشكل متناسق بحيث تم تحديد المواضع التي أقيمت فيها التنانير.

عندئذ بدأ الناس يكتشفون نكهة هذا النمط من الحياة، فهم يتحابون ويتزاورون ويتآلفون أكثر مما كانوا في أي وقت مضى، يتبادلون الطعام الصحي بشكل أفضل، ينامون بشكل أفضل، ولاحظ الناس بشكل ملفت أن الأمراض التي كانت سارية فيهم قد خفت وهم يعيشون في طقس معتدل حيث لا حرارة مرتفعة، ولا برد قارس، الأمر الذي جعلهم يستمرّون في حفظ مونتهم من الجبن الذي يضعونه في عبوات كبيرة يودعونها تحت التراب بجانب شجرة، أومساحة ترابية من البيت.

أما بالنسبة إلى اللحم، فقد بقي الأمر على ما هو عليه، فيفتح

اللحامون محلاتهم، كما أن بائعي الفروج استمروا في بيع الفروج للناس لأن المداجن، والمسامك، والمباقر لبثت مستمرة في عملها.

أحسس الناس بمزايا نمط حياتهم الجديدة حتى أن البعض بات يقول جهاراً: كم كنا حمقى. . قبل أن ينفذ الزيت بيومين كنا نظن بأن البيت سيُهدم علينا إذا خلا من الزيت، الآن اكتشفنا طعم البيضة المقلية دون زيت، طعم طبق البرغل، طبق المعكرونة، طبق الرز دون زيت.

يقول بعض آخر: كنا نظن بأننا سنموت إذا انقطع هاتفنا يوماً واحداً، أو إذا نفذ المازوت أو نفذ الغاز.

الآن نطبخ لحم العجل على موقد الحطب، ويا له من طعام لذيذ. . بتنا نشعر بالأمان.

حتى أن شيندار عندما زارت جارتها تقى منذ يومين قالت لها: هذا الظلام بما فيه من معوقات للحياة، فإنه يحمل لنا رحمة.

لم تعد جرات الغاز تنفجر بنا، لم تعد السيارات تدهس أطفالنا، لم نعد نرى عائلة خرجت من البيت ولم تعد لأن حادث سير وقع معها، لم تعد الكهرباء تقتل الناس، ارتحنا من تسديد الفواتير التي لم

تكن تنتهي.

هزت تقى رأسها قائلة: ولله معك حق يا جارتي، والأهم من كل ذلك أن الحرب اللعينة انتهت.

عندما بدأ المطر يهطل، وأحس الناس بشيء من البرد القارس، أدركوا بأنهم دخلوا فصل الشتاء، فأخرجوا ثيابهم الشتوية وبدأوا في استخدامها، هيئوا أثاث بيوتهم لاستقبال فصل الشتاء فوضعوا المدافئ الحطبية، عندئذ استطاعوا أن يدركوا كم من الوقت مضى على ليلهم، فقد انتقلوا من فصل الصيف إلى الخريف، والآن يستقبلون أيام الشتاء الأولى.

بدا للناس أنهم استيقظوا للتو، استيقظوا بأبصار من حديد على أنفاض ماض أدركوا جيداً أنه زادهم حكمة، وزادهم تآلفا وتوادداً، لذلك لا يرى شخص شخصاً إلا ويعانقه معتذرا وملتمسا منه السماح.

أحس الناس جميعا بأنهم أخطأوا بحق بعضهم البعض، لا يوجد أحدا لم يخطئ بحق نفسه وبحق شخص آخر خلال سنوات الحرب الفتاكة التي وضعت أوزارها عن كواهلهم، وعلى ذلك لا

يوجد شخص يمكن له أن يستثني نفسه من تقديم الاعتذار أو تقبله.

حين يتقابل شخصان في الطريق، يتباوسان فيقول أحدهما: أعتذر منك.

يجيب الثاني: وأنا أعتذر منك.

بدأت لغة الاعتذار مقترنة بلغة السلام في الناس سواء أكانوا على معرفة ببعضهم، أو كانوا غرباء.

أمام ذلك اقترح البعض أن تتخذ البلاد من بدء الشتاء مرتكزاً لتنظيم الوقت، لكن بعضاً أخر رأى أن مثل هذا التنظيم ما زال مبكراً، فالبلاد تحتاج إلى يقظة مستمرة وإلى وقت مفتوح كي يتمكنوا من إعادة بناء ما دمره نزاع الأخوة فيما بينهم.

عندما يجوع شخص فإنه يجلس ليأكل، وعندما ينعس وينام، سيكون غيره قد استيقظ من نومه، بذلك ستبقى الأسواق مكتظة بالناس، وتبقى المعامل في عملها المستمر وتلبث حركة البناء متواصلة كما هي عليه الآن، فأي شخص في أي وقت يستيقظ، يمكن له ببساطة شديدة أن يركب حماره الخاص، أودراجته الهوائية، أو

يركب عربة يقودها حماران، أو يركب حنتوراً، ويتجه إلى حيث يريد ليرى الناس يقفون على رؤوس أعمالهم وجميع المحال مشرعة، هذه الميزة التي لن تكون ميسّرة إذا تم تنظيم الوقت لأن الشخص قد يستيقظ ويتجه إلى السوق، فلا يرى محلاً واحداً مفتوحاً، ولا يرى عاملاً واحداً في عمله، بل قد لا يصادف شخصاً واحداً في طريقه، وكأنه يمضي في طرقات قرية مهجورة نزح عنها سكانها.

من جهتهم رأى الأطباء ميلهم إلى هذا الاتجاه، واتفقوا فيما بينهم على أهمية العمل لإعادة بناء الإنسان في البلاد، وقال طبيب قديم: إذا وضعنا بناءً في أيدي أناس مرضى، فسيحيلونه إلى خربة، وإذا وضعنا خربة في أيدي أناس أصحاء، فسيحيلونها إلى بناء.

غدا الأطباء على شكل أفواج يركبون حميرهم الخاصة ويتجهون إلى الناس في البيوت والمعامل والمحال والأسواق والمساجد والكنائس، وهم يقدمون الوعي الصحي والعلاج للناس.

من جهتهم أخذ أهل الأدب والتربية والحكمة يقومون بزيارات ميدانية إلى الناس، ويرفعون من مساحات الوعي لديهم، يعزّزون فيهم مشاعر الثقة بالنفس، بدت البلاد وكأنها في مصح كبير، كل

شخص يقدم ما لديه من خبرة للآخر كمحاولة منه للاعتذار الكبير عما وقع سواء منه أو من غيره، بدت لدى كل واحد رغبة كي يخرج عن جلده، وينسى ما كان يحدث في نسيج هذا المجتمع، أدركوا أن مبدأ الحرب الأهلية، هي أكثر ضراوة من مبدأ الحيوانات الشرسة في الغابات، هذا المبدأ الذي بدأ يجيز لشخص أن يخطف طفلة من يد أمها وهي تأخذها إلى المدرسة، ثم يتصل بها ليطلب فدية، وعندما تقول بأنها لاتملك، يطلب منها أن تبيع البيت، وتفدي ابنتها بثمنه، وعندما تأبى ذلك، يرمي لها أشلاء ابنتها واضعاً الناس أمام خيارين لاثالث لهما.

ثم تأتي جماعة لتخطف طبيباً من عيادته وهو قائم على رأس عمله يسعف، أو يطبب مريضاً، أو يُتصل به لإسعاف مريض، وعندما يصل، يُختطف في كمين نصبوه له، لقد جاء الطبيب طوعاً كي يسعف إنساناً، حتى لو كانت طريقة سهلة لاختطافه، فأمام استجابته كان على هؤلاء أن يترددوا لأنه لبى نداءً إنسانياً لإنقاذ حياة إنسان وقد ترك عيادته ومرضاه مستجيباً.

حتى لو كانت طريقة سهلة لاختطاف طفلة، كان عليهم أن يتركوها أمام صرخات أمها.

أي حالة إنسانية متردية هذه، هل كانت البلاد تستحق كل هذا، هل كان المجتمع يستحق كل هذا.

اكتشف الناس أنه ليس هناك أسوأ وأكثر روعاً من الفوضى الأمنية في مجتمع يسوده الجهل، عندذاك تسود لغة الافتراس في أقسى وأعلى درجاتها.

تعلموا درساً لن ينسوه، ويراودهم إحساس أنهم مهما قدموا لبعضهم بعضا، فإن ذلك لا يتساوى بحجم الويل الذي سببوه لأنفسهم، حيث لم يقدم أحد من كواكب أخرى للقيام بذلك، كانوا من نسيج قماشة واحدة، يعرفون بعضهم البعض جيداً.

كان يمكن لأي شخص أن يطلق النار خلسة على شخص آخر في محاولة انتقام.

كانت أصوات الرصاص في الليل والنهار ترعب الكبار والصغار حتى ضجر الناس الإقامة في هول مريع كهذا، ضجروا نمط الرعب وباتوا ينزحون عن أحب بقاع الأرض إليهم وقد أدركوا في تلك اللحظات أكثر من غيرها أن لا أحد يخرج من موطنه سعيداً، لا أحد يعود إلى موطنه حزيناً.

عندما يخرج المرء من موطنه، فإنه يخرج عن ذاته، وعندما

يعود إلى موطنه، فإنه يعود إلى ذاته.

لذلك كانوا يلبثون على اتصال دائم مع أهليهم، يلبثون على تواصل مع أخبار الوطن من خلال كل وسائل الاتصال لعلهم يروا بصيصاً يبث فيهم أمل العودة إلى رحاب تلك البلاد التي هي مسقط الرأس، مسقط الروح، والحب.

الآن هاهم يذرفون الدموع ويعودون أفواجاً أفواجاً حتى بدأت بلاد الغربة تخلو منهم بعد أن كانت مكتظة بهم، ظلام الوطن هو أحب إليهم من شمس الغربة، يعودون وهم يعانقون تراب الوطن، يعودون رغم أن الشمس خاصمت بلادهم ولم تعد تشرق عليها، بيد أنهم يلتمسون الأمن، عندما يتوفر الأمن، تكون هناك إمكانية للحياة والتطور، لكن عندما ينعدم الأمن، فلا شيء يغري بالبقاء بالغاً ما بلغ.

هاهم يعودون، وقد تخلوا عن رفاهية الغربة، هاهم يعودون فرادى وجماعات وهم يركبون على ظهور الحمير، يعودون إلى مدنهم وقراهم وطرقاتهم، يعودون إلى ناسهم ومجتمعهم الحقيقي الذي ينتمون إليه.

من جهتها لبثت حركة العمار مستمرة ومتألقة معيدة البلاد بشكل متدرج إلى لمسات جمالية بحلة جديدة، اكتشف الناس وهم في ذروة عملهم طعم حب البلاد، اكتشفوا أنهم ما أحبوا بلادهم من قبل، ما شعروا بمسؤولية تجاهها، إنهم الآن يتذوقون ويعيشون لحظات حب البلاد والمجتمع معاً، كل واحد يشعر بأن بلاده هي بيته الكبير وقد تحوّل كل فرد إلى حارس أمين على البلاد.

حينها أحس الناس بثراء مادي لم يشهدوا له مثيلاً من قبل، باتوا يرفلون برغد العيش وقد تحولت البلاد إلى بستان مفتوح.

من جهتهم رأى المحامون أن يغلقوا أبواب مكاتبهم بعد ترددهم إليها دون أن يطرق أحد تلك الأبواب، فلا أحد يتشاجر مع أحد، ولا أحد يعتدي على أموال وممتلكات أحد، ولا أحد يدهس أحداً بسيارته، لا أحد يدّعي على أحد؛ أصبح كل محام يركب حماره ماضياً في السوق وهويمتهن مهنة أخرى، عندئذ رأى الأطباء أن يحذوا حذوهم، حيث تقلص عددهم بشكل كبير وحوّلوا عياداتهم إلى مهن أخرى.

حينها فقط بدأ الناس يدركون هول المأساة العظمى التي كانوا

يعيشون في متاهتها،

كان البعض لا يتذوق اللحم في الشهر مرة واحدة، البعض لم يذق طوال حياته أنواعا من الفاكهة التي كان يراها دون أن تخطر له فكرة أن يتقدم ليلمسها.

أدركوا أن كل ذاك الكبت كان ينعكس على سوية علاقاتهم الاجتماعية وإحداث شروخ في بنية روابط العلاقات الإنسانية والاجتماعية فيهم.

لم يكن هناك زواج سعيد بين زوجين، منذ اليوم الأول لزواجهما، وحتى يصبحا جدّين، كانت الشجارات والخلافات العائلية والاجتماعية كبديل وتنفيس عن هول معاناة الحياة اليومية، كانت الخلافات تتفشى بين الآباء والأبناء لتمتدّ إلى الأخوة والأخوات والأقرباء والجوار.

كان العهر متفشياً في قمة الأزمة. . تفاقمت الاعتداءات فيما بين الناس، كل شخص كان يشعر بلغم في قلبه، فكان اللجوء إلى حبوب الهلوسة والمخدرات والكحول كمحاولة أخيرة للتخفيف من وطأة المعاناة والحرمان وسوء التربية والجهل.

يذكرون النزعات العدوانية التي تفشت في نفوس شبابهم حتى تعددت الجرائم بين الجوار والأصدقاء والأقرباء.

الآن، كأنهم كانوا في حلم واستيقظوا. يدركون أن بلادهم كانت بلاد مستشفيات، وصيدليات،وعيادات طبية، ومكاتب محامين،وثكنات عسكرية، ومبان حكومية.

كان الجميع يريد أن يرى مبررا لحضوره ليستمر في عمله، كل يوم كانت الأعداد تزداد. أطباء جدد.. صيدليات جديدة.. محامون جدد. ..مبان حكومية جديدة. ثكنات عسكرية جديدة. فروع أمنية جديدة. أفواج جديدة من عسكر إلزامي.

كان على كل موقع أن يكتظ بالمراجعين حتى يثبت جدواه، كان الناس يتزاحمون على قصور العدل ومكاتب المحامين، وعيادات الأطباء والمشافي، والمخافر، والثكنات العسكرية، والصيدليات، والبلديات، والماليات، وكوات تسديد الفواتير.

الآن يستيقظون ليدركوا أن ذلك كله لم يكن له لزوم، يكتشفون أن لا أعداء لهم، لا خصوم لهم، لا مخاطر تهدد حياتهم، هؤلاء الشبان يحرسون الآن المجتمع، يتفاعلون مع بنية العلاقات

الإنسانية والاجتماعية.

ذاك الذي كان مدمناً على المخدرات، أقسم بأنه لن يقربها مرة أخرى، وبات كما لو أنه مصلح اجتماعي، يعمل ويقدّم الحكمة للآخرين، يتزوج ويؤسس بيتاً جديداً في مجتمعه؛ لم تعد المشافي تستقبل جرحى حوادث سير ومشاجرات، لبثت قصور العدل والثكنات العسكرية، والدوائر الحكومية كهوفاً محكمة الأبواب لا تلزم أحداً، بات الناس يتساءلون عن كل تلك الخيرات التي كانت تستهلكها تلك الأماكن التي كانت عبئاً على كد الناس وشقائهم، باتوا يلطمون وجوههم على ما كانوا فيه، كيف كان يسري ذلك عليهم.

مئات الآلاف من الأشخاص كانوا يقبضون رواتب دون أن يكون لهم أي لزوم.

كانوا يمضون أوقاتهم في التدريب على أسلحة، على حراسة حجارة، حراسة ذخائر عسكرية، حراسة أشخاص، كانوا يمضون في لهو، ولعب، وخمول.

غدا ذلك دافعهم الأقوى نحو بذل قصارى جهدهم كي يعيدوا

بناء ذواتهم وبلادهم، فألفوا أبواب الحياة تنفتح أمامهم كما لم تنفتح من قبل حتى أن الناس من جميع بلدان العالم باتوا يرغبون في زيارة بلدهم.

أصبح ذلك مدعاة سعادة وحبور بالنسبة إليهم وهم يستقبلون أفواج السياح، ويرحبون بهم، يقدمون لهم وسائط النقل المتاحة.

عندئذ رأى السياح وبعض المراقبين من دول العالم ما أذهلهم وهم يكتشفون أن هذا الشعب الذي يعيش في ليل طويل بعد سنوات حرب فتّاكة، هو أكبر شعوب العالم رفاهية وغنى، وصحة، وتفاؤلاً في العالم، حيث تبيّن لهم أن حصة كل شخص من تناول اللحوم تفوق حصة أي شخص أخر في العالم، كذلك الأمر بالنسبة إلى الفاكهة، والخضار، واستخدام الثياب الجديدة، وكذلك الدخل السنوي الذي تجاوز دخل أغنى شعوب العالم.

هذا كله إلى جانب عدم وجود نسبة بطالة تذكر، الأمر الذي جعل المراقبين يقترحوا هذه البلاد كأغنى بلاد العالم، وأكثرها أمناً رغم الظلام، وشعبها كأكثر شعوب العالم رفاهية ورخاء واستقراراً.

أمام هذه التصريحات التي راجت في وسائل إعلام العالم

بسرعة الريح، غدا الناس يتوافدون من مشارق الأرض ومغاربها حاملين معهم الأموال، ليمضوا إجازاتهم في ربوع هذه البلاد.

لم يقتصر ذلك على عامة الناس فقط، بل كان مدعاة للملوك، والرؤساء، والأمراء ليقوموا بزيارات ترفيهية إلى هذه البلاد، كي يلمسوا ويعيشوا خصوصية الحياة في ليل طويل، حتى شاع قول في أرجاء العالم بأن الذي لا يدخل هذه البلاد الغريبة التي تبدو كأنها تعيش في كوكب آخر في ليل طويل، كأنه لم ير شيئاً في الدنيا.

عندما يلج الرؤساء والملوك ربوع البلاد، ينقطعون عن العالم تماماً بسبب قطع الاتصالات، ووسائل السير، فيضطرون لركوب لحمير أو الخيول للتجوال،

وهم يعبرون عن مشاعرهم العميقة بالأمن والراحة والهدوء رغم عدم وجود بروتوكولات، واستقبالات رسمية، وحراسات مشددة لهم بسبب عدم وجود رئيس أو وجود مَن ينوب عنه في البلاد.

يمضون الأوقات دون أن يعلموا كم أمضوا، بيد أنهم يرغبون في البقاء وهم يمتعون بركوب الحميرأوالخيول، والتجوال بها في عالم من

الهدوء والسكينة وسط حفاوة الناس في حياة طبيعية دون حراسة، ولا خوف، ولا حذر.

يعيشون مشاعر حقيقية للحرية والطمأنينة الروحية، ثم يعودون إلى بلدانهم، يتحدثون لوسائل الإعلام عما عاشوا، ولمسوا، ورأوا، رأي العين.

لكن الحدث الذي غدا حديث الساعة، وجعل اسم هذه البلاد على كل شفة ولسان في كل أرجاء العالم، كان حينما دخل أحد الملوك هذه البلاد لزيارة استطلاعية وترفيهية، ولم يحضر إلاّ برفقة عدد قليل من مرافقيه.

عندما حل في حدود البلاد، رأى ظلمة حالكة، فقدّم الناس له ولحاشيته الصغيرة وسائل الركوب للتجوال بها، وذلك على سبيل هدية عندما علموا أنهم ضيوف وفدوا من بلاد الغرب لقضاء عدة أيام في بلدهم، فعدوهم ضيوفاً شخصيين لهم، وقدموا كل ما ييسر لهم من وسائل الإقامة.

بعد مرور شيء من مدة الإجازة، فوجئ مرافقوه أن مليكهم قد اختفى عنهم، فبحثوا عنه طويلاً وسط الظلام، رفعوا أصواتهم

في مكبرات الصوت دون أن يعثروا له على أثر.

عندها اضطر المرافقون للعودة إلى مملكتهم دون الملك، وأخبروا مسؤولي المملكة بحقيقة ما وقع.

كانت الأيام تمضي عليه دون أن يعلم بها حتى نشرت المملكة أنباء عن اختفاء ملكها في ظروف غامضة لدى قيامه بزيارة ترفيهية إلى هذه البلاد المظلمة.

الأمر الذي أشعل ثورة إعلامية هائلة في كل وسائل العالم، حيث كان على الملك أن يقضي ثلاثة أيام ويعود برفقة مرافقيه إلى بلاده، لكن الأيام الثلاثة مضت دون أن يعود وقد افتقده المرافقون بغتة، من جانبه كان الملك يتمتع بركوب الحمير والتجوال البطيء بين المدن في انقطاع تام عن أخبار العالم، وهو يستمتع بمشاعر أنه تقصد التخلي عنهم كي لايذكّروه بشيء من وقائع حياته في بلاده، وحتى لايرى غير الوجوه الجديدة، و يلبث في غياب تام عن عالم السياسة.

عند ذاك حضر رجال من طاقم قوات النخبة الملكية الشخصية، وباتوا يبحثون عنه في أرجاء البلاد دون أن يعثروا له على

أثر حتى فقد بعضهم البعض، كما حدث بالنسبة لطاقم مرافقيه السابق بسبب الظلام الحالك، وعدم فاعلية الاتصالات، والانتقال البطيء بالحمير، الأمر الذي دفعهم إلى العودة كل بطريقته، ليلتقوا جميعاً في المملكة ويصرّحوا أنهم لم يعثروا على الملك المختفي.

عندما أحس الملك بأنه أخذ كفايته من الراحة والاستجمام والابتعاد عن الأنباء المثيرة، والأضواء العالية، والتنقلات، والاستقبالات، قرر العودة إلى بلاده، فتلقى إذ ذاك من الناس خدماتهم التي جعلته يخرج من البلاد ويجتاز حدودها، ليحل في دولة مجاورة، ويقوم بزيارة مفاجئة إلى سفارة بلاده هناك، ثم يعود إلى المملكة على متن طائرة خاصة يصطحبه السفير.

بعد نحو ساعة من وصوله، نشرت وسائل الإعلام المحلية نبأ عودة الملك بسلام إلى أرض المملكة، وهو يعتذر عن الإدلاء بأي أحاديث صحفية، بيد أنه يعد الناس جميعاً بأنه سوف يكتب مذكرات وقائع زيارته هذه في وقت قريب.

هذه المغامرات التي باتت تنتشر في وسائل الإعلام بدأت تغري كبار الأدباء والشعراء في العالم حيث غدوا يتدفقون إلى

أرجاء هذه البلاد بحثاً عن الهدوء، وعن طقوس خاصة يستلهمون من خلالها أفق كتاباتهم الجديدة في بلاد غدت حديث الساعة بالنسبة للعالم، وكأن لابلاد غيرها، فمن يدخلها ويخرج منها لايلبث أن يصبح نجماً حينما تنهال عليه العروض الإعلامية ليتحدث عن مزايا بلاد لاتشرق فيها الشمس.

أمّا الأمر الآخر الذي زاد من التأجيج الإعلامي أن بعض وسائل الإعلام بدأت تتحدث عن خصائص هذه البلاد في العلاج النفسي، وقد حدث ذلك عندما أوصى طبيب نفسي شهير مريضه الذي هو أغنى رجل في العالم والذي بات يعاني اضطرابات نفسية، أن يمضي بعض الوقت في هذه البلاد الهادئة حيث سيحقق ذلك له الراحة من الاتصالات الهاتفية، والتلفاز، وصخب صعود الحافلات وأصواتها ودخانها، والأضواء المرتفعة.

تلك البلاد التي تمتاز بأنها اليوم أفضل مصح للإنسان في العالم حيث نقاء الهواء وهدوء الطقس، وشعور كامل بالأمن، وتحرر الإنسان بأنه مُحاصر بالوقت.

استجاب ذاك المريض لمقترح طبيبه، وحضر إلى البلاد، وبعد

عودته أدلى بأحاديث لوسائل الإعلام قال فيها أنه بالفعل أمضى وقتاً مفتوحاً في ربوع هذه البلاد حتى تماثل للشفاء وأقبل على الحياة بعد أن كان على وشك الانتحار بسبب يأسه من الحياة، ولم يكن يعلم بالوقت الذي أمضاه لولم يخبره طبيبه بأنه أمضى شهرين في ربوع تلك البلاد.

عندها علق طبيبة النفسي على ذلك قائلاً: إن عوامل الحياة البدائية لمدة شهرين في ليل لا نهائي كانت كفيلة أن تضخ إليه طاقة جديدة من إشراقة الحياة.

من جهة أخرى بدأت أفواج العلماء تتسرب إلى البلاد بعدما علموا من خلال وسائل الإعلام عن بعض الظواهر الطبيعية التي من شأنها أن تقدّم مكتشفات جديدة هائلة بالنسبة لمفهوم الظلام، وخصائص خفية غير مكتشفة في طبيعة العين، وكان ذلك عندما نشر ذاك الملك وقائع الشهر الذي أمضاه في ربوع تلك البلاد.

في البداية، أعلنت دار النشر بأنها مقبلة على بيع نسخ الطبعة الأولى من منافذ الدار، وكذلك من منافذ المكتبات التي تتبعها في مدن المملكة.

عندذاك تجمهرت طوابير الناس أمام المنافذ المخصصة لبيع النسخ، فاضطر العاملون إلى تسجيل الأسماء وفق الدور، وحددت أعداداً من الأسماء للحصول على النسخ كل يوم.

غدا الناس يترددون بشكل يومي ليعرفوا إن كان الدور قد بلغهم، وبدأت وسائل الإعلام تتحدث عن وقائع هذه المذكرات، الأمر الذي دفع أفواج الناس لابتياع نسخهم.

قال الملك بأن أول ما أثار دهشته، هو أن الخيول الملكية التي أحضرها معه من بلاده كي يستخدمها في تنقلاته، لبثت واقفة دون حراك فور دخول الحدود بسبب العتمة الحالكة التي ولجوها، وأنهم عندذاك تركوا الخيول على الحدود، وباتوا يمسكون أيدي بعضهم البعض وهم يمشون سيراً على الأقدام حتى لا يتفرقوا.

بعد نحو ساعتين من المسير على الأقدام في اتجاهات غير محددة، تناهت إلى أسماعهم أصوات الناس، ثم رأوا أشخاصاً يجتمعون حولهم وكأنهم في وضح النهار، حتى أنهم لمسوا أن الأطفال كانوا يلعبون على مقربة منهم بكرة القدم، فعلم الناس بأن سياحاً جاؤوا يزوروا بلادهم، عندئذ قدموا لكل شخص منهم حماراً

كهدية.

وما لفت انتباه الملك هو أن الحمار بدأ يمضي في قلب العتمة بسرعة كأنه يمضي في وضح النهار.

كان الحمار يرى ما لا يراه الملك، وعلى هذا النحو أخذ كل حمار يمضي في جهة دون أن يعلم الراكب أنه ابتعد عن الآخر.

عندها خطرت له فكرة ترك الحاشية كي يكون حراً في تجواله، فتنحى جانباً، وتعمّد الابتعاد عنهم، حينها علت وتداخلت أصوات تلاحق أسماعه، وهو يسرع بالحمار متجاهلاً تلك الأصوات التي علم بأنها كانت تنبهه إلى ابتعاده عن مرافقيه، أخذ يركل بقدميه من الأسفل على بطن الحمار كي يسارع في الجري دون أن يرى شيئاً.

قال الملك في مذكراته التي أسماها / وقائع أغرب شهر عشته في حياتي/: علمتً حينئذ بأنني أُرى ولا أًرى، وهذا ما بث الذعر في نفسي خاصة عندما فقدتً عناصر حاشيتي وبتً وحيداً على حمار بدأ يتباطأ في مسيره وهو يلهث ويلتقط أنفاسه.

كان حالي كحال ملك سقطت به طائرته في عمق صحراء، وعندما استرد وعيه، اكتشف بأنه فقد بصره، وفقد جميع مرافقيه.

دهمني شعور مباغت بأنني ملكٌ أعمى، بيد أن الناس غمروني بطيبهم دون أن يعلموا بأنني ملك.

أخبروني بأن عيونهم اعتادت الظلمة حتى غدوا يرون بها، وكأن الوقت هو ما قبل الغروب بنصف ساعة.

كانت ظلمة دامسة لم يسبق لي أن شاهدت مثيلاً لها إلى درجة أنني لم أكن قادراً على رؤية الحمار الذي أركبه، أو رؤية أصابع يدي.

عندما تأكد للناس بأنني غريب لا أجيد التحدث بلغتهم، زادوا من عنايتهم بي، واتجهوا بي إلى أحد البيوت.

كنتُ في تلك اللحظات أتضور جوعاً لأنني لا أعلم كم من الوقت مضى علي دون تناول أي شيء.

عندما قدّموا لي الطعام، علمتُ مقدار البذخ الذي يعيشون فيه رغم أنني دخلت بيتاً متواضعاً صاحبه أستاذ مدرسة يجيد الحديث بلغتي، شاهدتُ أصنافاً من الطعام لم أذق بلذتها في جميع أسفاري، وماهو أكثر أهمية أنني كنتُ أعيش مشاعر استثنائية لم يسبق لي أن عشتها طوال حياتي حتى وأنا في بيتي، ذلك عندما راودني

إحساس بأنني في مكان آمن مفتوح لا حرّاس له، المهم هنا بالنسبة لي، مشاعر الأمن دون حراسة. .هذا بذاته أتاح لي أن أكتشف أمراً بالغ الأهمية من ثنايا هذه الرحلة، وهو مدى توهمنا بأننا نعيش في أمن عندما نكون محفوفين بحراسة أمنية مشددة، وحقيقة الأمر، كلما كانت الحراسة متقدمة ومشددة، كان ذلك دليلاً قاطعاً على عدم إحساسنا العميق بالأمن، نكون حينها كمن يختفي خلف صخرة تحميه من وصول الرصاص.

لاشيء يجعلنا نعيش ذروة مفاصل الحرية قدر تجوالنا دون حماية حرّاس، وهذا ما لايتاح لي في مملكتي، أوفي أي مكان آخر أتردد إليه، باستثناء تلك البلاد التي أعتبرها ذهبية بامتياز أمنياً، وكذلك إنسانياً.

استطاع هؤلاء أن يكتسبوا من المحنة القاسية التي مرت به مشاعر التخلص من الرياء والنفاق والتملق.

أجل أيها السادة القرّاء الأعزاء، أصارحكم القول أنني أحسستُ بأنني عشتُ مع أناس طبيعيين، عفويين، تلقائيين، يتمتعون بنبل الفطرة الإنسانية، لقد استطاعوا أن يستفيدوا من كل

يوم من أيام المحنة المريعة التي ألمت بهم.

هؤلاء بنظرتي هم أبطال علينا أن نتعلم منهم الكثير، لقد تحولوا إلى حكماء، وكم يشعر المرء بطمأنينة روحية عندما يكون في ظهرانيهم.

بعد أن قضيت نوماً هانئاً على فراش مريح، خرجتُ من حجرة النوم لأرى رجالاً ونساءً يستقبلونني بابتساماتهم المرّحبة، وبوجوههم البشوشة.

عندئذ قال لي أستاذ المدرسة الذي كان يتحدث بلغتي بشكل مقبول أنه مستعد لأي مساعدة يقدمها لي.

قلت له وأنا أشد على كفه بأنني أشكره، وأريد الخروج في حال سبيلي حتى أرى شأني الذي حضرت من أجله.

عندها اصطحبني كل مَن في البيت إلى نهاية الشارع ولوحوا لي بأياديهم كي يتيحوا لي البقاء وحيداً لأنطلق على ظهر حماري إلى حيث أشاء.

كان حماري يرى بشكل جيد أفضل مني، دون أن أرى شيئاً وسط الظلام وهو يمضي، إلاّ عندما كنا نمر بجانب أماكن بها بعض

الأضواء، وعلى ألأغلب كانت أماكن عامة يرتادها الناس لشراء حاجاتهم.

بالنسبة لي، اضطررتُ لبيع ما كان لدي من ذهب لاستخدامي الشخصي كي أستطيع أن أعيش بشكل جيد في ربوع هذه البلاد حيث كانت بعض السلع مرتفعة الثمن قياساً بما آل إليه وضع الناس الاقتصادي، حيث كانوا يدفعون دون تردد، يدفعون بثقة لأن الأسعار كانت ثابتة.

تبيّن لي ذلك عندما فاوضت على شراء بعض المستلزمات أول الأمر، واتضح لي أنهم يرفضون هذا الأسلوب لأن أسعارهم واحدة في جميع المحال، وأنهم لايخادعون الزبائن، ولا أحد يبتاع سلعة، ثم يبتاعها غيره بسعر أعلى، أو أدنى قليلاً.

استأنف الملك يقول في مذكراته: كانت أندر، وأغنى، وأجمل، وأنفس، وأطرف رحلة قمت بها في حياتي، لأنها قدمت لي على الصعيد الإنساني ما لم تقدمه لي جميع رحلاتي السابقة، علمتني دروساً غاية في الأهمية كنت بأمس الحاجة إليها، ولا أعتبر نفسي محظوظاً إلا بمقدار ما ظفرتُ من هذه الرحلة الاستثنائية المجيدة.

بدأت البلاد تتحوّل إلى أكثر بقاع العالم استقطابا للسياح والزوار، وبات الناس من شتى أنحاء المعمورة يعبّرون عن رغباتهم الشديدة في خوض تجربة السفر إلى هذه البلاد والتعرف عن قرب إلى مزايا هؤلاء الناس الذين قال فيهم الملك في نهاية مذكراته: لو خُيّرتُ أن يكون شعبي مثل أي شعب في العالم، لقلت دون تردد: أريده أن يكون مثل هذا الشعب.

لم يكن يعلم الناس أن شوارعهم ذات يوم سوف تكتظ بكل هذه الأعداد الهائلة من الزوّار حتى بات واضحاً أن أعداد هم تجاوز أعداد السكّان.

غدا ملوك الأرض، والرؤساء، والأباطرة، والأثرياء، وأهل الآداب، والعلوم، والفنون، والتربية ينهالون على أرجاء البلاد ليتعرفوا على خصائص هذا الشعب الذي يرفل في الأمن والنعمة، فكان ذلك بمثابة فرصة جيدة أمام الناس كي يصنعوا تحفاً وهدايا ويبيعونها إلى الزوار الذين يقتنون الذكريات والهدايا والتحف والصناعات من هذه البلاد بإقبال شديد، الأمر الذي جعل ثراء الناس يتضاعف حتى شاع فيهم مَثَلُ: الطرقات غصّت بالأموال،

لا تحتاج سوى إلى مَن يخرج ليلمّها.

عند ذاك أصبحوا يستعينون بالأيدي العاملة من خارج البلاد لأن متطلبات الآفاق الحياتية الجديدة، غدت تتجاوز طاقتهم وقدراتهم وأعدادهم، بعد أن نال منهم الإرهاق بسبب الجهد المتواصل والأعمال التي تتسع رقعتها.

الأمر الذي فتح مجالاً أمام عمّال من شتى أصقاع الأرض كي يأتوا ويعملوا في هذه البلاد، حتى أن البيوت غدت فيها خادمات قدمن من دول شتّى، وبات أغنياء العالم يستثمرون أموالهم الضخمة في إشادة مشاريع استثمارية كبرى زادت من ثراء الناس بشكل أكّد للمراقبين أنهم فاقوا جميع سكان الأرض ثراءً وارتفاعا في الدخل، إضافة إلى تحقيق أعلى درجات الأمن، والنزوع الإنساني.

* * *

تناهت نغمات الكمان عذبة شجية إلى مسمعه، أيقظتْ فيه مشاعر جمالية، وطاقة من نشوة غامرة وهو يجلس في محراب غرفته.

بدأت المعزوفات الموسيقية تتوالى على سمعه بعذوبة كأنها قادمة من دوحة ربيع، قفزت مناظر الورود المتنوعة بأشكالها وألوانها وأحجامها وروائحها إلى مخيلته، تلك الورود التي لم يعد يراها أحد، لم يعد يشم رائحتها أحد.

كانت تقى دوماً تحمل له وروداً من أشجار الروضة، وكانت سهدية تضع باقات الورود اليانعة على طاولته في الصباح.

كان يدخل مكتبه الذي يفوح برائحة ألوان الورود، تقدّم سهدية له فنجان القهوة، فيستمتع بدخول أجواء سحرية يشعر معها كم أن الحياة تحمل لحظات متعة حقيقية.

بدأ يصغي إلى عذوبة تلك الألحان التي تعزفها أنامل أكثر مخلوقات الأرض قرباً إلى قلبه.

كانت تعزف وهو يسمع كأنها لا تعزف على أوتار الكمان، بل تعزف على أوتار قلبه.

هكذا يتزيّن الإيقاع الموسيقي ببعد جمالي أكثر رقة وعذوبة، وهو يتناغم بلمسات أنامل أقرب وأعذب وأحب وأغلى الناس وأكثرهم قيمة لديه.

كل إنسان لديه ما يقدمه للآخر، هاهي ابنته تقدم إليه شيئاً مجدياً من مزايا طفولتها، أخذ يُدرك مع الإصغاء أن كل إنسان يملك كنوزاً ثمينة يمكن أن يقدمها للآخر حتى لو كان في عمق صحراء قاحلة، وكل إنسان يملك أسلحة دمار فتاكة يمكن أن يصوّبها إلى الآخر حتى لو كان في عمق تلك الصحراء.

لا أحد لا يملك كنوزاً ثمينة يا ألماظ، ولا أحد لا يملك أسلحة فتاكة، لكن عليك أن تكتشف كنوزك الثمينة، ثم تكتشف الآخر الذي ستمنحه شذاها، ثم تروّض نفسك على تذوق متعة العطاء وتروضها على تذوق متعة التلقي، فيروض نفسه على متعة العطاء ويروضك على متعة التلقي، فيمسي العطاء تلقياً، ويمسي التلقي عطاءً بالنسبة لكليكما في خط متواز حتى إذا أحس أحدكما بنقص في إحدى الخصلتين، أحس بأنه أعرج يمشي على قدم واحدة تلقاء عزيزه.

في ذروة هذا التناغم كما أنك داعبت محيا الكنز الثمين حتى أيقظته من عمق نومه فغسلت وجهه برحيق وردك، عليك أن تكون على جناح يقظة ولا تغفل طرفة رمش حتى لا تلمس خصلات

شعر الغول النائم بجوار أخيه الكنز على ذات الفراش يتغطيان بذات الغطاء ويتوسدان ذات الوسادة.

عليك أن تكون على أهبة التوقع بيقظته بغتة سواء أتحسس بدنه منك بلمس، أو تشممتْ خياشيمه منك رائحة، عندئذ تمسي أعلى درجات المحبة، أعلاها بغضاء،

أعلى درجات الإنسانية، أعلاها توحشا

يتحد التوحش بالبغضاء، لتنبثق عنهما نزعة القتل.

صديق، يقدم على قتل صديقه بعد عمر من محبة وتآلف

زوجة، تقدم على قتل زوجها بعد عمر من محبة وتآلف

زوج، يقدم على قتل زوجته بعد عمر من محبة وتآلف

جار يقدم على قتل جار بعد عمر من محبة وتآلف

بلاد تشن حرباً على بلاد بعد عمر من محبة وتآلف

عشيرة تقدم على قتل عشيرة بعد عمر من محبة وتآلف

لقد انتفض الغول من سباته هائجاً دون أن يرى ما حوله.

تتواصل المقطوعات الموسيقية الأكثر ألقاً على مسمعه، ويتواصل في التأمل في أفق رحبة.

هكذا سعى الإنسان ما بوسعه كي يروّض هذا الغول الهائج ويجعله أقل عنفاً، فكانت فكرة الآداب والفنون لتهذيب الغول لحظة استيقاظه، وفي مراحل متقدمة من التذوّق الأدبي والفني إلى أنسنته.

تذكر الاختبار الذي يقوم به صديقه الطبيب / ريزدار/ منذ عشر سنوات مع مرضاه، ويتوصل من خلاله إلى تحليلات اجتماعية هائلة، وهو يغور في أعماق المجتمع من خلال مرضاه.

ذات مساء بينما كان قد فرغ من عمله، وراح يتجول بسيارته في شوارع المدينة، بغتة رأى نفسه قريباً من عيادة صديقه ريزدار، عندئذ خطر له أن يلقي عليه السلام ويجلس بعض الوقت معه، لأن ريزدار لا يصبح على مقربة من مشغله إلا ويتوقف، ليلقي عليه السلام ويتناول شايا أو قهوة لديه، وعندها يعيد تذكيره: لا أقول لك قم بزيارة خاصة لي، لكن إذا صدف وكنت قريبا من عيادتي، مرّ ولو لبضعة دقائق.

إنه من الأصدقاء النادرين الذين اختارهم ألماظ، ومع الوقت استطاع ريزدار أن يتبوأ لديه بمنزلة أصدقاء النخبة الشديدي القرب

إليه وهم يُعدون على الأصابع.

شخص نهم القراءة، حصل على إجازته من الغرب حيث أمضى سنوات شاهد خلالها إيقاع الحياة الاجتماعية، ومرّ بتجارب إنسانية أغنت من مخزونه المعرفي والإنساني.

ذات مرة قال لألماظ: يمكن للأفراد أن يقوموا بأدوار تنويرية في حياة المجتمعات، فرد واحد يمكن له أن يسهم في استنارة سكان قرية. . خمسة أشخاص يمكن لهم أن يتركوا أثرهم على سكان مدينة، عشرة أشخاص يمكن لهم أن يسهموا في تغيير سكان دولة بأكملها.

المجتمعات المتقدمة تقف على جهود أفراد تحولوا في عرفها إلى قديسين ومحجات استنارة، يمكن لفرد واحد أن يحدث نقلة نوعية في بنية المجتمع الذي يعيش فيه.

علينا أن نكون حذرين في نظراتنا إلى أهمية دور الأفراد، الأفراد في المنزل، الأفراد في الشارع، الأفراد في الحي، الأفراد في العائلة.

نقول هذا البيت فيه فرد فاشل، وهذا البيت فيه فرد متفوّق.

هذا الشارع فيه فرد منحرف، هذا الشارع فيه فرد عبقري.

هذه الدولة فيها آلاف المشعوذين، واللصوص، والشوّاذ، والمنافقين، والمحتالين، والمجرمين، والمدمنين.

هذه الدولة فيها آلاف الفنانين، والأدباء، والعلماء، والوجهاء، والأفاضل، والكرماء، والطيبين.

هؤلاء الأفراد يصنعون مجتمعاتهم، ويسهمون في تقديمها إلى الآخرين.

عندما دلف باب العيادة، وقعتْ أنظاره على أربعة أشخاص ينتظرون في غرفة الاستقبال، عندئذ نهضت الممرضة مرِّحِبة به ببسمة سرعان ما قفزت إلى ثغرها: أهلا أستاذ ألماظ. . تفضلِ. . تفضل، كيف حالك أستاذ، اشتقنا لك.

بادلها البسمة قائلاً: اشتاقت لك العافية يا حلوة.

خطت الممرضة على إثر ذلك إلى باب غرفة الطبيب، أدارت المفتاح، ودعته إلى الدخول على الفور.

تلكأ في الدخول عل الطبيب الذي خمّن أنه قد يكون في وضع حرج مع أحد المرضى، بيد أن الممرضة كررت قولها: تفضل. .

تفضل. . لتكن مفاجأة سارة مني له حتى يعرف قيمتي.

عندما رآه ريزدار، استقبله بترحاب وراح يتبادل معه القبلات قائلاً: يا لها من مفاجأة سارة.

كان ثمة رجل يقف بجانبه يحمل أدوية بيده.

قال له ريزدار وبدا أنه يستأنف حديثاً كان قد قطعه إثر دخول صديقه: عليك ألاّ تهمل مواقيت الأدوية، لأن ساعة تأخير أو تقديم يمكن لها أن تترك أثراً على سوية العلاج، هذه المواقيت حدّدها مختصون بعد تجارب، واختبارات.

شكره الرجل وهو يخرج، عندئذ دخلت الممرضة على الفور، وهي تنظر إلى الطبيب الذي هزّ رأسه بالإيجاب، فعادتْ إثر ذلك، وأدخلتْ مريضاً.

قال ريزدار: عن إذنك يا صديقي يمكنك أن تتصفح حسابي على تويتر، ثم دخل مع المريض إلى حجرة المعاينة.

انتقل ألماظ إلى كرسي صديقه ويجلس خلف طاولته، قرأ تغريدة كتبها، ثم قرأ ما كتبه الأصدقاء.

بعد نحو عشر دقائق، خرج الطبيب برفقة مريضه، فنهض ألماظ

من خلف الطاولة، لكنه مدّ يده إلى كتفه حتى يبقى في مكانه، وراح يكتب وصفة للمريض وهو واقف.

تناولها المريض الوصفة وخرج، لتدخل الممرضة، وهي تنظر إليه، إلا أنه لم يهز رأسه، واكتفى بالقول: كأس شاي طيب للأستاذ ألماظ.

قال ألماظ بعد أن جلس صديقه على كرسي: باتت مواقع التواصل الاجتماعي ضرورة ليس للأفراد فقط، بل للمجتمعات الإنسانية أيضا، كنا في الماضي نقول: تنقلب حافلة، فيموت فيها عشرون إنسانا في بلادنا دون أن تسمع المدينة المجاورة عما حدث، ويصاب كلب بمرض في بلاد الغرب، يسمع العالم كله.

الآن عندما يقع حادث في بلادنا، يمكن أن يسمع به العالم كله، هذه قوة للمجتمعات، وضعف لسلطات الجور.

قال ريزدار: الإعلام أشد قوة ونفوذا من القوانين، لن يكون بوسعنا أن نكون أقوياء إلا عن طريق التواصل الإعلامي مع الآخرين.

كثير من أصحاب النفوذ في العالم، يمنعهم خوفهم من الإعلام

كي يجنحوا، لأن الإعلام يقف للناس جميعا بالمرصاد، ولا خوف على شعب يسانده إعلام بلاده.

الخوف، كل الخوف يا صديقي على شعوب، إعلام بلادها مفكفك المفاصل، يكون عليها، أكثر مما يكون معها.

ما حققته مجتمعاتنا من انتصارات يمكن الإشادة بها، كان بمعونة انفتاح الإعلام، وما كانت تعانيه، كان بسبب انغلاق الإعلام.

في تلك اللحظات، أدخلت الممرضة كأسين من الشاي إليهما، وصوّبت نظرها إلى طبيبها الذي هز رأسه، فخرجت وأدخلت مريضة على الفور.

دخلت الممرضة برفقتها إلى غرفة المعاينة، ثم ما لبث أن دخل الطبيب بعد أن تناول رشفة من الشاي الساخن.

عندئذ بدأ ألماظ يحتسي الشاي، واستأنف قراءته في حساب صديقه حتى انتبه إليه خارجاً من حجرة الكشف وهو يقول: المعذرة يا صديقي.

قال: إنك تحرجني يا ريزدار، بل أنا أعتذر منك لأنني

اقتحمت عليك عيادتك في وقت العمل.

قال: أأنت تسمّي هذه الزيارة اقتحاما، وتدرك جيداً بأنها تلبية دعوات مُلحّة مني، لقد تفضلتَ واستجبتَ لدعواتي المتكررة، وكان عليّ أن أتفرّغ للحديث معك، لكن تشير لي الممرضة أن بعض الحالات طارئة، لذلك أقدم اعتذاري الشديد منك.

ثم راح يكتب وصفة وهو واقف ويمدها إلى المريضة.

جلس يكمل احتساء شايه وهو يقول: أدخل دائما إلى صفحتك في الفيسبوك. . لديك علاقات واسعة في مختلف العالم مع شخصيات بارزة وذات قيمة حقيقية.

قال وقد نهض محتسياً آخر ما تبقى في الكأس: شفتك بخير يا عزيزي.

قال ريزدار: بقي ما هو أهم، ولم أقله لك

قال ألماظ: مستعد لسماعك

قال: الأمر يحتاج إلى جلسة خاصة

قال: إذن، نتعشى في النادي، وهذه عزيمة مني، إن أردتها عائلية، أو أردتها فردية.

قال: مادام الأمر هكذا، لتكن عائلية، أم آرين ستكون اشتاقت لأم ميرهان، والأولاد أيضاً يكونوا اشتاقوا لبعضهم.

ها هي ابنته تقدم إليه ما ليس بوسع أحد أن يقدمه، كما أنه يقدم لابنته ما ليس بوسع أحد أن يقدمه إليها.

بعد أن خيّم الليل بحين، خطرت له فكرة بيع آلات موسيقية في جزء من مشغله، كان ذلك عندما دخل إليه شخص وقال بأن اسمه طوني وهو مدرّس موسيقى، واقترح عليه أن يقيم دورات موسيقية في غرفة من المشغل، وهو لا يحتاج سوى إلى غرفة واحدة، يأتي إليها الطلاب لتلقي الدروس الموسيقية.

عندما أخبر تُقى بذلك، قالت: معقول يا عزيزي. . خدمة جيدة نقدمها للأطفال، بعد أن تعلمت/ميرهان/العزف على الكمان، أشعر بأن ذوقها تجاه أمور كثيرة صار أفضل، وتقييمها لمفاهيم عديدة في تحسّن، أراها وهي تشعر بمسؤولية أنها تملك أن تفعل شيئا مجديا.

قال: الموسيقى من الوسائل التربوية التي تسهم في تلطيف وتهذيب النفس، الفن لا يقل قيمة وأهمية عن الأدب.

قالت: أمّا من الجهة الثانية، فهذا سيفتح لنا باب رزق إضافي، خاصة إذا خصصت ركناً لبيع الآلات الموسيقية في المشغل، سوف يزداد بيع الآلات الموسيقية بوجود الدورات، وسيصيبنا جزء من الاشتراكات الشهرية للطلاب.

قال: وهذا سيتيح لي كي أرتاح من أخذ ميرهان ونجد إلى الدورات، سيأتيان ويعودان معي، نجد يميل إلى الجيتار.

عندما توقفت ابنته عن العزف، نهض فاتحاً الباب واتجه إليها، قبّل أناملها، ثم أخذها في حضنه تاركاً الدموع تنهمر من عينيه، للتو أدرك بأنه يرى فيها أجزاء من كل امرأة عرفها، يرى فيها حنان الأم، لمسات الأخت، جزءاً من الخالة، من العمة، من الجدة، هكذا تأتي الابنة كتعويض عن كل امرأة عرفها، تأتي مختزلة وحاملة مزايا كل امرأة تخصه عن قرب أم عن بعد.

إنها إشراقة الطفولة، الشمس التي تسطع على ليله كلما فتح عينيه، هكذا يكتشف أن لكل واحد من أبنائه لونه، ورائحته، وجماليته، كما أن لكل صنف من الورد لونه، وجماليته، ورائحته.

لا وردة يمكن لها أن تنوب عن أختها أو أخيها، كذلك لا ابن

يمكن له أن ينوب عن الآخر، لذلك يبذل قصارى جهده ليرسّخ فيهم قيماً، يعزز مبادئ إنسانية في نفوسهم.

يزداد شعوراً بأنه إزاء عبء مسؤولية عظمى تجاه تشكيل ملامح جيل بشري بأكمله، هذا العبء الذي يضفي على الحياة برمتها طابع الجدّية: لأن الطفل الذي تتهرب وتتخلى عن مسؤوليتك تجاهه يا ألماظ، سوف يعاقبك عندما يكبر وإن لم يعاقبك، فإن أفعاله وصنائعه ستكون عقوبة لك، كما أن الأول لا يتوانى عن مكافأتك وحتى لو لم يكافئك، فإن أفعاله وصنائعه ستكون مكافأة لك.

عندما استيقظ ألماظ من النوم، رأى عائلته في نوم عميق في الغرفة المحكمة، حيث برودة الطقس، وصوت انهمار المطر.

ترك الفراش وراح يمارس حركات رياضية في الصالون، ثم مالبث أن فتح الباب وأطل على الشارع حيث الحركة دؤوبة في الناس، راوده إحساس بجمالية ونكهة الحياة وهو ينظر إلى زحام الناس.

عندئذ نهضت زوجته وشرعت في إحضار طعام الإفطار، ثم راحت تيقظ الأولا د.

مع جلوسه برفقة عائلته في تناول الطعام، خطر له أن الجلوس إلى مائدة الطعام دون شقاوة الأطفال يفقد نكهة أساسية منه، كل طفل يقشر بيضته، يغمس كسرة خبز في العسل، ثم يتناول رشفة حليب، وهو يتأمل جمالية العائلة وجمالية تماسكها،

حيث يفقد الإنسان دون عائلة جوانب مثيرة غاية في الأهمية من المزايا الإنسانية التي تجعله أكثر توازناً وخبرة واتساعاً في أفقه، وبعداً للنظر في خضم حياة بالغة الجدية والألق.

إنها روح المسؤولية التي تجنّب الإنسان مشاعر العدمية واللاانتماء والفوضى الروحية العارمة.

عندما يرى صبية، يتذكر ابنته الصبية

عندما يرى صبياً، يتذكر ابنه الصبي

عندما يرى زوجة، يتذكر زوجته

عندما يرى أباً، يتذكر أبوته

عندما يرى محفظة مرمية على الأرض، يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

على هذا التحوّل الذي أحدثه الزواج، يختلف هذا الشخص

عن شخص آخر دون عائلة وهو يرى صبية، ولا تكون لديه صبية

يرى صبياً، ولا يكون لديه صبي

يرى زوجة، ولا تكون لديه زوجة

يرى أباً، ولا ينتعش بمشاعر أبوية

يرى محفظة مرمية على الأرض، ولا يتذكر محفظته التي تتعلق عليها آمال عائلة كاملة.

عندئذ يداهمه إحساس بأن حاله دون عائلة، كحال نهر ساكن دون جداول تتفرع عنه.

بعد تناول الطعام، استأذنه نجد كي يُخرج دراجته الهوائية الصغيرة إلى الشارع، فهز رأسه بالموافقة.

إنها ساعة من اللهو في الشارع، حيث يقود نجد دراجته وتجري ميرهان خلفه.

أحياناً يُخرج كرسياً ويجلس يستمتع بجمالية لمسات الطفولة عندما يجتمع أطفال الحي يمارسون طفولتهم وشقاوتهم وهو جالس يتناول فنجان قهوة، أو كأسا من الشاي، وبعد قليل تقف زوجته إلى جواره حاملة إنشاز وهما يتبادلان أطراف حديث عن شقاوة

عالم الأطفال، فتعود وتكرر ذات الجملة التي تكررها على مسمعه: لو لم يتعلم الكبار من الأطفال سوى سرعة التسامح لكفاهم ذلك.

ثم تستأنف: في اعتقادي يا ألماظ أن أسوأ ما يصيب المرء في مراحل حياته، هو عندما يموت الطفل في أعماقه.

يقول: أحسنتِ يا عزيزتي.

تقول: أحياناً أشعر أن حاجة الكبير إلى الصغير، تفوق حاجة الصغير إلى الكبير، إنهم يحققون لنا التوازن، يذكروننا بمساحة الطفولة، ليس هناك ما يفوق بسمة الطفل بالنسبة للكبير.

يهز رأسه وهو يتأمل الأطفال وكأنهم في عرس ويشرد:

الطفولة هي الفُطيرة التي صنعت رغيف الإنسان في مخبز الحياة يا ألماظ،

تنتمي الفُطيرة إلى شجرة الفطرة التي تتبرعم بذرة الإنسان في دوحة زهرتها، وتتفتح على شرفاتها لتطل على إشراقة وظلمة الحياة بحلة إنسان جديد يسعى إلى الزحف رويداً رويداً شطر رحابة زخم إيقاع الحياة.

كل بذرة إنسان تتلقح وتتبرعم في دوحة زهرة شجرة الفطرة،

لايوجد إنسان لم يتلق التلقيح في عتمة أريج تلك الزهرة.

تنتصب الشجرة شامخة على غِنى جذورها، وينتصب الإنسان شامخاً على غِنى فطرته.

كما أن الجذور تمسك شجرتها كي لاتقتلعها الرياح، وكي لاتمضي وفق هواها، تمسك الفطرة بإنسانها كي لاتقتلعه الرياح، وكي لا يتيه في منعرجات هوى النفس.

كما أن الشجرة تستمد عافيتها من عافية جذورها، يستمد الإنسان عافيته من عافية فطرته.

كما أن الشجرة تكون قوية قويمة على قوة ثبات جذورها، يكون الإنسان قوياً قويماً على قوة ثبات فُطيرة الطفولة.

كما أن الشجرة تموت إذا اجتُثت من جذورها، تنطفئ في روح الإنسان نفحات الإنسانية إذا اجتُث من فطيرته.

تلبث أنوار مشكاة الفطرة ساطعة في روح الإنسان حتى اليوم الأخير من عمره، هذه الأنوار التي تجعله يمتلئ بهالة إشراقة الحيوية كلما ألقى نظرة إلى بهاء الطبيعة، كلما وقع منه بصر على جميل، كلما قرأ كتاباً نفيساً، كلما مضى في شارع جديد.

هذه الأنوار التي تبثه بنضارة التجدد، وتشحن حواسه بطاقة الاندفاع شطر رحابة زهو الحياة والإبداع والاستمتاع بمباهج قيم الأخلاق والعفاف والنقاء.

لولا سطوع نور الطفولة في فطيرته لأخفق الإنسان كثيراً في مسعاه كي يستمتع بضحك عميق، لأخفق في مسعاه كي يقدم عملاً جاداً، لأخفق كثيراً كي ينعم بسكينة الليل وهو يستلقي في دفء الفراش.

يلتفت إلى تقى ويقول لها:

عندما يهب الإنسان بسخاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من مساحة مبدأ الطفولة.

عندما يعفو الإنسان عن كثير، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من معالم قيم الطفولة.

عندما يحب الإنسان بوفاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من رحابة صفاء الطفولة.

هناك أناس يا حبيبتي استطاعوا أن يجرّدوا أنفسهم من غرسة الطفولة المباركة، استطاعوا أن يقلعوا هذه الغرسة من فطرتهم،

فغدوا يعيشون دون مرجع الطفولة، يعيشون دون أن تسطع وجوههم بنورانية الطفولة.

وجوههم قاتمة مطفأة الأنوار، قاماتهم تتحرك كأنما هي أشباح.

هؤلاء يمكنهم ببساطة شديدة ارتكاب قول الزور، ومواراة الحقيقة، يمكنهم أن يكونوا قساة، وطغاة، وقطّاع طُرق، لأبعد حد.

قست قلوبهم فمارسوا الطغيان، دون أن يهتزوا خفقة قلب، وما ضمير الإنسان سوى قبس من قبسات أنوار الطفولة، الذي لا ينعم بطفولة حية، يصعب عليه أن ينعم بضمير حي.

الضميرهو مرآة فطرة الإنسان، لأن الإنسان بحكم فطرته يجنح شطر مواطن التسامح، أكثر مما يجنح شطر مواطن العقاب، يجنح شطر المحبة، أكثر مما يجنح شطر البغضاء، ولايستوطن الغل إلا في قلوب خلت بطانتها من بركات الطفولة.

على منحنيات هذه الدروب الوعرة التي اتخذوها تتعزز في نفوسهم ردّات فعل غير طبيعية تدفع بهم إلى شذوذ السلوك كشيء مما يمكن تسميته بسعي للنيل من صفحة طفولة الإنسان الناصعة، كونهم سقطوا فعلياً في خشونة اللاطفولة التي تساوي خشونة

اللابراءة، خشونة اللاصفح، خشونة اللا توادد.

إنهم في هذه المرحلة المتدنية من منارات السلوك الإنساني يسعون للاعتداء على الأطفال كحالة من الطفولة العامة، يعتدون بكل ما يملكون من أشكال مخزية تثبت مجدداً انحدار نفوسهم إلى الدرك الأسفل من التلوث الروحي.

إنهم يسعون إلى اغتصاب غصن الطفولة، إلى انتهاك حرمة الطفولة، إلى الإساءة إلى فطيرة الإنسان.

لذلك ينطفئ نور الإنسان من وجوههم، تنطفئ لمسة نضارة الكائن البشري من سحناتهم.

من الضفة الأخرى نرى عقاب الطفولة لهؤلاء، عقاب الطفولة البريء الذي يكمن في هجرانها لهم، وتركهم يتخبطون كالعمي في ظلمة الروح.

لا يضحكون ضحكاً طبيعياً،

لا ينامون نوماً طبيعياً،

لا يجلسون جلوساً طبيعياً،

لا ينظرون نظراً طبيعياً،

لا يسمعون سمعاً طبيعياً،

لا يتحدثون حديثاً طبيعياً،

لا يصادقون صداقة طبيعية،

لا يحبون حباً طبيعياً،

ذلك أنهم يعيشون على هامش من فطيرة الطفولة.

تقول تقى: تعلمت من علاقتي بالأطفال من خلال عملي ومن خلال تربية أولادي أن الإنسان ليس بوسعه أن يعتدي على أخيه الإنسان، قبل أن يعتدي على الطفل الكامن في داخله أولاً.

يقول: لأن الطفولة لسوف تنهاه عن ذلك ولو عند حافة اللحظة الأخيرة، ذلك أن علامة عافية الطفل لدى الكبير، عطفه على الصغير.

يحتاج الإنسان إلى سماع صوت الطفل الذي كانه، يحتاج إلى العودة إليه، التحاور معه.

كلّما كان الكبير قريباً من عالم طفولته يا عزيزتي، أحسن تربية أطفاله، وكان لهم خير رفيق، لذلك نحن نحتاج إلى هذه اللحظات الذهبية ننظر فيها إلى هؤلاء الأطفال يمارسون ألعابهم أمامنا، ورغم

كل هذا الليل، نرى في حركاتهم أضواء الإنسان التي بوسعها أن تُضيء عالماً من الظلمات.

في الماضي كان يلتقط صوراً، ومقاطع فيديو ظريفة من خلال كاميرا هاتفه الخلوي ذات الدقة العالية، وبين فترة وأخرى يفرغها في جهاز الحاسوب، ثم يحتفظ بنسخة على الفلاش، وأحيانا يحمّل بعض المقاطع واللقطات المميزة على صفحته في الفيسبوك.

كأن ذلك كله كان يقظة وقد انتقل منها إلى حلم طويل لا يمت إلى ذاك العالم الذي خلّفه وراءه بصلة، كأن الحياة آبت إلى بدائيتها.

كان في الماضي عندما ينفصل الهاتف الأرضي، أو الخلوي يوماً واحداً، يشعر باضطراب وكأنه يعيش خارجا عن الحياة، لم يكن يمر يوم دون أن يتواصل مع مجريات العالم من خلال القنوات الفضائية، أومواقع الإنترنيت، أو بريده الإلكتروني.

كل شيء لبث في موضعه دون حياة، الهاتف، التلفاز، الحاسوب، البراد، الغسالة، المكواة.

كل أداة من الأدوات الكهربائية تذكّره بتألق حياة مضت

وبدت بعيدة عن تناول اليد، حتى اضطرت تقى أن تلبس كل أداة قطعة قماش، وكذلك السيارة الواقفة أمام الباب التي فرغت إطاراتها من الهواء، مغطاة كما الحال بالنسبة لبقية السيارات، حتى جرس الباب لم يعد له لزوم، حيث تم استبداله بوضع جرس آلي مثبت في أعلى الباب، يدق به الطارق.

نهض ألماظ من كرسيه تاركاً زوجته تراقب الأطفال، عاد إلى الداخل، ارتدى ثيابه، وخرج مع دراجته الآلية، لوّح له الأطفال بأياديهم وهو يدفع الدراجة بيديه حتى وصل مفرق الطريق العام، هناك نط بحركة سريعة ليستوي عليها ويقودها متجهاً إلى مشغله.

كانت سهدة تغسل الرصيف المحاذي للمشغل وتتبادل حديثاً مع شاب يعمل أجيراً في دكان جاره /فوزي/ الذي كان سابقاً يبيع فيه مشروبات روحية، وبعد حلول الظلام، حوّله إلى دكان للسمانة.

ـ أهلا وسهلا أستاذ ألماظ

هذه العبارة التي أطلقها الشاب، جعلت سهدة تلتفت لترى معلمها يقف بالقرب من باب المشغل.

قال ألماظ: كيفك يا بطل. . كيف حال معلمك ؟

ابتسم الشاب مجيباً: معلمي مثل الفلة يا أستاذ.

عندما اشترى ألماظ هذا المشغل منذ نحو عشرين سنة، تعرّف على / فوزي/ الذي كان يبيع المشروبات الكحولية إلى جانب الدخان، كان إذ ذاك في الخامسة والأربعين من عمره يعيش عازباً، ويقول بأنه مرتاح في عزوبته.

كان ألماظ أحياناً يجلس عنده في الدكان ساعتين يتبادل معه الأحاديث، وأحياناً يتناول كأساً من الكحول، فيرى مظاهر مريبة على جاره، حيث يتردد إليه صبية ومراهقون، يجرعون الكحول وقوفا أمام باب المحل مع بعض الموالح أو البطاطا المجففة، ومنهم مَن يدخل ليجرع زجاجة في الداخل.

تعتريه الدهشة لمنظر شبان يجرعون زجاجات الكحول جرعة واحدة، وعندما يعبّر لجاره فوزي عن استغرابه، يجيبه مقهقهاً: شباب يا أستاذ ألماظ، شباب بكامل لياقته.

كان كلما دخل عليه وجد كأسا من العرق بجانبه، وكلما فرغت الكأس، ملأها، ثم مدّ إليه كأسا وهو يقول: إنه لذيذ

ومنعش.

لم يكن يعلم أن شبان المدينة أصبحوا ضحية للكحول والحقن والأقراص المخدرة، لولا هذا المحل الملاصق لمشغله، كان يتألم وهو ينظر إلى الصبية وأحيانا يذرف الدموع رثاء لِما آلت إليه حالهم.

كانوا شبانا يقبلون على الحياة للتو، يريدون فقدان الوعي بأي طريقة سريعة المفعول.

آنذارك لفت نظره شاب وسيم في السادسة عشرة من عمره يدخل المحل ويجلس بالقرب من/ فوزي/ الذي يوليه عناية خاصة، يقول له فوزي عندما يدخل المحل فجأة: تعال يا هوزان، اقعد بجنبي.

يسحب كرسياً ويجلس بجانبه، ثم يراه ألماظ يتصرف في المحل كما لو أنه صاحبه، كان يشرب بكثرة، وأحياناً يراه يتناول الأقراص المخدّرة، يحقن يده، يدخن أصناف المخدرات، ومما لفت نظر ألماظ أنهما يتبادلان الغمز واللمز.

مرات عديدة عندما كان يتأخر في تثبيت بعض اللوحات على واجهات بعض المحال، ويضطر للعودة إلى مشغله، كان يلمح

هوزان داخلاً المحل خلسة كما لو أنه لص، فيصرف /فوزي/ أجيره من المحل، ويغلق الباب، وفي بعض الأحيان يراهما معاً في سوق المدينة.

بعد عدة أشهر، لاحظ ألماظ غياب هوزان، وأنه لم يعد يراه يدخل الدكان، وذات مرة بينما كان ألماظ يجلس على كرسي بجانب باب المحل، تقدم إليه فوزي وألقى عليه السلام، فأجلسه ألماظ على كرسي بجانبه، وطلب من سهدة أن تأتي له بكأس من الشاي، عندها سأله عن هوزان الذي لم يعد يراه منذ مدة.

توقف فوزي قليلاً، ثم رأى دموعاً تنهمر من عينيه وهو يقول: لاأعرف كيف حدث ذلك يا جاري.

لقد وجدوه ميتاً في أحد أقبية بناء جديد غير مسكون بعد، وقال الأطباء بعد الكشف عليه أنه مات بسبب تناول كمية كبيرة من الكحول والأقراص المخدرة.

كان هوزان في ذاك القبو المهجور لوحده دون غطاء في ليل قارس من شهر كانون الثاني، وكان قد أشعل ناراً يتدفأ عليها، لكن الحقيقة يا جاري أصارحك بأنني تسببت في موته.

قال ألماظ: كيف ياجاري ؟

قال وهو يمسح دموعه: قبل يومين من ذلك حدث بيننا خلاف، كنتُ ثملاً وطلبتُ إليه أن يخرج لبعض الوقت من المحل كي أبقى وحدي، كنتُ بحاجة إلى ذلك، لكنه أساء فهمي وقال: تطردني من دكانك يا معلم فوزي، إي على رأسي، بس ما راح تشوف وجهي مرة ثانية.

قالها وخرج منفعلاً، لم أكن أعلم أنها بالفعل ستكون المرة الأخيرة التي أراه فيها، اعتدتُ عليه، ظننتُ بأنه سيأخذ الأمر بمزاح ويعود بعد ساعتين، لكنه اختفى عني شهراً كاملاً دون أن أعلم شيئاً عن غيابه حتى أخبرني صديق له بذلك بعد الحادث بعشرين يوماً.

بعد نحو خمس سنوات من ذلك، وبينما كان ألماظ يهم بالدخول إلى مشغله في فترة ما بعد الظهيرة، لوّح بيده مسلّماً على جاره فوزي الذي كان بجانب باب دكانه، ومع الإجابة على السلام طلب إليه فوزي أن يتفضل إلى الدكان.

شكره على دعوته، مادّاً خطواته شطر الدكان، لدى دخوله،

رأى صبياً يجلس على حزمة عبوات بيض فارغة، يرتشف كأساً من البراندي ويدخن سيجارة.

لايدري لماذا قفزت صورة هوزان إلى مخيلته في تلك اللحظات، تأمل وجه الصبي قليلاً ثم جلس على كرسي قدّمه إليه جاره الذي جلس هو الآخر إلى جانب الصبي الذي يرتشف من كأس قائلا لأجيره: يا ميثاق افتح بيراية لجارنا العزيز.

لم يكن فوزي قد تغير كثيراً، إنهم ذات الصبية الذين يتجددون ويتهافتون عليه، وها هي أقراص الفلافل، وصحن الشاورما، وكأس العرق، وعلبة الدخان، كأن شيئا لم يتغير، كأن خمس سنوات لم تمض على تلك الطقوس التي كان هوزان يحرّكها، لكن ألماظ أدرك أن فوزي لبث مخلصاً لهوزان عندما وقعت عيناه على صورة له بروزها بشكل جيد وعلّقها في صدر الدكان.

جلس ألماظ الذي استطاع أن يقتحم عالم هؤلاء ويتعرّف على عشرات الشبان الذين كانت تجمعهم ميزة الطيب والتلقائية، وميزة أنهم ضحايا لآباء لم يكونوا آباء، ولأمهات لم تكن أمهات.

بدأ يشاركهما الشراب وبعض الطعام، ويقبل سيجارة من يد

جاره الذي ألح بها عليه قائلاً: دخنها يا رجل.

ثم بعد قليل بدأ يبكي بحرقة وهو يقول: من أجل أي شيء سأعيش يا أستاذ، لا أمل لي، لا هدف لي، لا ماض لي، لا حاضر لي،لا مستقبل لي.

عشتُ عازباً، وسأموت عازباً، لن تكون لي زوجة، لن يكون لي أبناء،لن يقول لي أحد: يا أبي. . يا جدي.

أعيش ولكن خارج الحياة، لا أقرب من الحياة، ولا تقرب مني.

اليوم كالبارحة، والبارحة كاليو، وغدا كالبارحة.

كان يتحدث بألم، وكان ألماظ يصغي إليه بانتباه شديد دون أن يقاطعه بحرف، وبغتة

رآه يشير للصبي بالخروج، فنهض على الفور مودعاً إياهما.

لبثت الدموع تنهمر من عينيه وهو يسترسل بحنجرة مثقلة بغصة بكاء و يبلع ريقه بين كلمة وأخرى، في حين يشعر ألماظ وهو يصغي إليه بأنه يستخرج مع كل كلمة حبة لؤلؤ من حنجرته الذهبية: لا أحد لي من كل هذا العالم، لستُ لأحد من كل هذا العالم، لاأحد يقلق علي إن تأخرت، لا أحد ينتظرني، لا أنتظر أحداً، أنا يتيم

الدهر، لا صحة لي لأحافظ عليها، لا عضو في جسدي إلاّ وبه علّة، لا نفس أتنفسه، إلا وبه وخزة وجع.

كلّي أمراض، وعقد، وألغاز، وعلل، وغموض. . كلّما أردتُ الاقتراب من ذاتي، ازدادتْ بعداً عني، كلما سعيت لحل عقدة، تضاعفت العقد، كلما أنرت جانباً مظلماً، سقطتُ في ظلمة أشد، كلما عالجتُ لغزاً، وقعتُ في شباك من ألغاز.

لا أعرف شيئا عن نفسي، إنها غريبة عني، وأنا غريب عنها، لا أخاف شيئا، لا أحسب حساباً لشيء، كل الاحتمالات ممكنة، إنها سكرة الحياة، إنها سكرة الموت، لا فرق كثيراً.

بغتة صعد الاحتقان إلى وجهه، ازداد الوجه احتقانا، كما لو أنه على وشك الانفجار، ازدادت العينان بروزا كما لو أنهما ستخرجان، مدّ يده إلى بطنه، ضرط ضرطة شديدة، وعلى إثرها تقيأ ثم تناولته نوبة قيء متصلة وقد تمكن منه السكر ونال

من كل مفاصله، أردف يقول بصوت منهك كسير: لا تؤاخذني يا صديقي ،على هذا النمط عرفت الحياة، إنها قاسية علي، أقسى مما كنت أضع لها أي تصور.

زحفت كفه إلى الزجاجة، ملأ نصف الكأس، ثم سكب

النصف الثاني ماء، ورشف نصفها رشفة واحدة، ثم وضع الكأس وضغط بكفه على بطنه: هكذا أعالج الداء بالداء، مثل دائي العويص لا دواء له غير الداء، ثم انغلقت عيناه إثر ذلك، وارتمى خده على ركام من القيء.

عندما رأته سهدة خارجاً من دكان فوزي، تقدمت إليه قائلة: أهلا وسهلا أستاذ، حينها خرج /أكاد/ من المشغل مرحباً به، فدخل ألماظ وألقى السلام على فتاة متوسطة الجمال، اعتاد أن يراها بين وقت وآخر تجالس أكاد في المكتب المخصص لتنظيم مواعيد العمل واستقبال الزبائن من قبل أكاد وسهدة، وفيما بعد صارا يبيعان الآلات الموسيقية أيضاً.

نهضت الفتاة التي تكن له احتراماً شديداً، ويعلوها خجل جم كلما تراه، حتى أن سهدة قالت له ذات يوم: تقول لَجين بأنها عندما تراك في المحل أو في أي مكان آخر لا تملك نفسها من الارتباك بسبب احترامها الشديد لك: أخجل منه كما لم أخجل من إنسان غيره.

فيما بعد أعلمه أكاد بعلاقته مع هذه الفتاة التي يرغب الارتباط بها ،

وهي فتاة مدرّسة تدرّس اللغة الإنجليزية لطلاب مرحلة التعليم الأساسي، كان أبوها قد جاء مع زوجته منذ نحو ثلاثين سنة من مدينة اللاذقية، يعمل مدرّسا في مدارس المدينة، وبعد عدة سنوات اشترى بيتا وقرر الانتقال النهائي إلى هذه المدينة وقد أنجب فيها بناته الثلاث، وعندما تقاعد، لبث مستقراً في المدينة التي عمل وتقاعد وعقد صداقات حميمية فيها، وقد تزوجتْ ابنته الكبرى في حي مجاور له، بينما الثانية تزوجت من أحد أقربائها في اللاذقية وذهبت تعيش هناك، في حين ترغب لَجين البقاء والزواج هنا ولا تتخيل أنها تبعد عن أهلها، لذلك تقول لسهدة بأنها معجبة بشخصية أكاد ويخططان لمستقبل زوجي معا.

في تلك اللحظات قفزت زوجته إلى مخيلته، لا يدري لماذا عادت به الذاكرة إلى الأيام الأولى لتعرفه عليها، أيام شهر العسل التي قضاها متنقلا في أجمل مدن البلاد، الأيام الأولى التي أعلمته بأنها حامل. . عندها خطر له أن الرجل مهما قدم للمرأة، فإنه لا يرتقي إلى حجم عطائها له.

عطاء المرأة للرجل، عطاء لا تحده حدود، يبلغ بها مراحل

متقدمة يمكن أن تقدم نفسها قربانا، بيد أن الرجل مهما اتسع في عطائه للمرأة فإنه يضع حدوداً لعطائه لا يتجاوزها، لذلك تكون المرأة صاحبة فضل عليه أكثر مما يكون صاحب فضل عليها.

غدا يعتقد أن المرأة مهما تقدمت في درجات الشر، فإنها لا تبلغ مبلغ شر الرجل، ومهما تقدم العفو في درجاته برجل، فإنه لا يبلغ مبلغ عفو المرأة.

تخيّل إذ ذاك أن المرأة ريحانة من رياحين الجنة، يستكين الرجل بطيب ريحها، ويستظل بلطف ظلها، بيد أن معضلة الرجل مع المرأة أنه عندما يتحدث مع رجل، يتحدث إليه على أنه رجل وعندما يتحدث مع طفل، يتحدث إليه على أنه طفل، لكنه عندما يتحدث مع المرأة، يتحدث إليها كما لو أنه يتحدث لرجل فاقداً إياها كل مزايا المرأة.

لو تذكّر الرجل جيدا وهو يتحدث لامرأة أنها امرأة، لوفر الكثير من العناء على نفسه وعلى المرأة.

إنه لا يتعامل معها على أنها امرأة سوى لحظات إيوائها إلى جانبه في الفراش، عندها فقط يدرك بأن التي إلى جواره هي

امرأة، فيشرع في ملاطفتها كما لو أنها وردة، يملأ خديها بقبلات حنونة، يهمس لها بأجمل وأرق وأعذب ما يخطر في باله من عبارات إنسانية شفافة، عندئذ تتفتح زهرة أنوثتها بين يدَيه.

وينامان نوما هنيئاً، نوم أنثى وديعة إلى جانب ذكر وديع، نوم امرأة بديعة إلى جانب بعلها البديع.

لكن الصباح يطرق على نومهما الهانئ الباب ليفسد كل شيء، لأنه ما إن يفتح عينيه حتى يعود إلى نسيانه بأن التي إلى جواره امرأة، فيطلق كلماته الرعناء الصباحية الأولى ليفسد عليها مزاجها الصباحي، ويعكر عليها صفوة استيقاظ ذهنها على ضفة صبيحة يوم جديد، فتضطر المغلوبة على أمرها أن تستجيب لرعونته على أنها رجل جلف بالغ الخشونة، كما أنها اضطرت أن تستجيب للطف حديثه ومداعبته في الليلة الماضية على أنها امرأة أنثى بالغة النعومة.

وكما أن زهرة أنوثتها تفتحت للطف كلامه، فإن أشواك زهرة أنوثتها تبرز كمخالب لتوخزه وخزة وخزة لقسوة كلامه وبطش يدَيه، وهي ترى حجم براءاتها، وحجم قسوة الرجل عليها، فهو الذي لاطف فسحة أنوثتها حتى تفتحت وردة الأنوثة بين يديه وهنأ بما هنأ طول

الليل، وهو الذي أيقظ أشواك الوردة النائمة كي توخزه وخزة وخزة، وكرد فعل منه على تلك الوخزات: ينهال ضرباً مبرحاً علي، ينهال دون تمييز على كل أعضاء جسدي بأعلى درجة من وحشية كما لو أنني رجل ندّ له، وأنا لستُ رجلا إلا في مخيلته، رجل واهن يمكن له أن يسترجل، يسترلم، يستقوى على وهني، كما لو أنني لست حمامة مكسورة الجناحين في قفصه، مستكثرا علي الدفاع عن نفسي حتى بوخزة شوكة وردة ناعمة أفاقها هو ذاته من عمق نومها.

استطاع ألماظ أن يشكل نظرة عن المرأة بالنسبة لمفهومها عن الجنس، الذي هو أوعى من مفهوم الرجل، هذا المفهوم الذي يؤهلها كي تكون أكثر استيعابا لنوازع الإنسان، وبالتالي أكثر تسامحا من الرجل، أكثر تسامحا ليس للمرأة فحسب، بل للرجل أيضا في زلاّته الجنسية بحيث تمتلك شجاعة أن تغفرها له، في حين لا تجد عند الرجل هذه المنارة من منارات العفو، ولذلك فإن المرأة لا تعتدي على الرجل بالقتل عندما يزل في منحدرات نزوة مهما كانت صلته بها، كذلك لا تعتدي على المرأة في زلاتها مهما كانت صلتها بها.

في حين أن الرجل لا يعدل كعدلها في هذه المسألة، حيث يغفر لابنه، أو لأخيه، أو لأبيه، في حين لا يغفر لابنته، أو لأخته، أو لزوجته، أو لأمه، بل قد لا يتردد في تصفيتها لمجرد الشبهة، وهذا لا يعني أنها لا تملك المقدرة على عقابه، بل بوسعها أن توجه إليه عقابا قاسيا كهذا مهما كان موقعه لأن الفعل هو فعل غير أخلاقي بالنسبة لكليهما في درجة متوازية، بيد أن مفهومها الأكثر وعيا لهذه المسألة يحول بينها وبين رعونة العقاب، فهي لا تقدم على العقاب بالنسبة لهما معا، لأن المساواة تأخذ بُعدها بالنسبة إلى مفهومها لهذه الزلّة.

الرجل هنا يصارح الرجل ويصارح المرأة معا في أسرته طلبا للمساعدة إذا زلت به قدماه إلى منحدرات نزوة، بيد أن المرأة تصارح المرأة الأكثر قربا لها فحسب تلمساً للمساعدة، ولا يخطر ببالها أن تصارح ذكراً في الأسرة حتى لو كان في العاشرة من عمره، لأن هذا الطفل يمكن أن يقدم على تصفيتها قبل أن تكمل حديثها له.

أحيانا ينظر إلى زوجته ويردد في نفسه: لو كالت الزوجة لزوجها كل صبيحة صفعة، ثم كل ظهيرة صفعة، ثم كل أمسية

صفعة، لما كان له أن يرفع في وجهها سبابة إدانة، ذلك لعظمة فضلها عليه، ولعظمة شقائها معه.

لو علم الرجل هول شقاء المرأة في أسره وهو يرفع كفه لضربها لتردد ألف مرة، وكعقاب له على إلحاق لحظات ذعر لها، لوجّه ألف صفعة إلى خده.

يبدأ الرجل دوما اعتداءه الوحشي على المرأة، فتحتمل وتتقبل حجم وحشيته كي تحافظ عليه معها، كي تحافظ عليها معه، كي تحافظ عليهما معاً.

يريد الرجل للمرأة أن تغفر له كل هفواته، دون أن يغفر لها هفوة واحدة، يريد أن تغفر له كل زلات لسانه، دون أن يغفر لها زلة لسان واحدة.

مهما قدّم الرجل للمرأة من عطايا، فإنه لا يقدّم لها حقها عليه ،

مهما قدّمت المرأة للرجل من إساءة، فإن ذلك لا يتساوى في ميزان عظمة جميلها عليه.

مضى ألماظ صوب نغمات الموسيقى التي تصدر من مكتب الدورات، تذكر كيف أن نجد بدأ يعزف على آلة الجيتار بشكل

مقبول بعد أن بذل طوني جهداً خاصاً حيث بالإضافة إلى حضور الدروس، غدا يتردد إلى البيت بين فترة وأخرى، ويعطي دروساً خصوصية له ولميرهان.

طرق الباب داخلاً وهو يشير لـ طوني أن يستأنف الدرس.

جلس على كرسي ينظر إلى الأطفال المبتدئين للتو في تلقي الدروس ابتدائية أولى لتعلّم العزف على الآلات الموسيقية التي اختاروها.

بعد قليل من جلوسه دخلت فتاتان، وبعد عدة دقائق دخل شابان وفتاة.

لبث ألماظ جالساً وهو يدرك أن درس الأطفال قد انتهى، ليبدأ درس مرحلة متقدمة بالنسبة لهؤلاء الذين حضروا وبدأوا يجلسون على المقاعد التي تركها الأطفال.

قال طوني: ابق معنا أستاذ ألماظ، هذه المرحلة هي مرحلة الأغاني المتوسطة، سوف أجعل أفضل طالبة عندي تعزف لك أفضل أغنية لديك.

ثم أخذ يشرح له كيف أن المرحلة المبتدئة تبدأ بمقطوعات

موسيقية قصيرة سهلة الحفظ، ثم تتحول المرحلة الثانية إلى مقطوعات موسيقية وأغان متوسطة الطول، ثم الإنتقال إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة عزف الأغنيات والمقطوعات الموسيقية الطويلة، حيث يقبل الطالب على التخرج، وعلى الأغلب يكون ذلك في نهاية السنة الثالثة من بدء التدريب.

دخل رجل بشكل سريع مع طفله الذي يحمل عوداً، وهو يعتذر للمدرس عن تأخره.

هز طوني رأسه بالإيجاب، فراح الطفل يجلس بين الطلاب، في حين جلس الرجل بجانب ألماظ بأدب جم ملقيا عليه التحية، عندئذ سرت نفحة نشوة في أوصال ألماظ والرجل يبرك إلى جواره، لا يدري لماذا انتابه إحساس بأنه رجل لطيف، مسالم، طيب، وخطر في باله أن يقارن بين رجلين، أحدهما يهدي ابنه آلة موسيقية، والثاني يهدي ابنه مسدساً.

همهم في سره: عندما يهدي الأب ابنه آلة موسيقية، فذلك يعني أنه يهيئه كي يقدم الموسيقى إلى الآخرين.

وعندما يهدي الأب ابنه مسدساً، فذلك يعني أنه يهيئه كي يقدم

الرصاص إلى الآخرين.

عندما يدخل الكبير عالم الأطفال، يدرك حجم بعده عن مساحة براءة الطفولة، يدرك حجم ما ألحق بنفسه من تجاوز،

يدرك كم على الإنسان أن يعاتب نفسه

كم عليه أن يهذّب نفسه

كم عليه أن يعالج سوء الظن في نفسه.

لا تنس للحظة واحدة يا ألماظ بأنك سوف تنظر بعين واحدة وتقف على قدم واحدة عندما تؤازر نفسك على أخيك، وأنك سوف تنظر بعينين وتقف على قدمين عندما تؤازره عليك.

إنك تحتاج إليه كي يقول لك بأنك على صواب أكثر من حاجتك إلى نفسك كي تقول لك بأنك على صواب.

ليس من مظهر القوة أن تقابل خطيئة المخطئ بالعقاب، لكن من مظهر القوة أن تقابل خطيئته بالعفو.

عندما تقابل خطيئته بالعقاب، فإنك تبدو في نظره وفي نظرك صغيراً،

وعندما تقابل خطيئته بالعفو، فإنك تبدو في نظره وفي نظرك كبيراً،

تكمن مفاصل قوتك كلما تنجح في تدريب نفسك على استيعاب أهل الخطيئة بحقك، وتكمن مفاصل وهنك كلما تفشل في استيعاب أخطائهم.

تذكر دوماً أن مرتكب الإساءة قد لا يكنّ لك بغضاً، بل يكن لك مودة عظمى، إلا أنه عّبرعن قوة مودته العظمى بتلك الإساءة إليك، عند ذاك لا تفصح تلك المودة عن نفسها إلاّ بمسحة عفو منك عما تراكم عليها من غبار.

لا تنس طرفة عين أن حاجة هؤلاء كي يحبوك، هي أعلى من حاجتهم كي يمقتوك،

تذكر أن حاجتهم كي تحبهم، هي أعلى من حاجتهم كي تمقتهم.

كما أن حاجتك كي تحبهم أعلى من حاجتك كي تمقتهم، وحاجتك أن يحبك هؤلاء أعلى من حاجتك أن يمقتوك.

ثمرة العفو أكثر نضجا من ثمرة العقاب

ثمرة العفو أنكه طيبا من ثمرة العقاب

ثمرة العفو أعلى صحة من ثمرة العقاب.

في تلك اللحظات خطر له أن الإنسان مهما تبدّا إليه بأنه قوي، فهو ضعيف، مهما تبدّا إليه بأنه ضعيف، فهو قوي.

يستمد الضعف مقوماته من القوة، وتستمد القوة مقوماتها من الضعف.

عندما يريد الإنسان أن يكون قويا، فإنه سيصبح قويا، وعندما يريد أن يكون ضعيفا سيصبح ضعيفا.

عندما يريد الإنسان أن يكون شجاعا، فإنه سيصبح شجاعا، وعندما يريد أن يكون جبانا، فإنه سيصبح جبانا.

عندما يريد الإنسان أن يكون قواداً، فإنه سيصبح قواداً، وعندما يريد أن يكون عفيفاً، فإنه سيصبح عفيفاً.

عندما يكون المرء مع نفسه، فَمَن سيكون عليها

وعندما يكون المرء على نفسه، فَمَن سيكون معها.

دخلت سهدة وتقدمت على الفور من ألماظ هامسة في أذنه أن صديقه الدكتور ريزدار ينتظر في المكتب.

المعذرة، قالها للرجل المجاور له، ثم لوح كفه بالشكر لـ طوني، ونهض خارجاً إلى ضيفه.

عند دخول المكتب وقعت عيناه على ريزدار الذي كان يجلس على أريكة: مرحبا بك يا عزيزي.

قالها ألماظ مصافحا صديقه الذي نهض قائلا: ألف مرحبا أستاذ ألماظ.

بعد قليل قدمت سهدة كأسين من عصير البرتقال مع صحن من البندق.

قال ريزدار: يا رجل، غريب أمر هذا الليل، إنه يخيّم ككابوس على البلاد والعباد ولا بصيص ضوء حتى من بعيد ؟!

قال ألماظ: الآن يمشي إنشاز بشكل جيد، هذا يعني بأننا أمضينا سنتين حتى الآن دون أن نرى الشمس.

ثم أردف يقول: أتعلم يا ريزدار أنني لم أحن إلى شيء قدر حنيني إلى منظر شجرة عامرة بالورد في أوج الربيع، أنظر إلى خيوط الشمس تداعب خصلات شعرها على أنغام شدو البلابل ورذاذ خفيف من المطر.

هل كان ذلك واقعا.. كانت الشمس تشرق كل يوم علينا، تشعرنا بدفء الحياة، كنا ننهض ونمشي تحت اشعتها.

لا تتصور يا عزيزي كم اشتقت إلى ذاك الشروق الذي يبدو بعيد المنال.

تناهت طرقات خفيفة على الباب قاطعة حديثهما، فقال ألماظ: تفضل

اندفع الباب ليدخل الدكتور إسحق برفقة /شرف/ وهو كاتب قصص ساخرة يظهر كثيرا مع الدكتور إسحق في الأماكن التي يتردد إليها.

ألقيا التحية عليهما، فنهضا واستقبلاهما بترحاب.

قال ألماظ: تفضل صديقي الجميل

قال ريزدار: أهلا وسهلا حكيم كيفك

ـ بخير. عايشين في هذا الليل الطويل

- كيف كاتبنا الظريف

قال شرف: تمام دكتور.

بعد قليل دخلت سهدة حاملة سفرة عليها كاسات شاي مع علبة عسل إلى جانب صحن بتيفور. وضعت ملعقة عسل في كل كأس، ثم راحت تسكب الشاي وتقدمه إليهم، وقد وضعت صحن البتيفور في الوسط، ثم حملت السفرة السابقة خارجة، عندئذ قال لها الطبيب: خذي بالك من الحمار. تأكدي إن كنت ربطته مليح

قالت: أمرك دكتور، أنت وحمارك في عيوني.

ابتسم الجميع، فقال ألماظ: خير دكتور، ليش ماركبت البسكليت ؟

قال: أخي، والله صحتي ما تتحمل سوق البسكليت مسافات طويلة، أحيانا تتقلص عضلات ركبتي، والحصان يا أخي عالي، أخاف أقع منه، وأحتاج إلى مَن يحطني فوقه، وينزلني، أحسن شيء الحمار. خفيف ونظيف ومريح، وصديقي /شرف/ راكب خلفي مرتاح.

قال ألماظ: أصحاب مغاسل السيارات خيراً صنعوا عندما تحولوا إلى غسل الحمير والخيول والدراجات.

قال الطبيب: عندما يراني عمال المغسلة على الحمار يقولون: أهلا بالراكب والمركوب.

يضيفونني شيئا حتى يغسلوا الحمار بالمساحيق، ثم ينظفوه ببخ مياه غزيرة عليه كما كانوا يفعلون مع سيارتي، بعد ذلك ينشفوه بمنشفة حماري الخاصة التي يحتفظون بها عندهم.

مسكين هذا الحمار، عندما أُحس بأنه انتعش وصار أكثر لياقة

- ضحك قليلاً ثم استأنف يقول -: آخذه إلى حمارة صديقنا /أبجر/ حتى يأخذ حقه ولا يبقى مكبوتاً، لأنه عند ذاك قد يرميني من ظهره جزاء على اضطهادي، وتسبب في حرمانه من حق طبيعي له.

عندما يراني أبجر يقول: سوف نحتفل بالعريسين ؟

فأضطر إلى الجلوس والاسترخاء، وترك حماري في الخارج.

أرى صديقي يحضر مائدة صغيرة، ثم يذهب ويدخل حماري الذي ما إن يرى حمارته حتى يطلق نهيقاً علامة لمدى شوقه، فتستجيب حمارته بنهيق مشابه.

عندها نتناول الطعام والشراب ونحن ننظر كيف أن حماري يطارد حمارته بذكره المنتصب الذي كان مختفياً، وما إن رأى الحمارة حتى أخذ بالانتصاب.

تتدلل الحمارة عليه، وتدّعي بأنها تتهرب منه، فيلاحقها ويقذف بجسده على ظهرها حتى يتحكم منها، ويعانق الحبيب محبوبته.

إنه يعلم جيداً أن ضالته موجودة في حوزتها، كما أنها تعلم جيداً أن ضالتها موجودة في حوزته.

يروق الجلوس لـ /أبجر/ وهو ينظر إلى تفاصيل المشهد ويدخن

غليونه مع كأس من الجعة، وبعد قليل يوقد الفحم ويبدأ في شي الكباب.

في تلك اللحظات يوسوس له الشيطان فيقول قولاً لا يصرّح به إلا في موقعة كهذه، حتى أنني عندما أصدفه بعد ذلك في مكان ما، ألمح الخجل بادياً على وجهه وهو يحدثني، وقد احمرّت عيناه، لكنه يسارع في القول: لا تؤاخذني حكيم، المشروب يحكّي.

فأقول: لا يهمك يا صديقي.

عندما أشعر بأن حماري نال مبتغاه، وهدأ روعه، أتهيأ للنهوض، فيضع كفه على كفي قائلاً: يا رجل لا تفسد عليهما أجمل لحظات الاستمتاع ببهجة الحياة، ألا يستحقان أن نكافئهما على تحملهما مشقتنا ومشقة ما نحمل من أغراض.

يستجيب لنا هذا الحيوان المسكين، وهو يحملنا مع أغراضنا دون أن يعترض.

عندما تنتهي السهرة، نثمل جيداً، وتروق بنا اللحظات، يقول أبجر: الآن يا صديقي ليس هناك أفضل من حضن الزوجة.

فأعلم بأنه سوف يأذن لي بالعودة إلى البيت، أركب حماري

الذي يبدو مسترخيا وواهناً، وأنا أستعجل به كي يوصلني إلى ذاك الموضع الذي ليس هناك أفضل منه كما قال أبجر أفندي.

قال ألماظ: فكرة مذهلة، ثم التفت إلى ريزدار قائلاً: ألديك حمار وسيم يا صديقي، توجد لدي حمارة جميلة.

بعد ضحك مجلجل قال ألماظ موجهاً كلامه إلى شرف: هل كتبت شيئاً جديداً يا أديبنا الظريف ؟

قال: أكيد. . لأنني أتنفس كتابة

قال إسحق: يا سيدي، لا شيء يجعلني أضحك ضحكاً عميقاً بقدر قصصه الساحرة، أحياناً أقرأ قصة له كشيء من العلاج النفسي.

قال ريزدار: قصتك الأخيرة التي أعطاها لي الدكتور إسحق كانت رائعة. . صورتُ منها مئة نسخة ووزعتها على أصدقائي.

قال إسحق: في البدء أسماها / ضرطة الرئيس/. وعندما جلبها لي اقترحت عليه تغيير اسمها إلى / الريح /

قال شرف: أخيراً وفقنا بين رأيه ورأيي، فصار اسمها / ريح الوالي /.

كان شرف قد كتب بلغته الساحرة قصة قصيرة عن رئيس

يرأس اجتماعا لوزارته بحضور بعض وسائل إعلامه الرسمية، وفجأة صدر صوت من قفا الرئيس أسمع الجميع، فأدركوا أنه أخرج ريحاً، فلم ينبس أحد ببنت شفة.

عندما تحرك الرئيس وأعدل جلوسه، صدر منه صوت آخر، فاضطر إلى الاعتذار لأنه يعاني بعض الغازات منذ ليلة البارحة بعد أن تناول على العشاء كبة مقلية وطبقاً من شوربة العدس دون أن يعصر عليها الليمون، وما زاد في ذلك أنه تناول فجلتين.

في تلك اللحظات مدّ يده إلى علبة المحارم وسدّ أنفه عن الرائحة الكريهة التي انتشرت بقوة في أرجاء القاعة، فهب وزير الصحة قائلاً: أتعرف يا سيادة الرئيس أنني قبل أن أدخل القاعة كنت أعاني من ألم شديد في رأسي، ولكن بعد أن تبركنا بريحكم الكريمة زال الألم من رأسي.

وجه إليه الرئيس نظرة استغراب وهو ما يزال يسد أنفه، ثم وزع نظراته على وجوه الوزراء الذين ركنوا إلى صمت مهيب.

قال وزير البيئة: يا سيدي لم يبق نوع من الورد من بلادنا، إلا وشممتُ ريحه، لكن أقسم لك بأن أنفي لم يحظ قط بريح طيبة

ومنعشة كهذه الريح الطيبة التي خرجت مباركة من سيادتكم، إنها أطيب من رائحة المسك، كيف لا وقد أتت من ولي نعمتنا،إنها ريح استثنائية، كيف لا تكون كذلك وقد أتت من رجل استثنائي، وزعيم لا مثيل له على الإطلاق في عصرنا، حيث هو القائد الأوحد للأمة، ومعلّمها الأول، ومحاميها الأول، وقاضيها الأول، ومصحح مسارها الأول.

كان يتحدث والرئيس يركز نظراته في سماته، وقد أنزل قليلاً من المنديل عن أنفه.

عندذاك هب وزير الأوقاف قائلاً: لو كان الأمر بيدي يا فخامة الرئيس، لقلت للطباخ أن يطعمكم أمسية كل اجتماع كبة مقلية، وشوربة، وفجلتين حتى تجودوا علينا بريحكم الطيبة المباركة التي أنعشت قلوبنا ونفوسنا، إنها أطيب من كل ريح تطيبنا به.

إذ ذاك تنحنح وزير الثقافة في كرسيه وقال: سمعت سيمفونيات العالم، وأعذب المقاطع الموسيقية، لكنني يا سيادة الرئيس لم أسمع من قبل أرق وأعذب مما جدتم به على أسماعنا، ولو كان الأمر بيدي وما دامت الكاميرات قد سجلت هذا الحدث التاريخي،

لأوعزت كي تُدخل الفرقة الموسيقية الوطنية هذا الإيقاع العذب إلى نسيج النشيد الوطني.

عندئذ أنزل الرئيس المنديل عن أنفه، وصار يتشمم لعله يحظى بنسمة من تلك الريح.

قال ألماظ: كلما أراك يا شرف، أذكر قصصك، عندما أهديتني ذات مرة قصة /الختان/ رويتها على أسماع العشرات من أصدقائي.

ضحك إسحق قائلاً: قرأتها للكثيرين، لكنني عندما قرأتها لأبجر، أصر أن أحضر إليه شرف كي يتعرف عليه، فكان له ذلك.

كان شرف قد كتب قصة قصيرة ظريفة مفادها أن حاكم البلاد أصدر عفواً عاماً عن المساجين في بلاده بمناسبة ختان نجله، شمل العفو آلاف الأشخاص الذين خرجوا من السجون وعبّروا عن شكرهم لمكرمة الحاكم بهذه المناسبة الطيبة.

وفي اليوم التالي بينما كان نجل الوالي يتجول في المدينة، هرع إليه من وسط جموع الناس أحد الذين شملهم العفو وصار يقبّل يديه قائلاً: لولاك لكنت الآن سجيناً يا سيدي.

فضحك النجل وهو يلقي نظرة سريعة إلى أسفل بطنه متمتماً:

الأصح. . لولاه.

فقال السجين وهو يأخذ الأمر على سبيل الظرافة مصوباً نظره إلى أعلى ساقيه: كل عام وهو بخير.

قال النجل يداعبه: إياك أن تُسجن مرة أخرى، لا يوجد لدي غير واحد وقد تم ختنه.

أجاب مبتسماً بذات الدعابة: سلامة النجل الأصغر لمولانا يا سيدي.

عندئذ طبطب على رقبته قائلاً: يا شيطان.

ومضى في الطريق محفوفاً بقامات مرافقيه.

قال ألماظ: موضع الأديب من المجتمع، هو موضع القلب من الجسد، ليس بوسعنا أن نتخيل حجم فضل أصحاب تلك الأهرامات الأدبية الفذة على البشرية، كل كتّاب ينبض بخفقات قلوب أبناء الإنسان.

قال شرف: عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من رجل الدين، فعليه أن يعتذر من قلمه.

عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من رجل

السياسة، فعليه أن يعتذر من قلمه.

عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من عالم الاجتماع، فعليه أن يعتذر من قلمه.

عندما لا يستطيع الأديب أن يؤثر على المجتمع أكثر من عالم التربية، فعليه أن يعتذر من قلمه.

ذلك أن الأديب هو رجل دين بامتياز، ورجل سياسة بامتياز، وعالم الاجتماع بامتياز، وعالم تربية بامتياز.

وإن كان دون ذلك، فهو لا يرتقي إلى درجة أن يكون أديباً.

* * *

عندما استفاق، رأى أولاده يلعبون في الغرفة المجاورة، كانت ميرهان تعزف بأصابعها على أوتار الكمان كما لو أنه آلة عود.

عندما يكون الطقس شديد البرودة، اعتاد أن يستحم في الأسبوع مرتين حسبما يقدّر الوقت، أما عندما يكون الطقس دافئاً، فإنه يستحم بماء بارد كلما استفاق من النوم لأن الأمر لا يحتاج إلى تسخين، ولا يحتاج إلى تدفئة البيت بشكل جيد.

يفتح الدش على جسده حتى يكتفي، ثم يرتدي ثيابه الصيفية

ويخرج.

بعد انتهائه من الحمام، صنعت زوجته طعاماً، فتحلقوا حول السفرة التي هي سفرة صباحية لأن تقى أيضاً ستخرج إلى دوامها بعد ساعة بواسطة العربة التي صممتها الروضة لهذا الغرض، وهي عربة خشبية واسعة تم تسويجها على الدائر بقطع خشبية لحماية الأطفال من السقوط، وفي الشتاء يتم إغلاقها بواسطة جادر لحمايتهم من الهواء البارد والمطر، تتسع لنحو ثلاثين طفلاً مع السائق والمرافقة، يجرها ثلاثة أحصنة على قدر جيد من العزم. وقد تم تزويدها بمدرّج من الخلف كي يستخدمه الطفل في الصعود والنزول، كلما يصل السائق إلى بيت طفل، يضغط على المنبه البلاستيكي، فيصدر أصواتا تنبئ بوصول العربة إلى الباب.

خرج ألماظ يقود دراجته الهوائية ببطء شديد متجهاً صوب مشغله وهو يرسل ويستقبل تحايا الصباح من المعارف.

بعد قليل من المسير، لفت نظره جمع من الناس، فأمال وجهة الدراجة إلى حيث التجمع، عند ذاك رأى الطبيب /سمران/ راكباً حماره، والصبيان يستهزئون به ويرمونه بقاذورات وهم

يرددون وسط الضحكات: خذ دكتور حبة وجع رأس.

ثم يصرخون به: دكتور. دكتور حمارك ضرّط.

يتقدم منه بعض الصبيان، ينزلونه ويركبونه بالعكس على الحمار، ثم ينهالون ضرباً على الحمار الذي يرفس وينتفض حتى يرتمي سمران منه فيقول: أخ يا أولاد الكلب.

كان سمران طبيباً مشهوراً في المدينة، لكن ما إن أخذت مظاهر الثراء تبدو عليه حتى أخذ الناس ومنهم زملاؤه يلحظون تصرفات غريبة تبدر منه.

كانت ممرضته أولى ضحايا هذه السلوكيات عندما فوجئت به في ذروة عمله يطلب إليها أن تقاسمه أجر ضرب الإبر.

قالت له: دكتور عندما لم يكن يدخل عيادتنا أكثر من خمسة مرضى، لم تطلب مني ذلك، كنتُ أعمل معك بشكل شبه مجاني لأنك كنت جديداً في المهنة، وكنتَ تقول لي: اصبري سوف ترين هذه العيادة مليئة بالمرضى حتى تضيقي ذرعاً بهم، الأمر لا يحتاج إلاّ إلى قليل من صبر.

وعندما طلبت مني أن أروّج لك، لم أتردد من الكذب على

الناس، ونشر أخبار عنك لا أصل لها من الصحة.

كنت أستغل أي تجمع للنساء، في حفلات الأعراس، في خيم العزاء، في الدوائر الرسمية، أمام أبواب المؤسسات الاستهلاكية، في المخابز، وأنا أشيع أخباراً كنت تلقنها لي من مخيلتك، إن نسيت، سوف أذكرك يا حكيم، ألا تذكر تلك الشائعة التي ما أزال أحفظها لأنني رويتها عشرات المرات في عشرات الأماكن: منذ مدة جاءنا مريض فاقد الأمل وقال بأنه لم يترك مدينة من مدن البلاد إلا وذهب إلى أطبائها دون أي فائدة، وعندما كشف عليه الطبيب سمران قال:

مرضك ناشئ من كل تلك الأدوية التي تناولتها، لا شيء بك سوى مرض بسيط.

ثم أعطاه علبة واحدة من الحبوب، وطلب إليه أن يبقى مستلقياً على ظهره ثلاثة أيام لا يتناول خلالها سوى سلطة لبن وخيار وثوم، وثلاث كاسات شاي صغيرة واحدة صباحاً، وواحدة ظهرا، وواحدة مساءً، وثلاث تفاحات، وثلاث بصلات يابسة، وحبتي بندورة واحدة ظهراً، وواحدة عشاء، وكأسي عصير البرتقال

الممزوج بليمونة قبل النوم بربع ساعة.

عاد إلينا المريض في اليوم الرابع معافى.

وكذلك تلك التي قلت فيها: جاءتنا مريضة بعد أن قال لها ثلاثة أطباء أنها بحاجة إلى عملية جراحية، بعد أن كشف عليها طبيبنا، قال: لا عملية ولا مَن يحزنون، أنتِ تحتاجين إلى إبرة واحدة.

أعطاها الطبيب إبرة من عنده مجاناً، ذهبت المريضة وعادت إلينا بعد أسبوع للمراجعة وهي بلياقة حصان.

عندها حلفت للطبيب بأنها لن تدخل عيادة طبيب غيره.

أما الكذبة التي صدقها الناس وكانت خلف التحول الكبير في عملنا، كانت عندما استعنتُ بصديقة لي كي تشيع في خيمة عزاء أن أحد المرضى الذين أخبر الأطباء ذويه كي يغسلوا أيديهم منه، لأن لا أمل في علاجه، قد رأى في الحلم شخصاً يرتدي جلباباً ناصع البياض يقول له: اذهب إلى الطبيب سمران، علاجك عنده.

عندما استيقظ المريض من نومه وكانت الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، طلب أن يأخذوه على الفور إلى عيادة الطبيب سمران.

قالوا: الوقت مبكر، الدكتور نائم الآن

قال: خذوني إليه الآن لأنه ينتظرني في العيادة.

عندها أذعنوا للأمر تحت إلحاحه وكأنهم يأخذونه مسايرة لمرضه إلى العيادة في تلك الساعة المبكرة.

بوصولهم إلى العيادة، بهتوا حين رأوا الطبيب لوحده يجلس في العيادة وكأنه ينتظرهم.

عندما رآهم الطبيب، نهض من كرسيه وأسرع في القول: ادخلوا المريض بسرعة إلى غرفة المعاينة.

أجرى له الفحوصات على الفور، ثم أخرج حقنة من درج مكتبه وحقنها للمريض لأن الصيدليات مغلقة في هذا الوقت المبكر، ولا يريد أن يعذبهم ليبحثوا عن صيدلية مناوبة.

في تلك اللحظات أحس المريض براحة، فتنفس الصعداء وهو يشكر الطبيب.

بعد قليل كتب له وصفة وطلب إليهم العودة إلى البيت والحرص على بقاء المريض مسترخياً دون أن يتعرض لأي إزعاج مهما كان سببه.

قبل خروجهم من باب العيادة قال لهم الطبيب: لو بقي مريضكم ساعة أخرى دون هذه الحقنة لكانت عليه الرحمة، لأنني فجأة انتفضت من النوم في الخامسة والنصف، وكأن أحداً همس لي بأن علي الإسراع إلى العيادة لإنقاذ حياة مريض سوف يأتي في الحال.

في البداية ظننتُ بأنني أتوهم ذلك، لكن الهمس تكرر في سمعي حتى ركبت سيارتي وجئت أنتظر في العيادة، وعندما رأيتكم تأكد لي ذلك، يبدو أن مريضكم له مكرمات.

شاعت هذه الأقاويل في الناس بسرعة البرق، وبدأت العيادة تغص بالمرضى حتى صرت تعاين في اليوم سبعين مريضا.

الآن يا حكيم بدل أن ترفع من أجري وتكافئني، تريد أن تقاسمني تعبي في ضرب الإبر؟!

كان يسمع دون أن يرد وكأنه يشرد بشيء آخر، وعندما رأته مصرا على طلبه، اضطرت للقبول كي تبقى في عملها الذي اعتادته وأصبح جزءاً منها.

ومن الوقائع التي يرويها الناس عن شحه بعد ظهور بوادر الغنى

عليه، أن زميلاً له عندما أُصيب بوعكة وأتى لاستشارته، فوجئ بالممرضة تطلب منه معاينة قبل دخوله إلى الطبيب ،وعندما قال لها أنه زميله وصديقه، استأذنته كي يجلس قليلاً، ثم دخلت إلى غرفة الطبيب، ثم خرجت طالبة منه أن يدفع قيمة المعاينة إذا كان راغباً في الدخول لأن هذا مكان عمل فقط، أما الزيارات الخاصة فلها أمكنة أخرى، فاضطر الرجل أن يدفع كما لو أنه ليس صديقا شخصياً له وزميلا في ذات المدينة.

مضى الأمر على ما هو عليه، وهو يزداد سلبية في علاقاته الشخصية والاجتماعية وحتى المهنية، بحيث بدأ يتعاقد مع الصيادلة، وأماكن التحليل المخبري، والتصوير الشعاعي، حيث يرسل إليهم المرضى بشكل حصري حتى يحصل على نسبة من أجرهم، ويقاسمهم في أرزاقهم، فيضطر هؤلاء إلى إضافة هذه الزيادة إلى حساب المريض نفسه، ليأخذوا منه أجرهم، وحصة الطبيب الذي أرسلهم.

ذات صباح وقبل أن يحل الظلام الطويل بنحو سنة، فوجئت به الممرضة داخلاً عيادته في الصباح وهو ببيجامة النوم، يتحدث كما

لو أنه يهذي.

في البداية تقبلت الأمر ظانة بأنه يمازحها، وسيعود إلى بيته كي يرتدي بدلته لأنه ربما اضطر للخروج ببيجامة النوم كي يشتري بعض الحاجات للبيت ويعود.

لكن بدلاً عن ذلك تبيّن لها وللمرضى بأنه غير طبيعي عندما طلب أن تُدخل إليه مريضاً.

اعتذرت الممرضة للمرضى الذين كانوا في انتظاره قائلة بأن الطبيب في عجلة من أمره وسوف تغلق العيادة اليوم، ثم اتصلت بزوجته التي أتت على الفور وأعادته إلى البيت.

عندما طال به الأمر، اضطرت زوجته أن تأخذه إلى طبيب للأمراض العصبية، فأخبرها بأنه مصاب بداء الزهايمر، الأمر الذي أدى إلى تأجير العيادة إلى طبيب جديد، وبقاء الممرضة على رأس عملها في العيادة.

من يومها اعتاد الناس أن يروه على هذه الحال في شوارع المدينة ليلا نهارا، ولا أحد من أهله يستطيع أن يكبح جماحه، حيث يخرج أحيانا ببيجامة النوم، وأحيانا يحمل بيده زجاجة خمر

ويرتشفها في الشارع، يتردد إلى أكثر الأماكن زحاماً بالناس، يرفع صوته بشكل مفاجئ بعبارات غامضة كأنه يصرخ بأعلى صوته في وجه شخص ما، وأحياناً يذهب إلى عيادته، يريد أن يعاين المرضى الذين يضحكون ويسخرون به، حتى يهدئه الطبيب الذي يشغل عيادته، ويعيده إلى البيت.

توقف ألماظ قليلا وهو ينظر إلى المشهد ويستذكر سيرة هذا الرجل الذي غدا أشهر شخصية ظريفة من شخصيات المدينة، ثم ما لبث أن استأنف سيره صوب المشغل.

* * *

أيتها الشمس الرحيمة، أما من زيارة ولو خاطفة في الأفق
أجسادنا حنّت إلى دفئك
عيوننا حنّت إلى أنورك
أصابعنا حنّت إلى خصلات شعرك
بيوتنا حنّت إلى ذراتك
إننا يتامى، ثكالى يا أمنا
لا حياة لنا، لامستقبل لنا دونك يا شمسنا المجيدة.

كل الأوقات هي وقت واحد

كل الأيام هي يوم واحد

كل الشهور هي شهر واحد

كل الساعات هي ساعة واحدة.

إنها تدور، بيد أنها دون إشراقتك الصباحية، لا تدور

تعالي أيتها الشمس، كوني لنا ولا تتركينا نرتعش ونموت في صقيع الليل، لقد أصاب عفن الليل مفاصل أرواحنا.

مطر لم يروا له مثيلاً، رعود لم يروا لها شبيهاً، بغتة امتلأت الطرقات بمياه الأمطار، سُدت المجاري الصحية، لم تعد مزاريب الأسطحة قادرة على صرف المياه المتراكمة، سكان الأقبية اضطروا إلى تركها بسبب نزول مياه الأمطار وتراكمها في مساحات الأقبية، وما جعل الناس في هول وذعر أن الوقت يمضي دون أن تتوقف الأمطار.

تجّمع الناس في الشوارع يسعون إلى فتح المجاري الصحية، إلى إيجاد تصريفات وفروع للمياه المتراكمة.

وهب البعض لنجدة سكان الأقبية وسط أزيز ريح شديدة

زمهريرية تلفح الوجوه والأبدان.

بين حين وحين ينتشل الناس جثة من وسط السيل الجارف، وتمضي جثث أخرى على مرآة الناس دون أن يتمكن أحد من انتشالها بسبب قوة البرد والريح وغزارة الأمطار وإرتفاع المياه.

أطفال، نساء، شيوخ، شبان، يجرف السيل كل مَن يتمكن منه دون تمييز.

إضافة إلى ذلك أخذت الصواعق تضرب بعض الناس والبيوت وتحرق كل شيء في طوفان بدا لانهائياً، حتى الذي لم يجرفه السيل ولم تصبه شظايا صاعقة مات من هول الرعب والبرد والذعر.

تكهن الناس أن ستة أيام مضت على كارثتهم الإنسانية الفظيعة حتى بدأت الريح تضع أوزارها، والأمطار تخف، والسماء تفسح عن احتقانها، وبدأت تشكيلات القوس قزح التي ظهرت في السماء كأجنحة أمان تبعث الطمأنينة في الناس.

أدركوا أن ظهور قوس القزح هو علامة أمان من السماء لهم، فخروا من بيوتهم منهكين وقد هدهم الجوع والذعر والبرد والنعاس،

كمن ألقى به جموح إعصار أهوج إلى عمق ظلمات محيط قاحط رهيب، ثم بعد استسلام لمصير معتم تباعدت رموشه عن تشابكها بعد كوابيس مفزعة ليستدرك لمحة لمحة، نظرة نظرة، خطوة خطوة، رويدا رويدا رحابة أطلال موطنه الذي أُعصر به منذ دهر قاتم.

هكذا بدا لـ تقى وهي لا تكاد تصدق عينيها، هل هي في حلم، أم هي سحرية دهشة اليقظة.

هكذا كما أن الإنسان يُبعث من جديد، يُعاد تشكله عضواً عضواً، شهقة شهقة، زفرة زفرة، رؤية رؤية، يقظة يقظة.

تنظر غير مصدقة لمسات نزوح الظلام، وزحف الضوء الذي يتقدم شروق الشمس وكأنها كانت مشلولة ونُفخ فيها لتعود بشكل أكثر بهاء، أكثر ألقا، أكثر إشراقة، أكثر حنينا إلى أبنائها الذين تركتهم في وحشة العتمة.

تسربت منها نظرة إلى بعلها المستسلم لسكينة لفائف نوم عميق، مسحت الأولاد بنظرة أكثر يقظة: ألماظ.

هتفت بحة لتزداد ثقة بما ترى، انتظرت لحظات دون أن يرد.

جلست في الفراش، امتدت كفها إلى كتفه في لحظات

مصيرية حاسمة إن كانت في حلم، أم أنه واقع حسي: ألماظي. .
افتح عينيك.

امتدت راحة كفها إلى جبهته كأنها تتحسس حرارته،

أنزلت الأنامل إلى عينيه المغلقتين: افتحهما ستزياك ما هو أبهى من أي حلم.

عندذاك بدأ يتحسس لمسات أناملها، فتح عينيه لينظر إليها نظرة واحدة، ثم ابتسم عائداً إلى غلق عينيه وقد ترك قبلة على ظاهر أناملها.

انحنت تقبله من عينيه هامسة: هلا فتحت هاتين اللؤلؤتين.

فتح عينيه، ثم أغلقهما بسرعة، ثم عاد إلى فتحهما، مد كفه يفركهما وهو يحدّق ملياَ في قسمات وجهها، ثم ينظر إلى الضوء الذي يدخل من النافذة، وينير ظلمة البيت.

هب واقفا كي يزداد يقينا أنه في يقظة وليس في حلم، أشبك كفه بكفها وخرجا إلى الحوش، ثم إلى الشارع ليريا اللحظات الأولى من امتداد خصلات الشمس، واللحظات الأخيرة من نزوح بقايا أنفاس العتمة مع زخات خفيفة من رذاذ المطر.

آبا بخطواتها المتعثرة كشخص واحد، أيقظا الأطفال، ثم خرجوا جميعا ليعتلوا السطح، وينظروا إلى شمسهم التي بدت في صعودها الأولي شطر كبد السماء متجاوزة آثار غيوم داكنة.

امتلأ الحي من حولهم بالزغاريد والأغنيات والدبكات، خرجوا إلى الشوارع على شكل أفواج وجماعات، لم يبق أحد في البيوت.

كل شخص يصافح الأخر ويحتضنه مهنئاً إياه على عودة الشمس سالمة إليهم: مبروك علينا عودة شمسنا يا أخي.

والمرأة تحتضن المرأة باكية بكاء فرح عذب وهي تتمتم: مبروك لنا عودة شمسنا المباركة يا أختي.

اكتظت شوارع البلاد كلها بالناس محتفلين بقدوم الشمس المباركة وكأنهم يحرسونها ويضحون بأي شيء رضاء لها.

أمام ذلك، أعلن أصحاب المحلات فتح أبواب محلاتهم مجانا للناس جميعا لمدة ثلاثة أيام في عرس مفتوح كبير على امتداد رحابة البلاد.

امتدت الأهازيج والاحتفالات حتى ميلان الشمس شطر الغروب، حينها وكأنهم كانوا في حلم واستيقظوا، راودهم وجل أن

شمسهم التي أخذت تجنح شطر المغيب لن تعود إليهم ثانية.

توقف الجميع عن الدبكات والأهازيج، وقد خيّم صمت على البلاد عند لحظات الغروب الأولى.

تسرب الذعر إلى البعض، عبست وجوه البعض مع عودة العتمة واحتلالها أرجاء البلاد بكامل حلكتها ونفوذها وكأنها ليست هي التي جرّت أذيال الهزيمة عندما تقدم سلطان الشمس منذرا بقدوم سيدته منذ ساعات قليلة.

لم يعد أحد إلى بيته، لبثوا على جناح قلق ينتظرون بصمت وترقب حتى أخذت الأهازيج والأغنيات تتعالى مرة أخرى على وقع الدبكات عندما لاح لهم سلطان الشمس متقدماً إياها وطارداً نفحات العتمة التي بدأت تلملم شتائها مهرولة.

بعد قضاء الأيام الاحتفالية الثلاثة، بدأت الحياة تعود إلى طبيعتها، وبدأ الناس يعودون إلى أعمالهم حيث أعيد التيار الكهربائي إلى أرجاء البلاد، وبدأت المحروقات تملأ المحطات، الأمر الذي أعاد حركة السير إلى الطرقات، وبدأ ت الهواتف الأرضية والخلوية تفعّل تغطيتها.

غدت مظاهر الحياة الحديثة تشق طريقها لتتفاعل مع إيقاع الحياة كما لو أنهم يكتشفونها أول مرة، يستخدمونها بحذر شديد وكأنهم يروّضون أنفسهم لعودة الانسجام معها.

أقبل الناس على مشاهدة التلفاز المحلي الذي غدا مصدرهم في معرفة أحوال البلاد، وأخذ المراسلون الجدد ينتشرون في المدن لتغطية ما يستجد في أمور الناس وأحوالهم المعيشية.

حينئذ كانت الخطوة الهامة الأولى للقناة عندما دعت الموظفين جميعاً للعودة إلى وظائفهم في سبيل تسيير شؤون الناس.

قالت المذيعة الجديدة التي تظهر أول مرة في التلفاز: لنفتح صفحة وطنية جديدة في سجل بلادنا، علينا أن نثبت لأنفسنا أولا، ثم للآخرين ثانيا بأننا جديرين أن تشرق علينا الشمس أيضا كبقية شعوب الدنيا.

ليس لنا غير أن نبدأ خطوتنا الأولى من جديد، ونكون ثابتين أقوياء على قدر ما أصابنا من هول وويل.

علينا أن نقدم على إهداء بعضنا بعضا باقات الياسمين التي تنمو بكثرة في ربوع بلادنا الغالية، لنفعل شيئا من أجل بقاء الياسمين

حتى لا يهجرنا إلى الأبد، ونبقى دونه في قحط أزلي.

عند ذاك أحس الناس حاجتهم إلى شخص موثوق به يتولى إدارة شؤونهم، فكان الإعلان عبر التلفاز عن حث مَن يرى نفسه أهلا لهذه الإدارة.

بدأت الأيام والشهور تمضي دون أن يتقدم أحد، فما كان على بعض أهل الإعلام سوى أن يطرقوا أبواب الرموز الوطنية الشهيرة وإجراء حوارات تلفزيونية وصحفية معها، وحثها لترشيح نفسها، وتشجيع الآخرين للمنافسة، لأن مصلحة الناس تقضي أن يكون هناك من يقوم بتمثيلهم في المحافل الدولية، ويصدر مراسيم وطنية تيسر ما يستجد في معاشهم.

في حوار له مع أحد الرموز قال المذيع: سيدي ألا ترى حاجة البلاد إلى شخص يدير شؤون الناس، نبدو بدون هذا الشخص كما لو أننا نمضي في سفينة بلا ربان.

قال: يهمني جدا أن أكون صريحا في هذه المسألة، وهي أنني يمكن أن أدير شؤون دائرة مؤلفة من ثلاثة طوابق، أدير مئة موظف، لكن لم أرتق بمؤهلاتي وخبرتي وحنكتي وحكمتي وثقافتي

وسعة أفقي إلى درجة أتولى فيها إدارة البلاد كلها، بمدنها وأحيائها وضواحيها، بمشارب الناس ومآربهم، إن مؤهلي لهو أقل من ذلك بكثير يا سيدي.

لم يكن أمام المذيع إلا أن يشكره، وبعد ذلك بعدة أيام أجرى مذيع آخر حواراً مع معارض سابق شهير فقال: إنني ألتمس من الناس تفضلهم وتكرمهم بقبول اعتذاري الشديد لأنني لا أرى في نفسي مقومات ودعائم إدارة جسيمة كهذه.

الأمر الذي بدأ بتكرر مع غالبية الضيوف وحتى بعض الضيفات اللواتي عرفن في السابق بنشاطهن السياسي ومواقفهن الوطنية المشهود لهن بها، فكنّ يقدمن اعتذارهن الشديد لأن المطلوب يفوق إمكاناتهن.

عندما يئست وسائل الإعلام عن إيجاد أو إقناع شخص يقبل تولي هذه الوظيفة، خلص إلى القول للناس: علمنا من ضيوفنا أنهم لو قبلوا بهذه الوظيفة، سوف يرتكبوا أخطاء تلحق الضرر بهم أولا، ثم بأسرهم، ثم بأقربائهم، ثم بالمقربين لهم، ثم بعامة الشعب، ثم ببقية البلاد.

إن مجرد التفكير في الأمر يبعث الفزع في قلوبهم ونحن وسائل الإعلام لم يعد أمامنا غير أن نسلم لهذه الحقيقة ونكن الاحترام لكل هؤلاء، ولا نحملهم مسؤولية سفينتنا التي تمضي بنا دون ربان لأن الربان غير المؤهل يقود السفينة إلى التهلكة كونه لا يجيد فن قيادتها، لقد بذلنا كل ما نستطيع وانتهينا إلى هذه النتيجة التي نضعها بين أياديكم.

لكن هذا ليس كل شيء، لقد اقترح علينا ضيوفنا قيادة جماعية للبلاد، وبذلك تخف أعباء المسؤولية العظمى على كاهل شخص واحد، حيث تتقاسم هذه المجموعة مسؤولية جماعية لإدارة البلاد.

عند هذا الواقع، بدأ العمل بشكل جاد لاختيار هذه المجموعة حيث بدأت الرموز الوطنية المشهود بكفاءاتها ومواقفها العمل من أجل الوصول إلى صيغة توفيقية حتى تم الاتفاق أن تتألف هذه المجموعة من خمسة من أبناء كل مدينة، يقيمون في العاصمة ويمثلون عامة الشعب.

لكن مرة أخرى تجنبت هذه الشخصيات الوطنية اللامعة

العمل ضمن هذه المجموعة وقالت أن هناك من أبناء الشعب الذين يعيشون في الظل مَن هم أكثر كفاءة منهم لتحمّل مسؤولية وطنية تاريخية كهذه، وما على الناس سوى أن ينبشوا عن هؤلاء، ويسعوا إلى إقناعهم كي يتقدموا للانضمام إلى ما أسموه: مجلس جماعة الرئاسة.

أضافت هذه الشخصيات في بيانها قائلة: هناك أبطال من أبناء الشعب قدّموا مواقف كبرى لا نملك نحن جماعة الشهرة غير أن نحني أمامهم، لقد أعطوا للناس في ذروة الأزمة أكثر مما أعطينا، دفعوا أبناءهم، وبيوتهم، وأموالهم، في الوقت الذي كنا نحن ننعم برغد العيش ونتنقل بين فنادق ذوات النجوم الخمس، ويدرس أبناؤنا في مدارس فائقة الجودة.

ضحوا بالغالي والنفيس أكثر مما ضحينا، بردوا أكثر مما بردنا، جاعوا أكثر مما جعنا، تألموا أكثر مما تألمنا، تفاعلوا مع مشاعرهم الوطنية أكثر مما تفاعلنا.

هؤلاء يمكنهم إدارة البلاد، وإدارتنا جميعا، إنهم جنود الوطن المخلصين الذين يؤثرون العمل في الخفاء، وعلينا أن نسلط الأضواء

عليهم كي يحمونا ويحموا البلاد حماية حقيقية.

وقال أحد المشاهير: إنني أخجل أمام نفسي أن أكون قائداً لأشخاص نبلاء وعظماء كهؤلاء، كيف أنظر في وجوههم وأنا أدرك بأنني والشعب عامة والبلاد كلها نحتاج إلى أنوار هؤلاء، نحتاج إلى قيادتهم لنا جميعا حتى نطمئن على مستقبل بلادنا، ومستقبل أبناءنا وأحفادنا.

إنهم أبطال المجتمع العظماء، الدعائم والأعمدة التي تقف عليها عمارة البلاد ثابتة شامخة آمنة، مهما أعطينا لهؤلاء - ونحن الذين لا نملك شيئاً نعطيهم، وهم الذين يملكون كل شيء كي يعطونا - فإننا لا نرتقي إلى درجة عطاء اتهم اللا محدودة وقد بقوا في البلاد تحت القصف والدمار رافضين الخروج عن ديارهم، كانوا أكثر شجاعة منا، وكانوا أقل أنانية منا.

بدأت المقترحات الشعبية من المدن تتوالي على العاصمة ولجنة التقييم تستقبل هذه المقترحات، وتجري اختبارات للأشخاص الذين تم ترشيحهم من قبل أكبر أعداد من أبناء مدنهم، وعملت وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي حيث بدأت تدعم اللجنة

بتقديم أشخاص وشهادات شعبية عن مواقفهم ومآثرهم في المجتمع.

بعد نحو ستة شهور، أعلنت وسائل الإعلام عن أسماء هؤلاء الأشخاص الذين تم الاتفاق العام عليهم، كي يديروا شأن البلاد والعباد إدارة جماعية.

بعد هذا الإعلان بثلاثة أيام، ظهرت جماعة الرئاسة هذه على شاشة التلفاز المحلية وأعلنت قبولها بهذه المهمة، ثم أدت اليمين الدستورية وفي نهاية حفل القسم أصدرت بياناً قالت فيه بأن مهمتها هي مهمة مؤقتة، وسوف تسعى جاهدة إلى جانب جميع المساعي الوطنية الأخرى: كي نجد الشخص الذي يقبل أن يحمل عنا هذا العبء بمفرده، ويعفينا من هذه المهمة حتى ننصرف إلى أعمالنا وتربية أبنائنا، ونلتمس منكم العذر إذا بدرت منا عيوب ونواقص لأن ما هو ملقاة على عاتقنا، ليفوق ما نتمتع به من إمكانات وقدرات.

باشرت هذه الجماعة عملها كخلية النحل، وبدأت تستعين بأكبر قدر من الآراء والمقترحات ووجهات النظر، وفي إحدى

اجتماعاتها دعت جماعة الرئاسة بعض أهل الأدب، والفكر، والدين، والفن، وقالت بأنها تحتاج إلى مساندتهم لها لأنهم الأكثر تغلغلاً وتحليلاً وتفكيكاً لبنية المجتمع، إنهم المشكاة التي تنظر الجماعة من خلالها إلى المجتمع كي تراه بشكل جيد.

عندما تم اللقاء، اقترح هؤلاء على الجماعة الاستئناس بالكفاءات المحلية، ولا تكتفي بذلك، بل تمتد وتتسع لتستعين بخبرات أهل العقل والمشورة والكفاءة في سائر أنحاء العالم، واقترح البعض أن يوجّه مجلس الجماعة باسم البلاد دعوة رسمية إلى جميع الأحياء الحاصلين والحاصلات على جائزة نوبل في مختلف فروعها كي يمضوا أسبوعا في البلاد ويقدموا ما لديهم من تصورات وأفكار ورؤى.

إضافة إلى ذلك تُوجّه دعوات إلى كبار الشخصيات الناضجة التي شغلت مناصب كبرى وهامة في مراحل سابقة وتمتع بخبرات هائلة وتعد مراجع سياسية في العالم، إلى جانب أهل الأدب والفن والفكر والإعلام وقمم النوابغ للاستنارة بمشوراتهم، كما يتم العمل بشكل ممنهج على تقديم ميزات ومغريات هامة من أجل استقطاب

النوابغ، وأهل الميزة من مختلف الحقول والمجالات الإنسانية للإقامة في ربوع البلاد ومنحها الجنسية.

اتفقت جماعة الرئاسة على هذه المقترحات، فتكاثفت الدعوات والزيارات المتبادلة بينها وبين أهل الحكمة والعقل والإدارة في العالم بشكل متواصل دام ستة شهور.

بعد ذلك اجتمعت الجماعة في لقاء مباشر عبر القناة المحلية بحضور بعض المواطنين وقالت بأنها انتهت إلى وضع اللمسات الأخيرة حول شخصية الرئيس المقبل للبلاد آخذة بالاعتبار ما استنارت به من مقترحات وآراء وتحليلات كل الذين اجتمعت بهم لهذا الغرض.

قال أحد الأعضاء: أيها المواطنون الأعزاء، رأينا أن يتمتع رئيس بلادنا في المرحلة المقبلة بصحة جيدة، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: أن يتمتع بعقل سليم، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: أن يتمتع بعينين سليمتين، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: أن يتمتع بنزعة إنسانية، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: أن تكون له مواقف مستقيمة مشهود لها في

مجتمعه، ثم ركن إلى صمت.

أضاف عضو آخر: أن يكون ناجحا في علاقته الزوجية، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون مربياً جيداً لأولاده، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون على علاقة سوية مع أقربائه، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون بسيرة حسنة بين جواره، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: ألا تكون له خصومات في مجتمعه، ثم ركن إلى صمت.

عندئذ نهض أحد الحضور من صفوف الجمهور وقال: لو أذنتم لي يا سادتي أن أعبر عن رأيي المتواضع، أنا الذي ثكلت بأسرتي جراء قصف على بيتي.

قال مدير اللقاء: تفضل يا أخي، بل نحن نحتاج إلى وجهة نظرك.

قال الرجل: أريد أن يحظّر على رئيسنا المقبل التوقيع على شراء طائرات، وراجمات، ودبابات، وقنابل، وبنادق قنص، لأننا نخاف أن يشتد عوده ويستقوى بها علينا، ثم يقصفنا ويهدم بيوتنا على رؤوسنا. . صارت الطائرة وهي تحلق فوقنا تسبب الرعب لنا، لا، لا أيها السادة، لا نريد أن نرى طائرات تحلق فوق رؤوسنا مرة أخرى، نريد أن تحلّق أسراب الحمام، بات منظر الدبابة يبث الرعب في نفوسنا، لقد أذاقتنا الويل، هدير الطائرة بات يلسع أسماعنا كلهب النار. . نريد بلادا بلا أسلحة، لا تلزمنا أسلحة فتاكة أيها السادة، لا أحد سيشن علينا حربا ضروسا أقسى مما ذقنا وبالها بأسلحتنا التي اشتريناها بدمائنا، ففتك بها بعضنا بعضاً.

ثم استأنف الرجل يقول بحرقة: ليعلم حاكمنا الجديد أننا لا نحتاج شيئا قدر حاجتنا ألاّ تسمع أسماعنا دوي إطلاق الرصاص، ألاّ تسمع هدير الطائرات، ألاّ ترى أنظارنا جثثاً متفسخة على منعرجات الطرق تنهشها الكلاب، ألاّ تستبد بنا روائح البارود.

ليعلم حاكمنا الجديد أنه سيكون حاكماً على مصح كبير فيه مرضى يحتاجون إلى سنوات من العلاج والهدوء. . يحتاجون إلى

سنوات من سماع الموسيقى، والقراءة، وزراعة الورود، وتربية الحمام الزاجل.

إننا لا نريد منه أمورا تفوق طاقته، ليدعنا حاكمنا الجديد أن نربي الحمام كي يزيّن السماء، ليتركنا نزرع الورود، نسمع الموسيقى، نقرأ، ننام في بيوتنا بسكينة، نريده أن يعاهدنا بأنه سيوفر لنا الكتب، وأجهزة الترفيه والتواصل الاجتماعي الحديثة.

ألاّ يقطع عنا الماء، والكهرباء، الهاتف، والوقود، والطعام.

أن يتركنا نتحدث بما نرى، أن يستقر بنا إحساس في ولايته لنا بأننا أحرار، نريده أن يعاهدنا قائلاً: أقسم بأنني لن أقصف بيتاً في بلادي. . أقسم بأنني لن أطلق الرصاص على مواطن أعزل.

جلس الرجل في مقعده، فأستأنف عضو آخر الحديث قائلاً: أن يكون قد قرأ ما لا يقل عن مائتي كتاب من عيون الآداب العالمية في الرواية، والقصة، والشعر، والمسرح، يقدم أسماء هذه الكتب ووجهة نظره عن مضامينها، ثم ركن إلى صمت

آضاف عضو آخر: أن يكون قد قرأ الكتب السماوية بشكل جيد، ثم ركن صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون قد استمع إلى مائة سيمفونية موسيقية، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون حافظاً لمائة أغنية، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون حافظا لأسماء مائة شخصية تراثية تركت أثرا فينهوض المجتمع الإنساني، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون حافظا لأسماء مائة شخصية حية في بلاده مشهود لها بالنبوغ الأدبي، والفكري، والفني، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: ألا يجيد استخدام المسدس، أو أي سلاح حربي، ثم ركن إلى صمت

أضاف عضو آخر: أن يكون على إلمام برقصات فلكلور بلاده، ثم ركن إلى صمت.

نهض عضو آخر وقال: لن نخفي شيئاً، لأن لا شيء يحق لنا أن نخفيه عنكم، عندما نجيز لأنفسنا أن نخفي عنكم أشياء، فعلينا أن نجيز لكم أيضا كي تخفوا عنا أشياء.

لا سند لنا غيركم، ولا سند لكم غيرنا ما دمتم ارتضيتم بنا أمناء،

وما دمنا قبلنا تولي الأمانة، ثم ركن إلى صمت.

قال عضو آخر: يكون ذلك بموجب اختبار يدوم ثلاثة أيام متتالية، تجريه جماعة الرئاسة بكامل أعضائها، ثم تستأنس بآراء وتقييمات وتحليلات اللجنة التي قمنا بتشكيلها وهي مؤلفة من عباقرة ونوابغ العالم التي وافقت على تقديم المشورة لنا،عندما نضع بين أياديها نتائج ما توصلنا إليه بالنسبة للشخص الذي أجرينا الاختبار له، ثم بعد ذلك ننتهي إلى تقديم تقييمنا وتوصيتنا ووجهة نظرنا المجتمعة النهائية عن هذا الشخص، فيكون لكم القرار النهائي في ما ترونه مناسبا عن هذا الشخص الذي تم الإجماع عليه ليكون رئيسا رسميا لبلادنا، وحارسا أمينا على ديارنا، نسلّمه مفاتيح أبواب بلادنا، يُدخل إليها مَن يشاء، ويَمنع عنها مَن يشاء، نسلمه كنوز الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ثم ركن إلى صمت.

قال عضو آخر: إن بلادنا عروس جميلة، تستحق أن يُعقد قرانُها على عريس كفؤ بها، ثم ركن إلى صمت.

قال عضو آخر: سوف نشهد جميعاً اليوم المشهود التاريخي ذاك، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: سوف ندبك جميعا، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: سوف نغني جميعا، ثم ركن إلى صمت

قال عضو آخر: سوف نصفق جميعا، ثم ركن إلى صمت

عندئذ قام الجميع وغدوا يصفقون وهم ينشدون نشيد الوطن، والكاميرات تتسلط على الدموع التي أخذت تنهمر من مقلهم، متدحرجة على خدودهم كحبات لؤلؤ.

* * *

دخلت سهدة إلى ألماظ وقالت له: أستاذ هناك أشخاص ينتظرون في مكتبي، هل أدخلهم؟

قال: هل يريد ون عملاً معيناً ؟

قالت: قالوا بأنهم يريدون لقاءك.

ادخليهم، قالها وترك الكرسي الذي يجلس عليه خلف المكتب متقدما لاستقبالهم.

دخل خمسة رجال، تفحصوا أناقة مكتبه كما لو أنهم يرغبون في شرائه، كانت ثمة أنغام سيمفونية هادئة تنبعث من مكان لم يعرفوا مصدره.

أحسوا براحة كما لو أنهم في متحف، عندئذ دخلت إليهم سهدة حاملة طبق ضيافة فاخرة من سكاكر وراحة وشوكولا، ثم خرجت لتعود بعد قليل حاملة إليهم كاسات عصير البرتقال.

قال أحدهم وهو يعدل في جلوسه: نحن يا سيدي اللجنة المؤلفة من خمسة أشخاص الذين يمثلون المدينة ويديرون شؤون البلاد ضمن مجلس جماعة الرئاسة.

رحب ألماظ بهم وأثنى على جهودهم.

قال شخص آخر: اتفقنا أن تقدم كل مدينة أسماء ثلاثة أشخاص من أبنائها المشهود لهم حتى يتم ترشيحهم لرئاسة البلاد.

قال ألماظ: خطوة مباركة. . أحسنتم

قال شخص آخر: نحن نحتاج إلى مؤازرتك يا سيدي

قال: أنا وإمكاناتي تحت أمركم يا سادتي.

قال أحدهم: استأنسنا بآراء مختلف شرائح مجتمعنا لإعانتنا على اختيار الأشخاص الثلاثة، ولا نخفيك أن الأصوات التي اقترحتك كانت متقدمة، فكان القرار أن نأتي إليك ونطلب منك بشكل رسمي أن تكون أحد مرشحي مدينتنا الثلاثة لتولي أمر رئاسة بلادنا الحبيبة.

أحس ألماظ بشيء من الإرباك، انتظروا ما سيبدر منه دون أن يفه بكلمة واحدة متمتما في سره: عندما لا تعلم ما ستقول، فمن

الأفضل أن تصمت ريثما تعلم ما ستقول.

بعد سكون دام نحو نصف ساعة وهم في حالة انتظار عما سيقول أجاب: هل تأذنون لي كي أستشير أهلي؟

قالوا: هذا حقك يا سيدي

قال: غدا في مثل هذا الوقت أكون بانتظاركم هنا.

عندها نهض الرجال وودعوه على موعد لقائه غداً.

في المساء عندما عاد ألماظ من عمله إلى البيت، أخبر زوجته كي تهيئ نفسها ليتحدثا عن أمر مصيري هام.

عندما نام الأولاد، أحضرت تقى بعض الفاكهة والمكسرات والشراب وجلست إلى جانبه.

بعد نحو ساعة من الجلوس، أخبرها عن مطلب الرجال الخمسة الذين زاروه اليوم في مكتبه، وأنهم سيعودون غداً كي يعرفوا قراره.

ارتعدت أوصالها، علاها اصفرارقائلة وهي ترتجف بكل أعضائها: يا رجل، أتريد أن تهدم كل ما بنيناه يوماً بعد يوم.

مالنا وما لوجع رأس كهذا، ترانا نرفل في رغد العيش بأمان نربي أولادنا كما نشاء، الناس جميعا يحترموننا، لا نؤذي أحدا ولا

أحد يؤذينا، لا نكذب على أحد، ولا أحد يكذب علينا.

ثم أردفت بريقها الجاف: غدا سوف يصبح لنا أعداء، يشمت بنا الشامتون، سوف تضطر للتوقيع على أحكام السجن والإعدام، لن يكون بوسعك أن تكون في منأى عن الظلم، ألم تسمع المثل القائل: / كلُ مَن حكَم، ظلم/، سوف تكون نهايتنا وخيمة يا ألماظ.

ثم بدأت تذكر أسماء الحكام الذين انتهوا نهايات مزرية، لحق الأذى نساءهم، أولادهم، أحفادهم، أقرباءهم، وحتى أبناء قراهم:

لقد فتكوا بعضهم بعضا يا ألماظ ،غدا عندما تصبح حاكما، ستغدو رجلا لا نخبره ولا يخبرنا، ستذبل مزاياك الحميدة، وتظهر لك أنياب.

إن سألتني عن أهلك مغامرة يمكن أن يقوم بها المرء في حياته، قلت لك دون أي تردد: هي أن يتولى مقاليد الحكم في بلادنا.

ما نظرتُ يوماً إلى حاكم من حكّام بلادنا إلا وشفقتُ به، إنه ينفش جسده كما لو أنه طاووس، ينفش جسده محفوفاً بالحراس والمرافقين كما لو أن على رأسه الطير، والحاشية تواري ابتساماتها

المزدرية التي لا تتوارى إلا عن عين غافلة وهي توجه نظراتها إلى الذيل الذي ألصقته في مؤخرته.

إنها كالكلاب المسعورة تفعل أي شيء من أجل أن يبقى واجهة تتوارى خلفها، لذلك أصدق أن أحدهم إذا خيّر بين موت أحد أبنائه، أو موت هذا الرجل المنفوش سيؤثر موت ابنه على موته، لأن موت ابنه لا يعني موت جميع أخوته وأبويهم، بيد أن موت الرجل المنفوش يعني موت جميع الأبناء وأبويهم، لكن عله أن يبقى محافظا على ذيله، وفي اللحظة التي تنتابه حساسية ولو خفيفة من وجود الذيل، فسوف تؤثر الحاشية موته لأن الحساسية بوجود الذيل مقدمة للعافية، ولزوال الحاشية جميعاً.

إنهم يقدمون على فعل أي شيء من أجل أن يحافظوا على هيبة هذا الرجل المنفوش، وكلما ازداد هيبة أمام الناس، ازدادوا تمكنا من الاستيلاء على خيرات البلاد، وكلما ازداد وهناً، حال ذلك دون سعة الاستيلاء.

لذلك يعظمون هذا المنفوش ويصورونه كما لو أنه سليل الآلهة وهم يشمّون الروائح النتنة التي تُصدرها مؤخرته إلى أنوفهم.

عندئذ وهو ينظر إلى نفوشه في مستنقع كهذا، لا يتوانى كي يتحول إلى لص، يسطو على ممتلكات الناس ويجعل بها موطئ قدم له ولأسرته في بلاد أخرى، وهذا خير مؤشرعلى حالة الاضطراب التي يعيش في تيه مدارها.

تتحدث بنبرات واثقة قوية، وكأنها تفجّر بركاناً كان مخزوناً في عمقها حتى أن ألماظ لم يشأ أن يقاطعها رأفة بها، كي تشعر براحة بعد أن تكون قد قالت كل ما ترغب في قوله.

في تلك اللحظات وهو يستمع إليها كم أحس بقيمة أن يكون الإنسان حرّاً، ولا يكون خانعاً، كل الأمراض النفسية والعصبية، والعقد الاجتماعية يسببها الخنوع والكبت والرضوخ للأمر الواقع.

إنه الخوف الذي يغيّر مصير الإنسان، ويغيّر سلوكه، يغير منهاج حياته برمتها.

قالت تقى بذات النبرة وهي توجه نظراتها إليه: الحاكم الذي يحب بلاده وشعب بلاده، يكون قدوةلاستثمار أمواله في بلاده، يبذل قصارى جهده كي يستقطب أموال الآخرين لاستثمارها في ربوع هذه البلاد، والحاكم الذي يمقت بلاده وشعب بلاده، يكون

قدوة لسرقة أموال بلاده وتهريبها إلى الخارج في أرصدة سرية.

إنها حالة من اللاثقة بينه وبين شعبه، بين قَدَمَيه وبين تراب البلاد التي يتولى دفة الحكم فيها، إنه لا يدري في أي لحظة سوف تلفظه البلاد كمن يقف على فوهة بركان.

لا أدري يا ألماظ أي ازدهار تتوخاه البلاد من حاكم كهذا، ومن حاشية تسخف به كهذه.

إنه يتحوّل إلى كائن مسعور مريض بتضخيم أمواله التي لا يترك منها درهماً في بلاده، حتى أن أرقام ثروته تجعل الشعب كله في رفاه وهو يتلذذ بجوع وفاقة وذل الشعب الذي يتلقى مساعدات غذائية على سبيل الصدقة والعطف الإنساني من تلك الدول التي تستثمر أموال حاكمه، ينظر إلى أفواج الناس تتراكم لتلتقي المعونات الغذائية الخيرية.

حينها لا يتوانى أن يتطاول إلى هذه المعونات أيضا ليستولي عليها كي يبيعها، ويعيدها إلى تلك الدول على شكل أموال كي يزداد بها رصيده، حينها ترى بعض هذه الجمعيات الخيرية أنها لا تأمن على هذه المعونات في أيدي سلطات البلاد، بل تكمل معروفها وتأتي

برفقة هذه المعونات الإنسانية الإنمائية كي توزعها يداً بيد الفقير الذي يتضوّرجوعاً ويقتات من قمامة حاشية الحاكم وحاشية حاشيته، وحاشية حاشية حاشيته.

الحاكم المفسد من شأنه أن يفسد الشعب كله، والحاكم الصالح من شأنه أن يصلح الشعب كله.

عندما أنظر إلى ما انتهى به أمر حاكم أمنه شعبه على بلاد بأكملها وهو لا يأمن شعبه على بضعة دراهم، لا أملك إلا أن أشفق بما آلت إليه حال هذا الحاكم، وحال هذا الشعب، وحال هذه البلاد.

هناك لا تملك الحاشية إلا أن تقتدي به، فيتحول نائبه إلى تاجر، يتحول الوزير إلى تاجر، يتحول السفير إلى تاجر، يتحول الجنرال إلى تاجر، يتحول مدير المؤسسة إلى تاجر، يتحول المحافظ إلى تاجر، يتحول رئيس المخفر إلى تاجر، يتحول ضابط الأمن إلى تاجر، حتى شرطي السير، فإنه يقتدي بمَن هو أعلى منه، فيتحول إلى تاجر.

كل واحد من هؤلاء يرى منفذا لإخراج ثرواته والتأمين عليها بعيداً عن بلاده.

هؤلاء الأشخاص الخمسة يحملون لبيتنا ناراً يا ألماظ، يهددون أمن عائلتنا الصغيرة، أرجوك أن تتجنبهم وتتجنب نارهم التي سوف تجعلنا حطباً لها.

اعتذر منهم، لينصرفوا عنا مع نارهم التي يحملونها، إنهم لا يلزموننا، ونحن لا نلزمهم.

دعنا نعيش حياتنا المستقرة بعيداً عن تلك الأجواء المحفوفة بالمخاطر التي سوف تحيطنا من كل حدب وصوب.

لبث ألماظ في حالة إصغاء حتى خفتت نبراتها، وأحست بشيء من الارتياح.

بعد ذلك ساد صمت دام نحو ساعة دون أن تصدر أي نبرة صوت، عندها اتجها إلى السرير واستسلما لنوم تحت سياط نعاس شديد.

في الصباح عندما استيقظ ألماظ، أحس بنشاط، وكأن ما قالته تُقى ليلة البارحة كان بمثابة منشطات دفعت إلى بدنه ونفسه روح الحيوية واللياقة.

بعد تناول الفطور، اتجه إلى مشغله، ولبث جالساً حتى طرقت

سهدة الباب، وأخبرته بحضور الرجال الخمسة.

استقبلهم بترحاب، وعندما سألوه عن قراره، قال بشكل مباشر دون أي نبرة تردد: أرجو أن تقبلوا اعتذاري الشديد يا سادتي، لأن حرمنا المصون تعترض على أمر كهذا.

art with relationship ID rId1 was not found in the file.